

111111

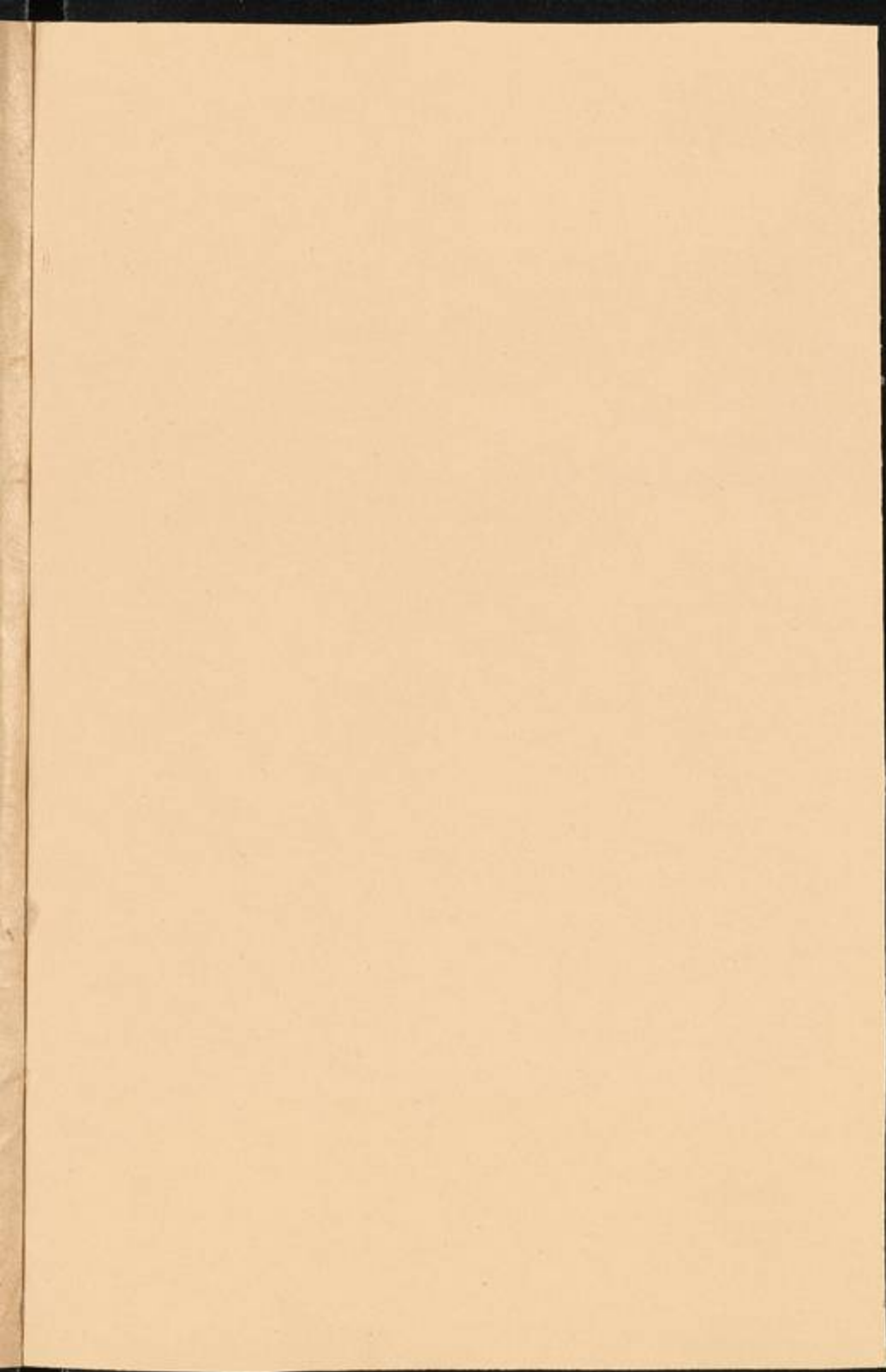
111111



CORNELL UNIVERSITY LIBRARY



3 1924 104 632 900





Cornell Univ.  
LB06/08/094-17

مجمعة الغنزي الى

عقيدة المسلم  
ترانذ

الناشر  
دار الكتب والبحوث  
محمد يسلم السندياوي



الطبعة الأولى { سنة ١٣٧٠ هـ  
م ١٩٥١ م

الطبعة الثانية { سنة ١٣٧١ هـ  
م ١٩٥٢ م



9 505 M

28 MAY 1953

## كلمة الناشر

من حق العقيدة على الكتّاب وعلى الناس أن تتناولها الأفلام الجادة ،  
وأن تكثُر فيها البحوث القيمة ، وأن تلقى من العناية ما يناسب جلال موضوعها .  
وفي عصرنا هذا تصدر مطبوعات فوق الحصر لشغل الأعين والأذهان  
بالمسائل التافهة من لهو الحياة ونفوها ، وترف الحضارة ومجونها . وهناك  
— لا ريب — كتب ضخمة تعالج حقائق العلم ومشكلات الوجود ، لكنها  
للأسف قلما تتعرض بالاهتمام الواجب للإيمان بالله واليوم الآخر . وما يستتبعه  
هذا الإيمان من تصحيح نظرنا للعالم وتفهّم رسالتنا فيها . . . !!

ولو كان الكلام عن الله وما ينبغى له من وقار ، وعن لقائه المنتظر  
وما يتطلبه من استعداد ، وعن رسله الأكرمين وما يجب لهم من اتباع . . .  
لو كان ذلك من النوافل التي يسوغ للمرء أن يتكاسل عنها ويزهّد فيها لما كان  
غليظاً من بأس في غض النظر عن « العقيدة » وبحوثها !!

أما والأمر مقامرة خطيرة النتيجة قد يريح الإنسان فيها حاضره ومستقبله ،  
وقد يحسرها جميعاً . . . فلا بد من التفكير العميق في هذه المسألة ، وبذل الجهد  
في الوصول إلى قرار تستريح إليه النفس . فلننظر إذاً إلى الموضوع نظرة الإنسان  
العاقل إلى كل مشروع فيه هلاكه أو نجاته . فهو يلتفت إليه بكل ما يملك  
من قوة وعزم !!

\*\*\*

وقد نشرنا للأستاذ محمد الغزالي كتباً شتى في النقد والإصلاح العام .  
حتى حسبته القراء قد تخصص في مهاجمة الفساد السياسي والاقتصادي الذي  
ران بأوزاره على الشرق الإسلامي ، وملاؤربوعه المنكودة بالركود والاضمحلال .



على أن هذا الاتجاه الجديد في تقرير علوم العقيدة كما بينها القرآن الكريم  
وصورتها السنة المطهرة هو في الحقيقة عمل حاسم في ميدان الإصلاح النفسى  
والاجتماعى والسياسى . .

فما استطاع الضلال أن يسود بلادنا إلا في غيبة الإيمان الصحيح !  
وما نستطيع الفكك من آصاره إلا بإعادة الإيمان الصحيح إلى القلوب  
الفارغة ! وإن الإنسان ليلمح الوثنية الأولى تطارد عقيدة التوحيد في أكثر من  
ميدان . وفي ميدان السياسة وحده انتصبت أصنام كثيرة ، قام من حولها السدنة  
الساكرون ، يقدمون القرابين من حقوق الشعوب ومصالح الأفراد والجماعات .  
حتى إن اسم الله يذكر فما ينبض عرق بعاطفة وجل . فإذا ذكر اسم غيره  
خشعت قلوب ورجفت أعضاء !! فأئى يستقيم ذلك مع دين يجعل من على  
الأرض عبيداً أذلين للواحد القهار ، ويعدّ الحكام خدام المصلحة العامة ، فإذا  
تفرّعن منهم أحد ، وأحاط نفسه بهالة مقدسة مزيّقة قناعه وكشفت خرافته ؟ . .  
والاستكانة للضيم تحت عنوان الرضا بالقضاء خطأ فاحش ، لا سبيل إلى  
تصحيحه إلا ببيان الصلة الحققة بين أفعال العباد وسنن الخالق في كونه . كما  
رسمتها الشريعة نفسها ، لا كما تتلقفها أهواء الجهال . .

إن الأمة ظمأى إلى الإيمان ، والحضارة الحديثة لا تقدم لهذه الأمة  
إلا السراب الخادع أو الملعح الأجاج ، أما نحن فنزوى العطاش من منابع  
الوحى النقيّ . وذلك حسبنا . وفي هذا الكتاب نقول وقواعد وآراء نرجو أن  
يكون في حشدها على النحو الذى صنّع المؤلف مايفتح الأفئدة ، ويثير فيها  
مشاعر الإيمان بالله والاحترام الخالص لدينه .

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

هذه بحوث في العقيدة ، دُعيتني إلى كتابتها قلة الرسائل التي تعنى بهذا اللون من علوم الدين وتعرضه في أسلوب يتفق مع حاجة المسلمين المعاصرين ! وقد رأيت أن أسوق الأصول العلمية لعقيدة المسلم في نسق يخالف ما ألف الناس قراءته عن هذه الأصول في مظاهرها من ثقافتنا الدينية . لا لأنني سأني بجديد في هذا الميدان . بل نزولاً على منطق التجارب ، وارتفاعاً بما اكتنف جوانب التاريخ الإسلامي من أحداث ، وتوخياً للسير في هدى الفصوص المجردة من الكتاب والسنة . . .

فالذي يقرأ شيئاً عن عقيدة المسلم في العلم الموسوم « بعلم الكلام » أو « علم التوحيد » ، لا يعوزه أن يسجل ملاحظات هامة عن المسائل التي خاض فيها العلماء ، والمجادلات التي دارت بينهم ، والنتائج التي تمخضت عنها مناظراتهم ، وعن أثر ذلك كله في إيمان العامة والخاصة جميعاً !!  
والذي آخذه على منهج البحث في علم الكلام - في حدود ما درسنا من كتبه - أنه :

( ١ ) نظري بحت ، ينظم المقدمات ويستخلص النتائج كما تصنع ذلك الآلات الحاسبة في عصرنا هذا ، أو الموازين التي تضبط أثقال الأجسام ثم تسجل الرقم وتقذف به للطالين !! . . . كذلك سارت الاستدلالات في هذا العلم الخطير . فتكلمت عن الله سبحانه وتعالى وعن صفاته الكريمة ، وانتهت



إلى حقائق جيدة يستريح إليها العقل الحصيف . بيد أن الإسلام في تكوينه للعقيدة يخاطب القلب والعقل ، ويستثير العاطفة والفكر ، ويوقظ الانفعالات النفسية مع إيقاظه للقوى الذهنية ، وقد كنت أرقب عن كثب ما تخلفه دروس التوحيد من كتبه المتررة ، فما كنت أجد فارقاً يذكر - لدى السامعين - بينها وبين شروح المعادلات الجبرية مثلاً . كلاهما ترويض للعقل مبنوت الصلة بالفؤاد . فكان الطالب يذكر طائفة من الأدلة على الوجود الدائم « لواجب الوجود » . ولا يستشعر في قرارة نفسه عظمة الخالق المتعال . أو يختلج في بدنه عرق من الرغبة أو الرهبة نحو من سواه ، وألمه فجوره وتقواه . أفهكذا تدرس العقيدة ؟ وقد فزع العامة إلى علوم التصوف يستكملون منها ما عز عليهم إدراكه في علم الكلام ، ولكن التصوف ميدان كثير المزالقي ، وشطحات السائرين فيه أكثر من سدادهم . ولا شك أن هذا العلم أنعش عاطفة الحب الإلهي . وربط قلوب الناس ربطاً رقيقاً ببديع السموات والأرض ، إلا أن مخاطر الشغل به تجعلنا نتوجس منه ، وقد حاولت في أثناء الكتابة عن عقيدة المسلم أن أرطب جفاف التفكير العقلي برشحات من المشاعر الحية . ولم أتكلف لذلك إلا أن أجعل نصوص الكتاب والسنة نصب عيني .

فلا يستكثرن القارئ إيراد الشواهد منها ، فإن لذلك حكمة مقصودة ، تعرف بعد مطالعتها في سياقها .

( ٢ ) وللظروف التي نشأ فيها « علم الكلام » أثر سيء في سرد حقائقه ووضوح دقائقه ، فإن جحيم السياسة وتطاحن الأحزاب المختلفة أرسل شواظاً من الأحقاد والمهاترات على مداربين الفرق القديمة من جدل حول طائفة من الأحكام الإسلامية ، لا تزال إلى اليوم نشق بها ، برغم القرون الطويلة التي مرت عليها !!



وفي ضجيج الخصومة السافرة يعسر البحث عن الحقيقة ! . ولو أمكن الوصول إليها فإنه يصعب الاقتناع بها ! ومن الغفلة أن نحسب تكوين العقيدة يتم في مجلس مناظرة ، تُتَصَيَّدُ فيها النصوص ، وينشد فيها الغلب ، ويلعب فيها بالألفاظ ، ويُسْتَعْلَى منطلق « أرسطو » في الخاتلة وإيقاع الخصم أمام العامة ! وعفا الله عن أجدادنا ، فقد أولعوا بذلك ، وأعانهم عليه أن الدولة الإسلامية كانت سيدة العالم ، فلا بأس على رجالها أن يشتغلوا بالترف العقلي ، وأن يحولوا فراغهم من الجهاد في سبيل الله إلى جهاد في هذا الميدان الخطر ، فانشغلوا بأنفسهم عن أعدائهم ، ثم ذهب الرجال وبقى الجدال . . . بقي إلى اليوم يهدد وحدة الأمة ويهز كيانها ! .

ومع أن الدولة الإسلامية جثت على قدميها أم الصليبية الغازية ، واقترب الخطر على الإسلام من صميم عقائده وصميم دياره ، فإن الريح الفتنة لهذا الجدل ما تزال تهب من بعض الجماعات التي تحترف — للأسف الشديد — خدمة الإسلام ! .

ولا أحسب أمة تحتاج إلى وحدة الأفكار والمشاعر مثل هذه الأمة الإسلامية . فإذا نشب خلاف على شيء ما ، فإن تحويل هذا الخلاف من الأدمغة المفكرة إلى صفوف الأمة يعد جريمة في حق الله ورسوله وجماعة المسلمين . . .

يقول الأستاذ الجليل المشير أحمد عزت باشا معلقاً على الخلافات الناشئة في علم الكلام : « كانت هذه المناقشات في الأصل مما لا ينبغي أن يتجاوز حدود المناظرات المنطقية والعلمية والفنية . ولكننا أقحمنا اسم الله عز وجل في مناقشاتنا التي لا معنى لها ، فحاول كل فريق منا إسناد الكفر والإلحاد إلى الفريق الآخر ، فقلبنا الخلاف البدائي خصومة دينية لاتهدأ فاختلفت الجهمية

والمعتزلة نشأ في أصله عن التعبير بأن العبد خالق لفعله بدل التعبير بأنه فاعل لفعله وعن تصوّر الاستقلال التام في الإرادة البشرية .

وهذه العقيدة — خطأ كانت أو صواباً — صالحة لتكون موضع مناقشة علمية يستطيع فيها الطرفان مناقضة بعضهما بعضاً ونقده ، بل استجهاله واستحماقه ! ولكن المسألة لم تقف عند هذا الحد ، فقالت القدرية : إن عدم القول بعقيدتنا يعنى إسناد الظلم إلى الله في عذاب الآخرة . وقال معارضوهم : إنكم تنكرون عموم القدرة والإرادة الإلهية ، وهذا كفر . . .

نشأ أولاً هذا الخلاف ، ثم توسع على مرور الزمن ، حتى تولدت منه مبادئ غريبة غير معقولة . . .

والولع بالخلاف سرى حتى ضم إلى العقائد أموراً مضحكة ، فهناك خلاف بين المعتزلة وأهل السنة على حقيقة السحر وعلى تكوّن السحب (١) ، فأى خلط هذا ؟ . وبين المسلمين اليوم نزاع يقصم وحدتهم حول ما دار بين عليّ ابن أبي طالب وغيره من الصحابة في مسائل الخلافة ، فهل على وجه الأرض أمة تجترّ ماضيها السحيق لتلوك منه خلافاً قاسية كهذه الأمة ؟ ولماذا نقحم هذه الأمور إقحاماً في شئون العقيدة ؟؟ ولماذا لا تبقى في نطاق الذكريات التاريخية التي تدرس كأي تاريخ لتؤخذ منها العبرة لحسب ؟ وما صلة الإيمان بالله واليوم الآخر بحكمنا أن هذا أصاب وهذا أخطأ والله يقول : « تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَآسَأْتُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

وإني لأفرا في صحفنا الدينية اليوم نزاعاً بين أتباع السلف والخلف — كما أسموا أنفسهم — وأسمع ألفاظ الكفر تتبادل كما تتبادل الكرة أرجل اللاعبين



فأهز رأسي عجباً ! . إن أعراض المرض لا تزال تعرو الأمة المهوكة ، وما تزال بحاجة إلى عناية الراشدين المخلصين من الأطباء المساهرين .

\*\*\*

وقد استقرت رواسب هذا الخلاف الطائش في أذهان العامة ، ثم سيطرت على سلوكهم بعد ما أخذوا أسوأ ما فيها ، ورفضوا أفضل ما فيها .  
فإذا اختلف القدامى ، هل العمل ضرورة للإيمان أو كمال فيه ؟ ترجح لدى العامة أنه كمال فقط ، فيستفيد المجتمع من هذا الخلاف ترك العمل ! .  
وإذا اختلف القدامى : هل للإنسان قدرة وإرادة يفعل بهما ويترك ؟ أو هو مقهور مكتوف اليدين ؟ ترجح لدى العامة أن المرء لا عزم له ولا حول ولا طول ! فيستفيد المجتمع من هذا الخلاف سقوط الهمة وخور العزيمة ! .  
وإذا تجادل القدامى : هل للمسلم حق الانتجاع إلى الله دون وساطة الصالحين من الأحياء أو المقبورين ؟ ترجح لدى العامة أن المسلم لا يستغنى عن معونة الأولياء ، وأنه إذا ذهب إلى ربه من دونهم فالويل له ! فيستفيد المجتمع من هذا الخلاف شيوع الشرك وضعف الصلة برب الأرض والسماء ! .  
وهكذا لصقت بالمجتمع الإسلامي مجموعة خسائس لاشك في أنها بعيدة الأثر فيما لحقه من اضمحلال وهوان .

وقد بذت جهدى - وقد تصدّيت لتصوير عقيدة المسلم - أن أنجب أشواك هذا الخلاف ، فإذا استطعت طيّه في السياق المطرد طويته وتجاهلته ، وإذا اضطرت إلى خوضه عاجلته على كره ، وذكرت ما استبان لى أنه صواب وقد أستجهل الطرف المقابل - ولا أكفره - ، لأن الجهل القاضح ، كما ظهر لى ، أساس كثير من المشكلات العلمية المهمة ، وربما لحقت في أخلاق بعض المجادلين عوجاً ، وفي أسلوبهم عنفاً ، فأوثر مغفرة هذا على مقابلة السيئة

بعثها ، لأننا أمة فقيرة جداً إلى التجمع والائتلاف ، فلندفع ثمن هذا من أعصابنا والمرجع إلى الله .

(٣) وإذا كان علم التوحيد على النحو الذي وصفنا ، فإن كتبه التي تشيع بيننا الآن فشلت في أداء رسالتها شكلاً وموضوعاً ، فمن ناحية الشكل لا معنى ألبتة لعرض علم ما ، في توزيع مضطرب بين متن وشرح وحاشية وتقرير وفي لغة ركيكة اللفظ ، سقيمة الأداء ، لغة تصور سقوط البلاغة العربية على عهد الاحتلال التركي ...

وتطور الأدب في عصرنا هذا لا ينكر ! . وقد بلغ من تمكن المؤلفين والتأديبين في اللغة أن تناولوا الموضوعات التافهة فأخرجوها في ألبسة زاهية ، ووجهوا ألوف القراء - بسحر بيانهم - إلى ما يريدون ! .

فهل يبقى الكلام في العقائد وحدها حكراً على هذا النمط الزرّي من الحواشي والمتون ... ؟

على أننا إذا تفاضينا عن الشكل ، وتعرضنا للجوهر بالنقد والتمحيص ، لا نلبث أن ندرك أن هذا الجانب الإلهي من الثقافة الإسلامية طغت عليه الفلاسفات الغربية التي نقلها السريان عن اليونان وغيرهم ، فإذا بعلوم العقيدة تتحول عن مجراها العتيده ، وإذا بكتب التوحيد تزدهم باصطلاحات الفلاسفة وطرائق تفكيرهم . ويبدو أن الأسلاف الباحثين في هذه الناحية من الإسلام قد فتنهم الإعجاب بما نقله إليهم التراجم من ثمرات العقل اليوناني . ولذلك خلطوها خلطاً شديداً بتعاليم الدين ...

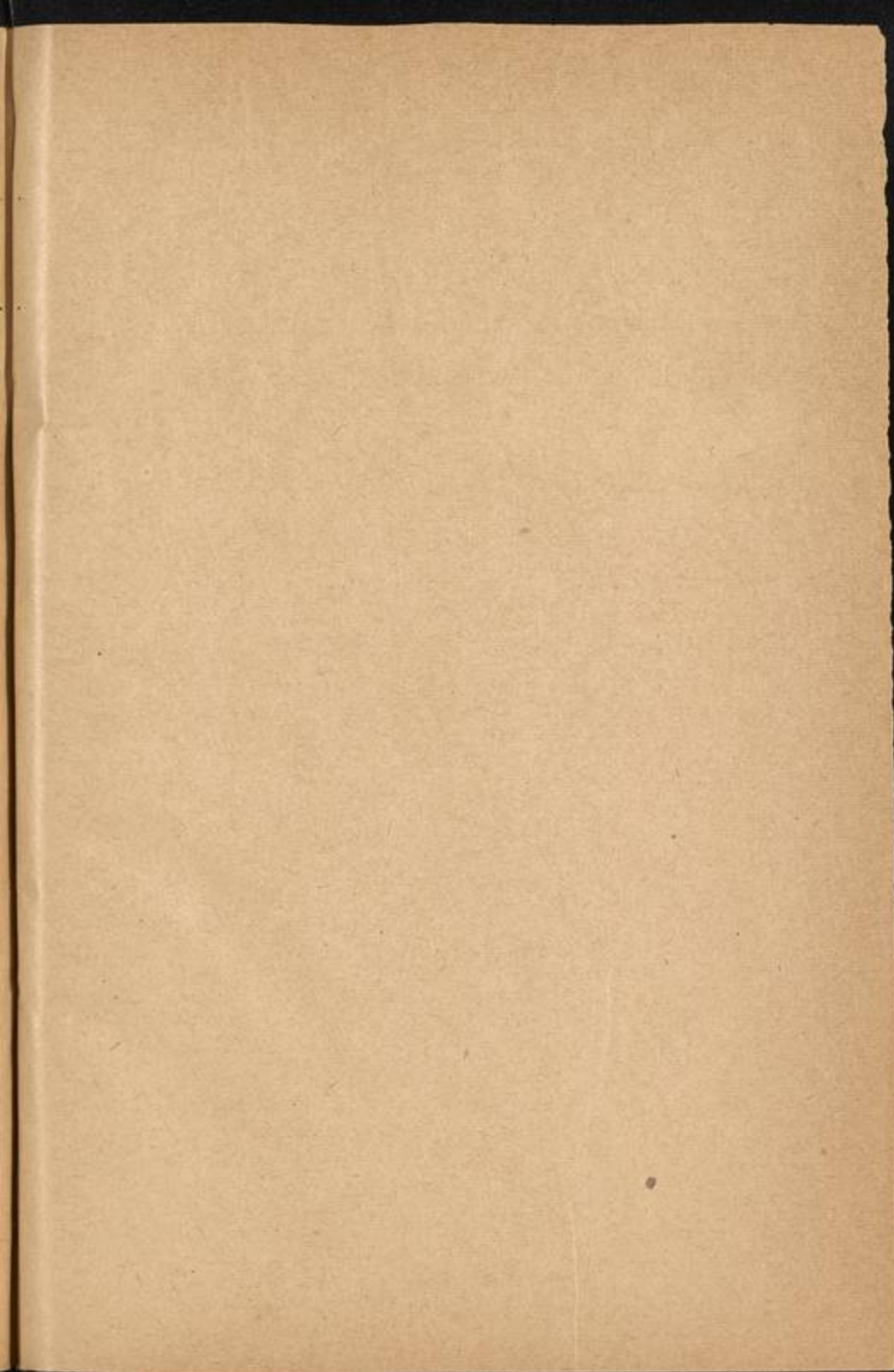
ولسنا بصدد الحكم على قيمة هذا العمل وحكمته ، وإن كنا ننوه بدلالاته على مدى الحرية التي منحها الإسلام أتباعه ، وعلى أن الدائرة التي يعمل فيها العقل الإسلامي تسع العالم أجمع ، فليست مغلقة على عصبية جنسية أو فكرة



محلية . . . غير أن عناصر العقيدة كادت تنيه وسط هذا الركام من النقول والأقيسة والمصطلحات ، فوجب تجميعها في نسق متقارب ! ! ثم إن غرسها في الأفئدة لن يثمر ويزدهر إلا بأسلوب الإسلام نفسه . ومن العجيب أنك تقرأ في أمهات الكتب الكلامية وتطوى الصفحات الطوال ، فلا تكاد تعثر على آية أو حديث ، إلا اقتباسات يسيرة ، تبدو كالزهرات المنفردة في الأرض السبخة . . .

ربما استراح عشاق البحث الفلسفي الجرد لهذه الكتب ، ولا عليهم ! لكن ذلك لا يغنينا عن عرض العقيدة الخالصة حقائق تتصل عن قرب بمصادرها الأولى : « والله يقول الحق وهو يهتدي السبيل » .

محمد الفزالي





(١)

الحقيقة الأولى

## الله

هذا الاسم الكريم علم على الذات المقدسة التي تؤمن بها ونعمل لها ،  
ونعرف أن منها حياتنا وإليها مصيرنا .

والله — تبارك وتعالى — أهل الحمد والمجد ، وأهل التقوى والغفرة ،  
لا نحصى عليه ثناء ، ولا نبليغ حقه توقيراً وإجلالاً .

لو أن البشر منذ كتب لهم تاريخ ، وإلى أن تهمد لهم على ظهر الأرض  
حركة — نسوا الله وكفروا به ، ما خدش ذلك شيئاً من جلاله ، ولا نقص  
ذرة من سلطانه ، ولا كف شعاعاً من ضيائه ، ولا غص بريقاً من كبريائه ،  
فهو — سبحانه — أغنى بحوله وطوله ، وأعظم بذاته وصفاته ، وأوسع  
في ملكوته وجبروته من أن ينال منه وهم واهم أو جهل جاهل ! .

ولئن كنا في عصر عكف على هواه وذهل عن أخراه ، وتفكر لربه  
فإن ضير ذلك يقع على أم رأسه ، ولن يضر الله شيئاً « وَمِنَ النَّاسِ مَن  
يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ، كَتَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ  
مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ » .

## وجوده

وجود الله تعالى من البدايات التي يدركها الإنسان بفطرته ويهتدى إليها  
بطبيعته ، وليس من مسائل العلوم المعقدة ، ولا من حقائق التفكير العويصة .  
ولولا أن شدة الظهور قد تلد الخفاء ، واقترب المسافة جداً قد يعطل

الرؤية ، ما اختلف على ذلك مؤمن ولا ملحد !

« أفي الله شك فاطر السموات والأرض » ؟ .



وقد جاءت الرسل لتصحيح فكرة الناس عن الألوهية ، فإنهم وإن عرفوا الله بطبيعتهم إلا أنهم أخطأوا في الإشراف به ، والفهم عنه .

« هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ » .  
« فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ » .

والبيئة الفاسدة خطر شديد على الفطرة ، فهي تمسخها وتسردها وتختلف فيها من العلل ما يجعلها تعاف العذب وتسيغ الفج .

وذلك سر انصراف فريق من الناس عن الإيمان والصلاح ، وقبولهم للكفر والشرك ! مع منافاة ذلك لمنطق العقل وضرورات الفكر وأصل الخلقه « إني خلقت عبادي حنفاء كلهم فأنتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحلت لهم . . . » .

وقد اقترنت حضارة الغرب — التي تسود العالم اليوم — بنزوع حاد إلى الماراة في وجود الله ، والنظر إلى الأديان جملة نظرة تنقّص ، أو قبولها كسكنات اجتماعية لأنصارها والعاطفين عليها .

ولاشك أن المحنة التي يعانها العالم الآن أزمة روحية منشؤها كفره بالمثل العليا التي جاء بها الدين — من الحق والإنصاف والتسامح والإخاء — فلا نجاة له مما يرتكس فيه إلا بالعودة إلى هذه المثل يهتدى إليها بفطرته كما يهتدى سبيله الجنين في ولادته ، والفرخ من بيضته !!

ومتى هدى العالم إلى الفطرة هدى إلى الإسلام ، فإن الإسلام هو دين الفطرة .

ولا بأس من سوق طائفة من الدلائل التي تفتق للذهن العاقل منافذ يبصر بها ويلتفت لما وراءها .

(١) إن الإنسان لم يخلق نفسه ، ولم يخلق أولاده ، ولم يخلق الأرض التي يدرج فوقها ولا السماء التي يعيش تحتها . والبشر الذين ادعوا الألوهية لم يكلفوا أنفسهم مشقة ادعاء ذلك . فمن المقطوع به أن وظيفة الخلق والإيراز من العدم لم ينتحلها لنفسه إنسان ولا حيوان ولا جاد . ومن المقطوع به كذلك أن شيئاً لا يحدث من تلقاء نفسه . فلم يبق إلا الله ! وقد قرر القرآن الكريم هذا الدليل « أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ؟ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ؟ أَمْ خُلِقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ بَلْ لَا يُوقِنُونَ » ويلفت أنظار العرب إلى مظاهر الإبداع في المجتمع الساذج الذي يحيون فيه « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟ وإلى السماء كيف رفعت ؟ وإلى الجبال كيف نصبت ؟ وإلى الأرض كيف سطحت ؟ » .  
ويسمى هذا الدليل دليل الإبداع .

(ب) لو دخل المرء داراً فوجد بها غرفة مهيأة للطعام وأخرى للنمام وأخرى للنظافة وأخرى للضيافة . . . إلخ ، لجزم بأن هذا الترتيب لم يتم وحده ، وأن هذا الإعداد النافع لا بد قد نشأ عن تقدير وحكمة ، وأشرف عليه فاعل يعرف ما يفعل . والناظر في السكون وآفاقه ، والمادة وخصائصها يعرف أنها محكومة بقوانين مضبوطة شرحت الكثير منها علوم الطبيعة والكيمياء والنبات والحيوان والطب . وأفادت منها للناس أجمل الفوائد . وما وصل إليه علم الإنسان من أسرار العالم حاسم في إبعاد كل شبهة توهم أنه وجد كيفما اتفق ! كلا . إن النظام الدقيق الختفي في طوايا الذرة مطرد فيما بين أفلاك السماء الرحبة من أبعاد :  
« تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا » « اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفَلَاحُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ



تَشْكُرُونَ . وَسَخَّرَ لَكُمْ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ . إِنْ فِي ذَلِكَ  
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . »

وفي القرآن الكريم آيات شتى تقرر هذا الدليل ويسمى دليل العناية .  
(ح) هل فكرت في هذه السيارات المنطلقة ، أعني هذه الكواكب  
التي تحترق أعماء الجو ، والتي تلتزم مداراً واحداً لا تنحرف عنه يميناً ولا يساراً ،  
وتلتزم سرعة واحدة لا تبطئ فيها ولا تعجل . ثم ترتقبها في موعدها المحسوب  
فلا تختلف عنه أبداً !! إن الكرة تنطلق من أقدام اللاعبين ثم لا تلبث  
أن تهوى بعد تحليق ، أما هذه الكرات الغليظة الحجم ، الحى منها والميت ،  
المضى منها والمعتم ، فهي معلقة لا تسقط ، سائرة لا تقف . . !

كل في دارته لا يعدوها . وقد يصطدم المشاة والركبان على أرضنا وهم  
أصحاب بصر وعقل ! أما هذه الكواكب التي تزحم الفضاء فإنها لا تزيع  
ولا تصطدم : « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .  
وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ  
تُذْرِكَ الْقَمَرَ ، وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » .

من الذى هيمن على نظامها وأشرف على مدارها ؟ بل من الذى أمسك  
بأجرامها الهائلة ، ودفعها تجرى بهذه القوة الفائقة ؟ إنها لا ترتكز في علوها  
إلا على دعائم القدرة ! ولا تطير إلا بأجنحة أعارها لها القدر الأعلى :  
« إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا  
مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا » .

أما كلمة الجاذبية فدلالتها العلمية كدلالة حرف « س » على المجهول ،  
إنها رمز لقوانين تصرخ باسم الله ولكن الصم لا يسمعون !

ويسمى هذا الدليل دليل الحركة .

(٤) لا شك أن لوجود كل واحد منا بداية معروفة فنحن قبل ميلادنا لم نكن شيئاً يذكر : « هل أتى عَلَى الإنسان حينَ مِنَ الدَّهْرِ لم يكن شيئاً مذكوراً » . وعناصر الكون الذى نعيش فيه كذلك لها بداية معروفة وعلماء الجيولوجيا يقدرون لها أعماراً محددة ، مهما طالت فقد كانت قبلها صفراً . . .

وكان هناك ظن بأن المادة لا تفنى ، اعتمد عليه فريق من الناس فى القول بقدم العالم وما يتبع هذا القدم الموهوم من أباطيل ، على أن تفجير الذرة هدم هذا الظن . ولولم يتم تفجيرها ما قبلنا هذا الظن على أنه حقيقة ثابتة . فإن المفتاح الذى يفتح على العالم أبواب الفناء ليس من الضروري أن يضعه الله فى أيدي العلماء .

وعدم اهتداء الناس إلى ما يدمر مادة الكون لا يعنى أن مادة الكون غير قابلة للدمار والفناء .

ولم لا يكون ذلك حصانة أقامها القدر الأعلى حتى يمنع العالم من الانتحار؟  
إننا جازمون بأن وجودنا محدث لأن تفكيرنا وإحساسنا يهديننا لذلك .  
وغير معقول أن يتطور العدم إلى وجود تطوراً ذاتياً .

إنه إذا وقعت حادثة لم يُدرَ فاعلها . . . قيل إن الفاعل مجهول .  
ولم يقل أحد قط : إنه ليس لها فاعل . فكيف يراد من العقلاء أن يقطعوا الصلة بين العالم وربه ؟ إننا لم نكن شيئاً فكنا .

فن كوننا ؟؟ ( قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ) .

ويسمى هذا ، دليل الحدوث .



## عقيدة الألوهية عند الفلاسفة والعلماء

معرفة الله سبحانه وتعالى مركوزة في كل طبع . واسمه الكريم معروف في كل لغة . واختلاف الأجناس والأسنة لم يصرف الأفئدة والأفكار عن هذه الحقيقة الواحدة . بيد أن هذه المعرفة المتصلة برب العالمين لم تأخذ امتدادها الكامل وسماتها الراشدة ، ولم تبرأ من الأوهام وتبعد عن الأهواء ، إلا عند ما تلقاها الناس مصفاة من ينابيع الوحي ، وسمعوا آياتها تنلى من أفواه الأنبياء . ولكن ذلك لم يمنع الكثيرين ممن لم يدخلوا في نطاق الرسائل الأولى ، أو لم يتلفهم — على وجه صحيح — هدايات القرآن الكريم ، أن يفكروا في الله من تلقاء أنفسهم ، وأن يطلقوا لعقولهم عنان البحث .

والفلسفة الإلهية حافلة بالكثير من هذه الأفكار كما أن علماء الكون في العصر الأخير قد تكلموا عن الله في حدود ما هدام إليه البحث المجرد في آفاق الطبيعة وأسرارها وقوانينها .

والفلاسفة القدامى أسموا الله الصانع ، والعقل الأول ، وواجب الوجود ، وسبب الأسباب ، وغير ذلك من الأسماء التي اصطلمحوا عليها . كما أن للعلماء المحدثين تصورات في الألوهية التبس فيها الحق بالباطل كما سترى ، وعلّة هذا اللبس أن هداية السماء لم تصحب العقل في سيره ، ومن ثم أقر العقل بالمبدأ الواجب وأخطأ في التفاصيل المتعلقة به .

والمهم أن العقل الذكيّ والبحث النزيه والفكرة المبرأة عن الغرض المستقيمة على النهج ، تتأدى بأصحابها حتماً إلى الله ، وتفقههم خاشعين أمام الشعور الغامر بعظمته وجلاله . وإن من العبادة والبلادة أن يظن السفهاء من الناس أن الإيمان وليد استغلاق الذهن ، أو أن استبحار العلوم واتساع المعارف الإنسانية يחדش قاعدة الإيمان ويوهي الصلة بالإله الديان .

قال « هرشل » - من فلاسفة القرن الثامن عشر - : ( إنه كلما اتسع نطاق العلوم تحققت وكثرت الأدلة على وجود حكمة خالقة قادرة مطلقة . وعلماء الأرضيات والهيئة والطبيعيات والرياضة يهيمون بمساعيهم واكتشافاتهم كل ما يلزم لإنشاء معبد العلوم إعلاء لكلمة الخالق ) .

وانظر إلى ما دُون من آراء اسقراط عن تلميذه أفلاطون :

« هذا العالم يظهر لنا على هذا النحو الذي لم يترك فيه شيء للمصادفة . بل كل جزء من أجزائه متجه نحو غاية . وتلك الغاية متجهة إلى غاية أعلى منها . وهكذا يتم الوصول إلى غاية نهائية منفردة وحيدة ! من أين نشأ هذا النظام الكامل في تفرعاته ؟ المحفوف بالعظمة والجلال من كافة نواحيه ؟ ليس من الممكن أن يحمل ذلك على المصادفة . فلو أمكننا أن نقول إنه نشأ من تلقاء نفسه لصح لنا أن نقول : إن ألواح « بوليكلت » و « زونكريس » حدثت من تلقاء نفسها .

وإذا ما نظرنا إلى أن العناصر التي تحتوى عليها الكائنات كثيرة إلى درجة لا يمكن أن يحصرها العقل ، كان من المحال أن نحمل وجود ذلك كله على المصادفة فلا بد إذن من وجود عقل أعلى . . . وهو الصانع الوحيد ! لأن الطبيعة أتر يتجلى فيه الانحداد الدال على وحدانية الصانع . الذي ينفذ حكمه كنفوذ الفكر في الحال بدون أى خطأ .

وهو حاضر غالب - أى عالم قادر - ومع هذا فن المستحيل إدراكه بالحواس . . . فهو كالشمس التي تمس جميع الأبصار ، لكنها لا تبيح لأحد أن ينظر إليها » هـ . من تاريخ التصوف للأستاذ محمد علي عيني بك .

وقد شرح « لابلاس » دليل الحركة الكونية وأبان قوة هذا الدليل في حسم الشبهات التي يثيرها الجاحدون فقال :



« أما القدرة الفاطرة فقد عينت جسامة الأجرام الموجودة في المجموعة الشمسية وكثافتها ، وثبتت أقطار مداراتها ، ونظمت حركاتها بقوانين بسيطة ، ولكنها حكيمة ، وعينت مدة دوران السيارات حول الشمس ، والتتابع حول السيارات بأدق حساب ، بحيث أن هذا النظام المستمر إلى ما شاء الله لا يعرفه خلل . هذا النظام المستند إلى حساب يقصر عقل البشر عن إدراكه والذي يضمن استمرار واستقرار المجموعة إزاء ما لا يعد ولا يحصى من المخاطر المحتملة لا يمكن أن يحمل على المصادفات في نظر « لابلاس » إلا باحتمال واحد في أربعة تريليونات .

وما أدراك<sup>(١)</sup> ما أربعة تريليونات ؟ إنه عدد من كلمتين ولكن لا يمكن أن يحصيه المحصى إلا إذا لبثت خمسين ألف عام ، يعد الأرقام ليلاً ونهاراً على أن يعد في كل دقيقة ١٥٠ عدداً .

وقال سبنسر :

« إننا مضطرون إلى الاعتراف بأن الحادثات مظاهر قدرة مطلقة متعالية عن الإدراك . وأن الأديان كانت أول من قبل هذه الحقيقة العلوية ولقنها . ولكنها نشرت أول الأمر ممزوجة بالأباطيل » وسبنسر هذا غير متدين .

وكتب « كميل فلامريون » في كتاب « الله في الطبيعة » إذا انتقلنا من ساحة المحسوسات إلى الروحيات . فإن الله يتجلى لنا كروح دائم موجود في حقيقة كل شيء ، ليس هو سلطاناً يحكم من فوق السموات ، بل نظام مستتر مهيم على كافة الموجودات ! ليس مقبياً في جنة مكتظة بالصلحاء والملائكة !! بل إن الفضاء اللانهائي مملوء به . فهو موجود مستقر في كل

(١) النقول المعزوة لأولئك العلماء عن كتاب « الدين والعلم » للشير أحمد عزت باشا مع تعليقات يسيرة له .

نقطة من الفضاء وكل لحظة من الزمان ، أو بتعبير أصح : هو قيوم لانهاى منزه عن الزمان والمكان والتسلسل والتعاقب ، ليس كلامى هذا من جملة عقائد ما وراء الطبيعة المشكوك فى صحتها بل من النتائج القاطعة التى استنبطت من القواعد الثابتة للعلم كنسبية الحركة وقدم القوانين ، إن النظام العام الحاكم فى الطبيعة وآثار الحكمة المشهورة فى كل شىء المنتشرة كنور الفجر وضياء الشفق فى الهيئة العامة ، لاسيما الوحدة التى تتجلى فى قانون التطور الدائم ، تدل على أن القدرة الإلهية المطلقة هى الحواظ المستترة للكون ، هى النظام الحقيقى ، هى المصدر الأصيل لكافة القوانين الطبيعية وأشكالها ومظاهرها .  
والقائل فيلسوف ينكر اليهودية والنصرانية ، ولا يعرف الإسلام . ولكنه يعرف الله الواحد من إيمانه النظر فى العلوم والأكوان . وأمثاله كثيرون . وفكرة هذا العالم عن الألوهية تظهر فيها فلسفة وحدة الوجود . وهى فلسفة نذت عن الصواب ، وإن تعلق بها بعض القدامى من فلاسفة الهنود ، وسرت عدواها إلى التصوف الإسلامى فشردت به عن الحق ، وعن تعاليم الإسلام .

وأفكار أولئك الباحثين ، لو أنها ضبطت بتعاليم الوحي ومشت فى هدى الشريعة ، لاستقامت مع ما ذكر القرآن الكريم عن الله عز وجل من صفات ، وما نسب إلى ذاته العظمى من نعوت الجلال والجمال .. !!

وحسب أولئك - وإن لم يعرفوا الحق كاملا - أن لاح منه بريق فأقروا ولم ينكروا . واثن صدقوا ما عرفوا فهم أهل للايمان الصحيح الكامل لو أتيتهم لهم آياته ويسرت لهم رسالاته ، أى لو أتيتهم لهم معرفة الإسلام الصحيح من خلال الكتاب والسنة .

ومع زحمة الوجود بالدلائل المؤيدة لعقيدة الألوهية ، وانتصاب الشواهد



المتكاثرة في الآفاق ترشد الناس إلى رب العالمين . فإن العالم لم يخل من منكرين يحدون الحق ويكفرون بالله . وقد استقصينا أقوال هؤلاء فلم نر بها إلا الإنكار المجرد والعناد السمج ، يقول « بوخنز » عميد العلماء الماديين في العصر الماضي : ( من الممكن إرجاع ظهور الأجرام السماوية وانتشارها وحركاتها إلى أصول بسيطة من الممكنات . فلا يبقى إذن محل للاعتقاد في قوة خالقة مشخصة ) ، ويقول : ( إن الإنسان محصول المادة وليست له خاصية فكرية على النحو الذي يصوره الروحانيون ) ، ويقول ماضياً في إنكار الروح ومصوراً العقل الإنساني بصورة مادية — : ( إن الكبد والكليتين تفرز مادة مرئية دون أن نعلم نحن بذلك . أما الحركة الدماغية فإن تكون خارج إرادتنا وإدراكنا والدماغ يفرز قوة بدل المادة ( .! ) . . . ) ، ويقول « بروسيه » مؤيداً هذا التفسير المادي للروح والعقل : « إن الذكاء والحساسية عمل من أعمال الأجهزة العصبية كما أن تحويل الماء كولات إلى دم يندفع في العروق عمل الأجهزة الهضمية والتنفسية . . . ! ) وكتبت جريدة طبية مقالة ذكرت فيها أن ( الفكر تركيب يشبه حمض فورميك ! والتفكير تابع للفوسفور ! والفضيلة والصداقة والشجاعة ما هي إلا تيارات كهربية للأعضاء الإنسانية . )

هذه هي الصورة التي يقدمها الملحدون للإنسانية ومعنوياتها ! وهذه هي أدلتهم على إنكار ما وراء المادة ، وعلى رفض الإيمان بالله العلي الكبير . وقد سميناها أدلة تجوزا . وإلا فأى أمانة على الفهم الصحيح في هذا اللغو القبيح ؟ ومتى كان التشكيك والفرض والتوهم أدلة محترمة ؟ إنه من المقطوع به عقلاً أن العدم لا يتحول إلى وجود ولا يخلق وجوداً فإذا قيل : إن العالم مفتقر في إحداثه إلى سبب وأن الأحياء محتاجة في وجودها إلى خالق . قيل : بل يجوز أن يتم ذلك من تلقاء نفسه . . . ! !

وإذا كانت حركة المرور في القاهرة مثلاً تتطلب فرقة من الجنود لتنظيمها وإلا لسرت الفوضى في أرجائها، فهل يستغرب القول بقدره منظمة مشرفة على الألوف المؤلفة من السكواكب السيارة في الفضاء؟ وهل يعتبر القول بأن المصادفات المحضة هي التي تتولى هذا التنظيم... هل يعتبر إلا لغواً ومجونا؟ ثم ما هذه السخافات الزاعمة بأن الفضائل والرزائل اهتزازات كهربائية للأعضاء والأجهزة الجثمانية؟ لأنه لا روح — كما يقولون — !

يجيب « كميل فلامريون » متهمًا فيقول: « ما معنى إفراز القوة؟ ولما لا يفرز الدماغ كيلومترات أو فراسخ؟ ». ويقول المشير أحمد عزت باشا: « من حيث أنه لا روح ولا نفس ناطقة، فمن الذي يشعر بما تفرزه الحركة الدماغية؟ ومن الذي لا يشعر بها؟ وما معنى كلمة نحن التي يستعملها ذلك المتكلم؟ (بوخيز السابق) يبدو أن ذلك الفيلسوف يقرر مرغماً — من قبيل إنطاق الحق له — (بأنا) التي ينكرها<sup>(١)</sup>. ثم إنهم يقولون إن القوة لا تنفصل عن المادة — كما يقررون — فأين مادة القوة التي يفرزها الدماغ؟ ». الحق أن الإلحاد الذي يشيع بين طوائف المتحذلقين والمتنطعين لا يستند ألبتة إلى ذرة من المعرفة أو التفكير السليم.

### لاريب في وجود الله

نيويورك — ر — استفتت مجلة « كوليبرز » المعروفة عدداً كبيراً من علماء الذرة والفلك وعلم الإحياء « والبيولوجيا » والرياضة « فأكدوا أن لديهم أدلة وقرائن كثيرة تثبت وجود كائن أعظم ينظم هذا الوجود، ويرعاه بعنايته ورحمته وعلمه الذي لا حد له ويقول الدكتور « راين » إنه ثبت من

(١) أي أنه يعترف من حيث لا يدري بأن هناك روحاً، لأن هناك من يلاحق الحركة

الدماغية ويبدى بشأنها رأياً... !



أبحاثه في المعامل أن في الجسم البشري روحاً أو جسماً آخر غير منظور .  
وقال عالم آخر : إنه لا يشك في أن الكائن الأعظم — وهو ما تسميه  
الاديان السماوية الله — هو الذي يسيطر على الطاقة الذرية وغيرها من  
الظواهر والقوانين البخارقة في هذا الوجود .

\*\*\*

نشرت المصري هذا التلغراف الذي أذاعه روتر على العالم كله . وقد  
قرأته كغيري ، وشعرت بعاطفة من السرور تعمري ، لأن أولى العلم وأرباب  
البحث لمسوا — ولا أقول عرفوا — آثار الحقيقة العليا ، وبدأ إيمانهم بالله  
يتركز على أساس من التجربة المادية والإحساس النفسى .

أنعرف ماهو الإلحاد؟ أن يسفه المرء نفسه ويركب رأسه ويغمض عينيه  
عن كل ما حوله : ثم يصدر الأحكام جزافاً لا تخضع لمنطق ولا يربطها بغير فكر سليم .  
وعندما جاء القرآن الكريم ليأخذ بأيدي الناس إلى الحق المبين لم يكلفهم  
عسراً . لم يزد أن طلب إليهم فتح أبصارهم على آفاق السماء وفجاج الأرض  
وخواص الأشياء « قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . . . » « أَوَلَمْ يَنْظُرُوا  
فِي مَلَكَوَاتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ . . . » « أَوَلَمْ  
يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا  
بِأَلْحَقٍّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى . . . »

إذا أرسل المرء نظراته الفاحصة يستقصي بها أبناء الوجود ويستكنه  
أسرار الحياة فسيرجع بعد جولة قريبة بهذه الحقيقة المشرقة اللامعة ، الحقيقة  
التي أجملتها الآية الكريمة « اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
وَكَيلٌ . لَهُ مُعَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ هُمْ  
الْخَاسِرُونَ . قُلْ : أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّبِعُونَ أَيْهَا الْجَاهِلُونَ ؟ »

إن للإلحاد شباباً ممسوخاً في بلادنا يعرف قشوراً من العلم ، ويتعلق بأوهام لا وزن لها عند أولى الألباب . تراه يتكلم عن الألوهية والدين والوحى فيلوى لسانه بعبارات مشحونة بالغرور والادعاء ، وليس وراءها إلا ما يذكرك بقول الله : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبَدِّلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ، ثَانِي عِطْفِهِ لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » .

إلى هؤلاء الشباب ممن يظنون العلم طريق الإلحاد . نسوق إليهم نتائج البحوث التي وصل إليها سادتهم عن أصل الحياة .

### لماذا كفروا؟

قال الإمام الغزالي في ( الإحياء ) : « اعلم أن أظهر الموجودات وأجلها هو الله تعالى ، وكان هذا يقتضى أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها إلى الأفهام ، وأسهلها على العقول ، وترى الأمر بالضد من ذلك ! فلا بد من بيان السبب فيه .

« وإنما قلنا : إنه أظهر الموجودات وأجلها لمعنى لا نفهمه إلا بمثال ، وهو أنا إذا رأينا إنساناً يكتب أو يخطط مثلاً كان كونه حياً عندنا من أظهر الموجودات ! فحياته وعلمه وقدرته وإرادته للخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة ، إذ صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه . كل ذلك لا نعرفه ، وصفاته الظاهرة لا نعرف بعضها ، وبعضها نشك فيه كمقدار طولهِ واختلاف لون بشرته ، وغير ذلك من صفاته . أما حياته وقدرته وإرادته وعلمه وكونه حيواناً فإنه جلى عندنا وإن كنا لا نرى بأعيننا حياته وقدرته وإرادته ، فإن هذه الصفات لا تحس بشيء من الحواس الخمس ولا يمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بتخياطته وحركته ، ولو نظرنا



إلى كل مافي العالم سواه لم نعرف به صفته ، فما عليه إلا دليل واحد هو عمله  
بهدية ، وهو مع ذلك موجود جلي واضح .

« ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل  
ما نشاهده وندرکه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدن ونبات وشجر  
وحيوان وسما وأرض وكوكب وبر وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض ، بل  
أول شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا ، وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا ،  
وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا ، وأظهر الأشياء في علمنا أنفسنا ، ثم  
محسوساتنا بالحواس الخمس ، ثم مدركاتنا بالعقل والبصيرة وكل واحد من هذه  
المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد ، وجميع مافي العالم شواهد  
ناطقة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ودالة على علمه وقدرته  
ولطفه وحكمته والموجودات المدركة لا حصر لها ، فإن كانت حياة الكاتب (١)  
ظاهرة عندنا وليس يشهد لها إلا شاهد واحد ، وهو ما أحسنا به من حركة  
يده ، فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصور في الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها  
إلا وهو شاهد عليه ؟ وعلى عظمته وجلاله ؟ إذ كل ذرة فينا تنادي بلسان  
حالتها أنه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها ، وأنها تحتاج إلى موجد  
ومحرك لها ، يشهد بذلك أولا تركيب أعضائنا وائتلاف عظامنا ولحومنا  
وأعصابنا ومنابت شعورنا وتشكل أطرافنا وسائر أجزاءنا الظاهرة والباطنة ،  
فإننا نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها ، كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها ،  
ولكن لما لم يبق في الوجود شيء مدرك ومحسوس ، ومعقول وحاضر وغائب  
إلا وهو شاهد ومعرف له عظم ظهوره سبحانه ، فانهبرت العقول ودهشت عن

(١) في المثال السابق .

إدراكه . ذلك وما تقصر عن فهمه عقولنا له سببان : أحدهما خفاؤه في نفسه  
وغموضه ، وذلك لا يخفى مثاله ، والآخر ما يتناهى وضوحه . . . !!  
« إن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار ؛ لا لخفاء النهار واستتاره ؛  
لكن لشدّة ظهوره ، فإن بصر الخفاش ضعيف ، يبهره نور الشمس إذا  
أشرقت فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببا لامتناع إبطاره فلا يرى  
شيئا إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره ، فكذلك عقولنا ضعيفة  
وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الإشراق والاستنارة ، وفي غاية الاستغراق  
والشمول حتى لم تشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض فصار  
ظهوره سبب خفائه . فسبحان من احتجب بإشراق نوره ، واحتفى عن  
البصائر والأبصار بظهوره .

« ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور ، فإن الأشياء تستبان  
بأضدادها ، وما عم وجوده حتى أنه لا ضد له عسر إدراكه ، فلو اختلفت  
الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب ، ولما اشتركت في  
الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر ، ومثاله نور الشمس المشرق على الأرض  
فإننا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث في الأرض ويزل عند غيبة  
الشمس ، فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لا غروب لها لكنا نظن أنه لاهيئة  
في الأجسام إلا ألوانها ، وهي السواد والبياض وغيرها ، فإننا لا نشاهد  
في الأسود إلا السواد ، وفي الأبيض إلا البياض ، فأما الضوء فلاندرکه وحده  
ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالين ، فعلمنا  
أن الأجسام كانت قد استضاءت بضوء واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب ،  
فعرفنا وجود النور بعدمه وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد ،  
وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام والنور ، هذا مع أن



النور أظهر المحسوسات ، إذ به تدرك سائر المحسوسات ، فما هو ظاهر في نفسه وهو يظهر لغيره ، انظر كيف تُصوّر استبهام أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده ، فالله تعالى هو أظهر الأمور وبه ظهرت الأشياء كلها ، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدت السموات والأرض وبطل الملك والملكوت ولأدرك بذلك التفرقة بين الحالين .

« ولو كان بعض الأشياء موجوداً به وبعضها موجوداً بغيره ؛ لأدركت التفرقة بين الشئيين في الدلالة ، ولكن دلالاته عامة في الأشياء على نسق واحد ووجوده دائم في الأحوال يستحيل خلافه ، فلا جرم أورثت شدة الظهور خفاء ، فهذا هو السبب في قصور الأفهام » انتهى ماجاء في الإحياء .

## هو الأول

وجود الله سبحانه وتعالى ممتد في القدم بحيث لا يتصور قبله وجود قط ، وما دام كل وجود قد نشأ عنه فالله تعالى أسبق منه ونحن لانعرف عن الأول شيئاً ، إذ عهدنا بالوجود قد حدث بعد ميلادنا .

\*\*\*

عن أبي بن كعب رضى الله عنه أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : انسب لنا ربك ، فنزل : « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ » لأنه ليس شيء يولد إلا وسيموت ، وليس شيء يموت إلا سيورث وإن الله تعالى لا يموت ولا يورث .

« وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » . قال : لم يكن له شبيه ولا عديل وليس كمثل شيء . . . .

إن أولئك المشركين نظروا إلى الألوهية بعقولهم القاصرة ، وقاسوا وجودها

المطلق على وجودنا المحدود فتوهوا أن له أولاً ، وليس الأمر كما يتوهمون .  
إن لوجودنا المادى أولاً ، لأننا نحس بذلك وندركه عن يقين ، ونجزم باستحالة  
غيره . أما الوجود الإلهي فقديم لا أول له . وقد تمر بالخاطر هو اجس  
تتساءل عن أسرار هذا الأزل الغامض على عقوانا ، وذلك من استشراف  
العقل إلى اكتناه ما يعجزه ولا يقدر ذلك في صحة الإيمان ، فعن أبي هريرة  
رضي الله عنه : « أن ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوه :  
إننا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ! قال : أوجدتموه ؟ قالوا :  
نعم . قال : ذلك صريح الإيمان » . وفي أخرى : « الحمد لله الذي رد كيده  
— الشيطان — إلى الوسوسة » . وعن ابن مسعود : « قالوا يارسول الله إن  
أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حمة أو يخر من السماء إلى الأرض  
أحب إليه من أن يتكلم به . قال ذلك محض الإيمان » .

إن تاريخ الإنسان والعالم والحياة كلها جد بعد عدم لا يدرى مداه  
وربما استطاع الإنسان إدراك أعراض بسيرة في بيئته المحدودة ، أعراض  
تمس يومها الحاضر أو أمسها القريب أو غدها الموشك ، وقد يُكوّن من هذه  
الأعراض المدركة جملة من المعارف النافعة . . .

ثم تقف بعد ذلك أشعة بصيرته فلا تستطيع حراً ولا إدراكاً . . .  
فإذا كانت تلك حدود قدرته العقلية في عالم الشهادة ، فلا جرم أنه  
يكون في عالم الغيب أعجز ، وعن فهمه أقصر .

وراكب السفينة قد يستطيع التجوال فيها ، فإذا بدا له أن يقذف بنفسه  
في أنهار اليم فقلما يعود ، وعقلنا في قوته المحدودة كبصرنا الذي لا يقرأ إلا على  
أشبار ، فإذا ابتعد الخط عنه مسافة لم يميز منه حرفاً ؛ كذلك لا يستطيع العقل  
أن يدرك إلا في دائرة وجوده الضيقة : « وما أوتيتُم من العِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً » .



ومن ثم فنحن نؤمن بقدوم الذات الإلهية وامتداد هذا القدم في أغوار الأزل  
الذي لا نعرف كنهه .

... ذلك وطبيعة الوجود المحدث تقتضى البداية والنهاية . أما من  
وجوده من ذاته فحقه أسمى من أن يسبقه أو يطرأ عليه عدم .

### ... والآخر

والله سبحانه باق أبداً ، إنه ليس جسماً فيموت ، ولا مادة فتمتحلل وتدوى ،  
إنه الدائم الثابت ؛ الذي يصير إليه كل شيء : « كلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ  
الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » . « وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ  
بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بَدْنُوبِ عِبَادِهِ حَبِيرًا » . وذو الوجود الخالد المتأبى على  
الفناء ، قد يمنح للأخيار من عباده الخلود في جنات النعيم ، فهذا الفضل  
الممنوح لا يعنى أن بشراً أصبح حقيقةً بوصف الباقي والآخر ، فالأمر كما قلنا :  
إن وجود الله عز وجل واجب له من ذاته لا ينفك عنه أبداً . أما ما عداه فهو  
صفر إن لم تدركه نعمة الوجود المفاض عليه من الخالق جلّ علاه .

### حاجة العالم إلى الله

قد يشرف المهندسون والبناءون على تشييد عمارة ضخمة ثم ينفضون  
أيديهم منها ، أو يموتون عنها ، وتبقى العمارة بعدهم أمداً بعيداً ، قائمة الجدران  
مستوية الأركان .

إن هذه العمارة لم تخلق من عدم . والفعالة فيها لم يزيدوا أن ضموا حجراً  
إلى حجر ثم انتهى عملهم إلى هذا الحد .

أما بناء هذا الكون الفسيح ، وتشيد سقفه المحفوظ ، وتمهيد أرضه

وتهيئتها للعمران فهو عمل آخر أساسه الإبداع من العمل المطلق. وكما أن العالم في وجوده احتاج إلى ربه فهو في بقائه يحتاج إليه لحظة بعد لحظة . . .

ولا توجد ذرة في الأرض ولا في السماء تستمد وجودها من ذاتها . حتى يتصور استغناؤها بنفسها . بل على العكس ، هذا الوجود المفاض عليها يتلاشى ويضمحل إذا شاء مفيضة أن يجرمها منه ، مثما يتقلص الظل إذا ذهب ما يليقه .

لن يكون نهار إلا مع وجود الشمس ، ولن يكون عالم إلا مع وجود الله .

« وَ لِلّٰهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ » ، « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ » .

فالقول وما يتردد فيها من أفكار ، والقلوب وما يتجدد فيها من مشاعر ، والأجسام وما يتدفق فيها من دماء ، وما يتحرك فيها من أجهزة وعضلات ، في كل بلد ، بل في كل قارة . منذ بدء الخلق وإلى قيام الساعة ، ما نعرف وما لا نعرف . إنما يقوم بقيام الله عليه ، ولو شاء تركه لأصبحنا صفرا ، ولما وجدنا وقتاً نفكر فيه بأننا فنينا ، لأننا سنكون فنينا فعلا . . . إن الأرض التي تسير عليها بقدميك لا تمسك نفسها تحمك فهي لا تشعر بك ثم هي لا تصنع شيئاً من الحبوب والفواكه التي تغلها . فأنتي لها الخلق والإيقان وهي جامدة هامة لا تحس ولا تعلم ؟ إن الإمداد الإلهي وحده هو الذي قام ويقوم بما ترى قياماً لا تتوهم معه غفلة ولا تفریط ولا فتور . وإلا لهلكنا واختل كل شيء !!

الفارق بين وجودنا ووجود الله أن الله تبارك وتعالى وجوده واجب له من ذاته . أما نحن فليس لنا من ذاتنا شيء قط إن منحنا نعمة الوجود بقينا ما بقيت مُعَارَةً لنا ، وإلا اختفينا فلم يمسكنا شيء .

ومن هنا نعرف أن الله صفات كثيرة توضح معالم كماله . نذكر منها ما يلي :



## ليس كمثلها شيء

مخالفة الذات الإلهية لغيرها من المحدثات ظاهرة . والبداية تقضى بأن مرتبة المخلوق بينها وبين الخالق أمد بعيد . وأن الخالق كذلك لا يشبه شيئاً من خلقه ، لا في ذاته ، ولا في صفاته .

وقد وصف الله عز وجل نفسه بصفات كثيرة من الصعب إدراك حقيقتها على النحو الذى ندرک به أمورنا المعتادة ، بل هذا مستحيل ! من أين للتأفة أن يعرف كنه العظيم ؟ إن الإنسان عاجز عن إدراك حقيقة الوجود المادى الذى يعيش فيه . فكيف يعرف ما وراءه من غيوب .

إذا قيل إن الله يسمع فليس ذاك بأذن كأذاننا ، أو يرى فليس ذلك بعين كأعيننا ، وإذا قيل إنه بنى السماء ، فليس على النحو المألوف من أحوالنا ، أو يده فوق أيدينا فليس الوصف لجارحة كأعضائنا

والذى نوقن به ابتداء . أن صفات المحدثين وأحوالهم لا يجوز أن تنسب إلى الله فهو سبحانه وتعالى غير مخلوقاته . وشأن الألوهية أسمى مما تتصور الأذهان الكليّة والعقول القاصرة . .

وقد وردت فى الوحي الكريم كلمات عن الوجه واليدين والأعين والاستواء على العرش والنزول إلى السماء والقرب من العباد . الخ حاول كثير من المسلمين استكناه دلالاتها واستكشاف حقيقتها فلم يرجعوا إلا بالحيرة حتى قال قائلهم :

نهاية إقدام العقول عقل  
وآخر سمى العالمين ضلال !  
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا  
سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا !  
وكم من جبال قد علا شرفاتها  
رجال فبادوا والجبال جبال !

ولا غرو فإن البحث عبث فيما لا يملك المرء وسائل الخوض فيه .  
إن السكياتى قد يعرف خواص سائل أو غاز يقلبه تحت يده ويجرى عليه  
ما شاء من تجارب ، فكيف يجوز للعباد أن يتدخلوا بالبحث النظرى فى شأن  
الألوهية لينكروا أو ليثبتوا ؟ وشأن الألوهية بالنسبة إليهم عزيز المنال والحق  
يقول - فى كلامه عن ذاته وصفاته - : « هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ  
مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ  
فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ .  
وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ . وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ  
مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا » .

وعلى ذلك فكل ما قطعنا بثبوتة فى كتاب الله وسنة رسوله مما وصف  
الله به نفسه وأسنده إلى ذاته قبلناه على العين والرأس ، لا نتعسف له تأويلا  
ولا نقصد به تجسيدا ولا تشبيها .

\*\*\*

ولئن كنا نسلك هذا المسلك فى تقديس الذات ونسبة الصفات فنحن  
لا نحب أن نتخذ منه ذريعة لتكفير من قصدوا إلى تنزيه الله عن طريق  
التأويل ، وصرف الآثار الواردة إلى المجاز لا إلى الحقيقة .  
فإن الذين أولوا فعلا ذلك خشية أن يؤل أمر الألوهية إلى مثل ما عليه  
اليهود والنصارى من تجسيم زرى وأحوال مضحكة .

إن التوراة تحكى أن صراعا نشب بين الرب وبعقوب لم يفلت منه الرب  
إلا بصعوبة ، وبعد ما قدم ليعقوب لقبه المعروف « إسرائيل » ! !  
وكلام الإنجيل عن الله يَحْيَىٰ إليك أنه رب أسرة من ولد ووالدة ! ! فجنوح



المؤولين عندنا إلى المجاز قد يكون هناك ما يعتذر به عنهم ، بيد أننا لاحظنا أن هذا التنزيه والتأويل والانصراف الدائم عن الحقيقة إلى المجاز قد جنى على أصل الإيمان لدى جمهور العامة ، وجعل فكرتهم غامضة عن إله لاهو في السماء ولا في الأرض ، ليست له يد ، ولا عين ، ولا وجه ، لا يوصف بفرح ولا رحمة ولا ضحك ، ولا ولا ، مما وصف به نفسه . والخطة المثلى أن نتقبل ماورد به الشرع والأ تكلف علم مالم نطالب بعلمه مما يدق عن الأفهام .

وهناك فرق بين أن يحكم العقل باستحالة شيء وبين أن يعلن عجزه عن فهم شيء فالعقل يحكم بأن اجتماع النقيضين مستحيل ، فالضوء مثلا لا يكون موجوداً وغير موجود في وقت واحد . ولكن العقل الذي يحكم باستحالة هذا يعجز عن فهم حقيقة الضوء ، ماهي ؟ وما كنهها وما انتقالها بهذه السرعة الهائلة ؟ وهذا العجز الظاهر لا يمس حقيقة الضوء ، ولا يمس وجودها . فعدم علمك بشيء ليس علماً بعدم ذلك الشيء .

### ما نعلم وما لا نعلم<sup>(١)</sup>

وقف مرة الأستاذ « آينشتاين » العالم الكبير عند درج صغير في أسفل مكتبته وقال : « إن نسبة ما أعلم إلى ما لا أعلم ، كنسبة هذا الدرج إلى مكتبي » ولو أنصف لقال : إنه أقل من هذه النسبة ، فإننا لا نعلم أي شيء هو ؟ إنا نعيش في عالم مملوء بالحقائق والقوى ، ولا نعلم أي شيء ؟ وهذا في الدنيا التي نعيش فيها ، ونلمسها ونزاول شئوننا فيها ، فكيف بالعوالم الأخرى البعيدة عنا ؟ نقول إن العالم مكون من ذرات ، ونقول إن الذرة مكونة من إليكترونات ، أو من نواة وشحنة كهربائية سالبة وموجبة ، ويتغير رأينا في تكوين الذرة بمعدل

(١) للأستاذ أحمد أمين .

مرة في كل أربع سنوات ، وتنبجح فنعمل من الذرة قنابل ذرية ، ونحن لانعلم عن حقيقتها شيئاً ، نقول إن الأجسام تسقط لقانون الجاذبية ، والمصباح يشتعل بالكهرباء ، ونسخر الكهرباء في إيجاد الحرارة والبرودة والحركة ، وإيجاد الأمواج واستقبالها ، ولكن ما الكهرباء ؟ لانعلم عن حقيقتها شيئاً ، وإنما نعلم كيف تستخدم ، بل الحياة نفسها لم نعرف حقيقتها ، وإن كانت تسكن فينا . وكل ما حولنا لانعلم حقيقته وإنما نعرف أعراضه ، وبعبارة أخرى نعرف « كيف » ولا نعرف « ما » و « لماذا » .

ما الحب ، ما الجمال ، ما القبح ، ما الحرية ، ما كل شيء معنوي ؟ كل هذه لانعرف عن حقيقتها شيئاً ، وكل ما يستطيعه العقل أن يعرف صفاتها . ما الدين ، ما الخوف ، ما الأمل ، ما الشجاعة ، ما الفضيلة ، ما الرذيلة ؟ لاشيء غير الصفات .

قد نعلم أن اثنين واثنين أربعة ، ثم نعلم أجزاءها ومضاعفاتها . أما سائر الأشياء فنعرف أعراضها ، ولا نعرفها ، وكأننا منحنا عقلاً ليس من طبيعته أن يعرف شيئاً عن الحقائق ، وكل الذي يعرفه الإنسان لو كان ذكياً أن يوجه سلوكه في الحياة حسب طبائع الأشياء وحقائقها . ولذلك أنصف أصحاب مذهب « البراجماتيزم » إذ أنسكروا قدرة العقل على معرفة الحقيقة ، وقصروه على معرفة الوسائل للغايات .

والذين يشتغلون بالعلوم ويقولون إنهم وضعوا قوانينها كقوانين الجاذبية وقوانين الطبيعة والكيمياء ، لا يزعمونها شرحاً للحقائق ، ولكن شرحاً لأوصافها ، وحتى هي شرح لصفاتها الظاهرة ، لاصفاتها الباطنة . إنك تقول إن فلان يحبني وفلاناً يكرهني ، ولكن ، ما حقيقة الحب والكره ؟ لانعرف قد تكون معرفة الفن أسهل من معرفة العلم . أو بعبارة أخرى أسهل من



معرفة الحقيقة ، لأن الفن عمل ، والعلم فهم ، ونحن على العمل أقدر منا على فهم الحقائق ، ولذلك سهلت الحياة ، لأنها فن ، وصعبت معرفة الحقائق ، لأنها علم . إنك تستطيع أن تعلم أنك إذا صنعت القطار على نمط صحيح لا يصطدم ولا تخرج مجلاته ، وتستطيع بقدر الإمكان أن تتقى الأحداث ، وتستطيع أن تتقرب النجاح في عمل إذا سرت فيه سيراً حسناً ، لأن هذه كلها فن لاعلم ، وحتى أنت في هذه عرضة للخطأ ، فقد يحدث ما ليس في الحسبان ، ويخرج القطار عن القضيب ، ويصطدم بجاموسة مرة عرضاً في الطريق ، وتصطدم سيارتك بما لم تقدر مطلقاً أنها تصطدم به ، فكيف الحقائق المجهولة ! .

إن كان ذلك كذلك ، فكيف نأمل أن نعرف العقل والنفس وحقيقة الشعور وما إلى ذلك ، كل ما نتحدث به عن هذه الأشياء أفاظ جوفاء ، وتشدق سخيف لاحقيقة وراءه ، ولو أنصف مؤلفو المعاجم ، ومحاولو التعريفات لكفوا عن ذلك ، لأنهم لا يصلون إلى حقيقته ، وإنما يدورون حول أنفسهم ولو دقت النظر في تعريفاتهم ، لوجدتها تعريفاً بالمثل ؛ لا تعريفاً بالحقيقة ، وأكثر الناس يعيشون بعمقديتهم لا بعلمهم ، وبخرافاتهم وأوهامهم لا بعقلهم ، فكيف وعقلهم لا يدرك حقيقة ما حوله ؟ إن كان هذا حقاً ، فكيف يحاول العقل الإنساني البحث عن الله ؟ إنه يكون كقوم لم يعرفوا أرضهم ، فبحثوا عن المريخ ، أو لم يعرفوا ما أمامهم ، فحاولوا أن يعرفوا ما فوقهم .

ويعجبني ما ينسب إلى الإمام عليّ كرم الله وجهه في الله تعالى : « إنه لا تدركه الشواهد ، ولا تحويه المشاهد ، ولا تراه النواظر ، ولا تحجبه السواتر ، لا يذِي عِظَمَ تناهت به الغايات ، فعظمته تجسيدا ، ولا يذِي كِبَرٍ امتدَّت به النهايات فكبرته تجسيدا » .

كما يعجبني قول ابن أبي الحديد :

والله لا موسى ولا عيسى المسيح ولا محمد  
علموا ولا جبريل وهو إلى محل القدس يصعد  
كلا ، ولا النفس البسيطة لا ، ولا العقل المجرد  
من كنهه ذاتك غير أنك واحدى الذات سرمد  
فلتنخسأ الحكماء عن حرم له الأفلاك سُجَّد  
من أنت يارسطو ومن أفلاطُ قبلك يا مُبَلِّد  
ومن ابن سينا حين مرَّ د ما بنيت له وشيد  
هل أتم إلا الفرا ش رأى الشهاب وقد توقد  
فدنا فأحرق نفسه ولو اهتدى رشداً لأبعد

\*\*\*

وقوله أيضاً :

فيك يا أعجوبة الكون غدا الفكر قليلا  
أنت حيرت ذوى اللبب وبلبلت العقولا  
كلما أقدم فكرى فيك شبراً فرّ ميلا  
ناكصاً يخبط في عمياء لا يهدى السبيلا

\*\*\*

وما نقلناه آنفاً عن الأستاذ « أحمد أمين » تحديد حق للنطاق الذى  
يعمل فيه عقل الإنسان وينتج ، وقد زينت الحرية العقلية التى أتاحها  
الإسلام للباحثين تجاوز هذا النطاق ، فعدّوا قدرهم ، وخاضوا فى بحوث  
لا طائل تحتها . . . وبلغ بهم التيه فى ميدان النظر أن تكلموا فى ذات الله ،  
هل صفاتها عينها ؟ أو غيرها ؟ أو لا عين ولا غير ؟ . . .



ومضى بهم الجدل المحض إلى غير قرار !  
وأى قرار في أمر لا يمكن أن تصل إليه الأفكار ؟  
إن هذا البحث لو كان في ذات الإنسان لكان عسيراً ، فكيف  
يُسمح به في ذات الله — جل وعلا — ؟  
إن علماء المسلمين الذين كتبوا في العقائد لم يقصدوا إلا الخير .  
ولست أظن أن واحداً من الأولين والآخرين عمد إلى تشويه الدين أو مسخ  
آثاره في الأفئدة ، وقد تأدّى الجدل ببعضهم إلى التقاذف بتهم مريبة .  
وقد نبت في هذا العصر قوم يريدون إقحام العامة فيما لا يطيقون من بحوث ،  
فبلبوا الأفكار في وقت يحتاج فيه إلى تجميع الشمل وتركيز القوة ضد  
الخصارة المادية التي تريد أن تطوى أعلام التوحيد وتستأصل شأفة الإسلام !!  
ومادام هناك من يعتقد مبدأ التأويل ويستمسك به فليس من السانغ  
أن ترميه بالإفك ونسلخه من الملة — كما يفعل الجهال — وحسبنا أن نذكر  
الحق المجرد ، وأن نعرف الناس جميعاً أن الله عز وجل ليس كمثل شيء .  
ثم لنظهر أنفسنا من استغلال الخلاف في الحظوظ والأهواء .

### الغنى المطلق

الله سبحانه وتعالى واسع الغنى ، وليست سعة غناه راجعة إلى أنه يملك  
هذا العالم بسماواته وأرضه وما حوى من معادن نفيسة وعناصر غالية ، ولا لأنه  
يملك عدداً لا يحصى من الجن والإنس والملائكة . لا . لا . فالغنى الإلهي  
أقعد من ذلك وأمجد .. !

إننا قد نعتبر الرجل غنياً لأنه يملك القناطر المقتطرة من الذهب والفضة  
أو لأنه يحكم الألوف المؤلفة من الناس . فإذا فقد ذلك لم يصبح على شيء  
من الغنى ، إذ انهارت الدعائم التي يقوم عليها .

وقد يكون المملوكوت الرحيب الذي نعرف أقله ونجهل أكثره مظهرًا  
للغنى الإلهي العظيم . لكن الله عز وجل يستطيع أن يفنى ذلك أجمع ،  
ولا ينقص غناه المطلق شيئاً ألبتة . !!  
ويبقى قائماً بنفسه ، مستغنياً عن خلقه ، مستكلاً نعموت قداسته ، مستعلنًا  
في أنوار جلالته .

إن العرش فما دونه صفر إلى جانب الذات العليا ، وتسبيح العباد من بدء  
الخلق إلى قيام الساعة ، أولغو الفجار في هذا الأمد الطويل ، لا يضمن ولا ينتقص  
من عظمة الحق شيئاً .

وقد جاء في الحديث القدسي : « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم  
وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي  
لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم  
ما نقص ذلك من ملكي شيئاً » .

المخلوقات جليلها ودقيقها يقوم بالله عز وجل ، أما الله فقائم بنفسه مستغن  
بذاته عما سواه .



(٢)

الوحدة المطلقة

## إنما الله إله واحد

ليس لهذا العالم إلا إله واحد ، يخضع له بالقهر والجبوت كل ما سواه  
« إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ  
وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكَلَّمَهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا » .

وإذا استقرأنا ما توهمه الناس شريكاً لله في ألوهيته لم نجد أحداً من  
هؤلاء الشركاء المزعومين ترشحه حالته ليكون في هذا الوجود شيئاً طائلاً .

لقد عبد القدماء أحجاراً اقتطعوها من سطح الأرض فهل يصح في خلد  
عاقل أن حجراً من الأرض — بل الأرض كلها — تصلح لتكون إلهاً؟؟

وعبدوا صنفاً من الحيوان وقدسوا نسله — كما يفعل الهندوك إلى اليوم  
فهل هناك عجل مهما زاد لحمه وشحمه يصلح لمنصب الألوهية ! فما الذي يوضع  
بعده في أطباق الآكلين ؟

إن الوثنيين سفهوا أنفسهم عندما هووا بها إلى هذا الدرك ! وقد أدعى  
بعض الناس الألوهية لنفسه كفرعون حاكم مصر ، وكهذا « الذي حاجَّ  
إبراهيمَ في ربه أن آتاه اللهُ الملكَ إذ قال إبراهيمُ ربِّي الذي يحيي ويميتُ  
قال : أنا حيي وأميت » فظن هذا المغفل أن السلطة المطلقة التي يستمتع بها  
والتي تجعله يقتل من الرعية ما يشاء ، ويبقى ما يشاء ، ظن ذلك مسوغ  
الطموح لمنصب الألوهية .

وهذا الظن يبقى في رأس صاحبه حتى يقطعه جمهور الثوار ويرمون به  
في الأقدار .

وبعض الدهماء من اليهود والنصارى ضلوا في فهم أنبيائهم ورفعوا إلى  
مصاف الآلهة ، مع أن هؤلاء المرسلين ليسوا إلا عبيداً موهوبين ، وقد كذبوا  
بهذا على أنفسهم وعلى الواقع . فمن الحماقة أن نظن في بشر مهما علا شأنه أنه  
خلق كوكباً من الكواكب . . ولماذا نذهب بعيداً ؟ إن أحدهم لم يخلق



ذباباً أو ما دونها ، فكيف يعد إلهاً من يعجز عن أى خلق ؟ بل إن جرثومة من آلاف الجراثيم التي تسكن في بطن ذبابة ، لو سلبت أحدهم صحته ما قدر على ردها !! فن أين بعد هذا ينسب إلى الألوهية ؟ .

### عيسى بن مريم

لم تصادف خرافة من الرواج في العالم مثل الخرافة التي تعد عيسى إلهاً لهذا العالم — أو شريكاً فيه مع الله — !! . وهذه الخرافة تتسع وتضيق حسب اختلاف الأهواء والآراء . فتارة تعتبر هذا العالم خاضعاً لإشراف شركة مساهمة من الله ثم من عيسى وأمه والروح القدس ، وتارة تضيق فتعتبر هؤلاء الشركاء شعباً شتى لحقيقة واحدة أو مظاهر متعددة لإله واحد ، على نحو يعجز العقل عن تصويره . . . . وذلك كله شرود عن الصواب وضلال كبير : « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ . . . » « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ . . . »

وعيسى بشرياً كل ويشرب ويقذف من جسمه بالفضلات الحيوانية ، فكيف تنفي عنه صفته الإنسانية أو يزعم له ما هو فوقها ؟ « مَا الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ، كَانَا يَا كَلَانَ الطَّعَامَ » ثم هو عبد يعنو وجهه لربه الأعلى ويذل في ساحته ، ويسمع في صمت وإقرار هذا التقرير الخطير « قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا . . . » ؟ ؟

وعيسى نفسه يعرف أنه وأمّه عبدان فقيران لله . ويوم الحساب يقران بذلك ويستنكران غلو الغالين فيهما « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ قَالَ : سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ »

« مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ : أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ » . . . !!  
والواقع الذي يعلو به صوت البديهة أنه من المستحيل جعل عيسى إلهاً  
يخلق ويرزق ، ويحيى ويميت ، ويدبر شئون البلاد والعباد ، وأمر السماء  
والأرض . . إلخ . لأنه في حياته عبد ضعيف وبعد مماته رفات موارى في حفرة  
من التراب ومؤهو عيسى يشعرون بذلك جيداً . ومن ثم فهم يلتمسون له القوة  
— التي تجعل منه إلهاً — من طبيعة أخرى غير طبيعته العاجزة كالإنسان  
وذلك بالتحايل على إيجاد نسبة بينه وبين الله — سبحانه وتعالى — هي نسبة  
البنوة — كأنه وليُّ عهد !! . وزين لهم هذا التخبط أن عيسى ولد من أم فقط  
والحق أن النسبة بين الله وبين خلقه كافة هي نسبة الموجد للمتفضل  
بالإيجاد ، المختار فيه أتم اختيار ، على عالم لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً  
ولا حياة ولا نشورا . وإن كل صامت وناطق في هذا العالم يدين لله بكيثونته  
وهو طوعاً أو كرهاً ، يسبح بحمده ويذل لربو بيته !! والله سبحانه وتعالى قد  
يجعل بعض مخلوقاته أرضاً وبعضها سماء ، بعضها تراباً وبعضها ذهباً ، بعضها  
نباتاً وبعضها حيواناً ، بعضها إنسا وبعضها جنناً . . فما أعلى شأنه من خلقه  
فهو محض فضله ، وما حد له وضعه فهو محض حكمه . وقد يمنح بعض البشر  
والملائكة مواهب تميزهم عن أقرانهم ثم يختارون رسلا لعباده . وأيا ما يفعل  
ربك بخلقك ، فإن ذلك لا يمس أصل النسبة المقررة بين العالم وموجده العظيم .  
أإذا جعل المهندس بعض أحجار البيت دعائم محتفية في الطين وبعضها الآخر  
شرفات تعلو في الفضاء ، ظنت الأحجار العالية أنها قد تحولت مهندساً أو شبه  
مهندس ؟ أى سخف هذا الذي يجعل بعض الخلق شركاء في الألوهية ، لأنه  
منح فضل احترام ؟ وكيف يتصور في بديع السموات والأرض أن يكون والداً  
لتلك الأجساد التي ذراها ؟ وما عيسى في جانب الملكوت الضخم ؟ « وقالوا



اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ! سُبْحَانَهُ ! بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ  
وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ » وشأن الألوهية أعز مما يهرف به الجهله من ولادة وبنوة  
واتصال وإنسال (١) « لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ  
مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ » .

ولو كانت ولادة عيسى من أم فقط ترشحه الألوهية — بصفة البنوة —  
سكان آدم أولى منه بها ، بل لسكان الملائكة المقربون أولى بذلك ، فهم من  
الملا الأعلى ، وليسوا من الحما المسنون .

### مغالطة

وقرأت في مذكرات الدكتور « شبلي شميل » كلمة لمواطن مسيحي  
استعار لنفسه اسماً مسلماً ، واجتهد أن يوفق بين الإسلام والنصرانية في حقيقة  
« عيسى بن مريم » ! ! وقد بنى هذا الكاتب فكرته على أن كلتا الديانتين  
تتضمن حقائق مبهمة . فإذا كان الغموض يكتنف أوصاف المسيح وعلاقته  
برب العالمين في النصرانية ، فكذلك في الإسلام من عيوب غامضة ! فهذه  
بتلك . . . ولا داعي لاعتبار التثليث معضلة تنافي التوحيد الواجب لله . . .  
قال الكاتب : « جهل أكثر كتاب المسلمين عقيدة النصارى في الإله  
الواحد الذي ليس بمادة كما جهل أكثر كتاب النصارى عقيدة المسلمين ،  
ولكن لظهور الصعوبة في فلسفة العقيدة النصرانية يقول النصارى إن في  
الدين شيئاً هو فوق العقل ، ويعدون ذلك من مفاخرهم في تدينهم ، فيظن المسلم  
أنهم يريدون بقولهم فوق العقل أنه غير معقول وليس هذا هو المراد بل المراد  
أن العقل لا يكاد يدركه وكان مثل هذا القول شائعاً ومعروفاً عند المسلمين  
أيضاً ولكن بعض كتابهم في هذه الأيام الجديدة قاموا ينادون بأن الدين  
الإسلامي وحده دين العقل ويفسرونه بأن العقل يدرك كل شيء فيه ولسنا

ندرى كيف يدرك العقل أمور العالم الغيبي مثل أنهار اللبن والعسل التي في الجنة ومثل عالم الأرواح المجردة وعالم الملائكة ، ولا نعرف كيف يستطيع أولئك العقلاء تفسير النار التي رآها موسى فلما أتاها نودى يا موسى أنى أنا الله فأخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى . أى عقل يدرك حقيقة هذا النداء الذى سمعه موسى فخرَّ صعقاً ، وأى عقل يدرك حقيقة نفخ الله في فرج مريم كما جاء في القرآن المجيد بنص هذه الآية : « ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من رُوحنا » .

النصرانى يقول الإله واحد كما يقول المسلم ثم يقول النصرانى إن عيسى كلمة الله وروح الله وهكذا يقول المسلم أيضاً والنصرانى يقول إن مريم عذراء حملت بعبسى الذى هو روح الله وكلمة الله من غير أن يمسهما بشر وهكذا يقول المسلم أيضاً ، فأنا أسأل إخوانى المسلمين أن يبينوا لى الفرق أولاً بين هذه التعابير وأن يفهموها جيداً قبل أن يجادلوا النصرارى على التعبير بالأب والابن والروح القدس ، وقبل أن يسألوا عن هذه الفلسفة التى تبين أن هذه الكلمات الثلاث تدل على حقيقة واحدة ظهرت في ثلاثة مظاهر . وما نار موسى عن القارىء ببعيد .

هذا الكلام ينطوى على مغالطة بينة ، ولقد أوضحنا في الفصل السابق أن هناك فرقاً بين ما يصعب على العقل إدراكه وبين ما يجزم العقل باستحالته . ففي عالم الغيب والشهادة حقائق شتى نوقن بوجودها ونجهل كنهها ، وجعلنا بكنهنها لا يحدش وجودها الثابت ، وفي عالم الغيب والشهادة كذلك أمور نحكم بامتناعها ، ولا يمكن تلييس الممكنات الغامضة بالمستحيلات المدومة . والقول بأن الثلاثة واحد ، كالتقول باجتماع النقيضين ليس مسألة غامضة ، بل مسألة مستحيلة بالبدهة .



## عرض واقعي وجدل نظري

باستقراء التاريخ وأحداثه لا نجد دعوى يؤبه لها من أحد يزعم أنه إله مع الله . والذين فهم ذلك عنهم إما متهمون أبرياء كبعض الرسل والملائكة ، وإما مخلوقات لائحس ولا تعقل كالأحجار والأبقار ، وإما حكام سفلة كفراعة مصر وأشباههم . . .

وقد قام العلماء ببحوث جدلية ليثبتوا أنه ليس هناك مع الله إله آخر ، وإن كان الواقع العملي ينطق بذلك — فنحن في عالمنا المادى لم نجد هذا الآخر المزعوم ، وفيما وراء المادة لم يحاول هذا الآخر أن يتصل بنا . والمرسلون قاطبة أكدوا — واحداً بعد الآخر — أنهم جاءوا من عند الله رب العالمين : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ » . فما الذى أخرس هذا الإله الآخر عن ذلك التحدى ليشكو ما وقع به من ظلم ! . الحق أن الملك كله لله ، وأن الآلهة الأخرى الموهومة ليست، إلاخيالات عقول مريضة وأسماء لامدلول لها أبدا : « أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ » .

وأما الفروض التي ذكرها العلماء لنفي التعدد في الألوهية فهي تقرير لجملة من الحقائق التي لا مرأى في ضرورة توفرها لمن يجب اعتباره إلهاً .

إن كان هذا الإله موجوداً مع الله فما هو موقفه منه ؟ بل — أولاً — ما هي منزلته منه ، إن كان دونه منزلة ومكانة فليس بالله ، وإن كان أعلى منه فهو أحق منه بالألوهية ، وإن كان مثله فما هي الحدود والتواصل بين عمليهما واختصاصيهما ، وكيف ينفذ أمرهما معاً في الإحياء والإماتة ، والإشقاء

والإسعاد، وغير ذلك : « مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ » . « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ » .

على أن نظام العالم لم يطرأ عليه فساد في سمائه أو أرضه ، وسنن الكون الماضية قاطعة بصدورها عن إله أحد فرد صمد : « وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ » .

### إخلاص التوحيد

بعد الاستقراء التاريخي والاستعراض العقلي لمن نُحِلُّوا وصف الألوهية زوراً ، نجزم بأنه لا إله إلا الله ، ونوقن بأنه لا شيء في العالم يرقى عن مستوى العبودية الدليلة لهذا الإله الواحد القهار ! .

غير أن البشر وإن أحسوا بصوت الفطرة يصرخ في أعماق نفوسهم معلناً هذه الحقيقة الواحدة بأبون إلا أن يُلبسوا الحق بالباطل ، وأن يشوبوا هذا التوحيد الواضح بما يفسد صفاءه ، بل بما يجتث جذوره ! .

فهم يعترفون — برغم أنوفهم — أن الله هو الخالق الرازق . والمسيحيون المشركون بعبسى لا أظنهم يزعمون أن عيسى بنى أفقاً من السماء ، أو أرسى ركناً من الأرض ، أو رزق أمة من الناس ، أو أنبت حقلاً من الحبوب أو حديقة من الفاكهة . . . . . كلا كلا فالله وحده رب هذا كله .

ومع هذا الاعتراف فهم لا يوحدون الله في العبادة ولا يتوجهون إليه بالطاعة ، ولا يتزلفون إليه بهذه الشهادة التي تنبعث من فطرتهم ، بل يذهبون إلى غيره بكل هذا . . . !



ومن هذا الغير ؟ ولم تنصرف إليه وجوه الخلق ؟ .

لقد احتال المشركون لتبرير شرودهم ، بأنهم لم يذهبوا بعيداً ، وبأن أولئك الذين اتجهوا إليهم من دون الله ، إنما هم « مفاتيح » للإله الأكبر لجأوا إليها لتوصلهم إليه . . . وقالوا ما نستطيع أن ننسب إلى حجر أو بشر خلقاً أو رزقاً ، ولا أن نحمد تفرد الله بهذا العمل ، ولكننا اتخذنا بناته وبنيه وسطاء خير له . . . !

« والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » .

\*\*\*

وهذا الصنيع الطائش لغو ومجون . فليس لله بنات ولا بنون ، وليس بين الله وبين عباده كلهم وسطاء ولا شفعاء ولا سمسرة . ولكل بشر في الأولين والآخرين أن يتقدم بسؤاله إليه مباشرة . وإذا أذنب فله الحق كله أن يتصل بربه معتذراً مستغفراً لا يحمل توبته أحد من الناس ، والذي شرع لعباده الدين من بدء الخليقة وضح لهم على لسان رسله هذه الحقيقة : ولو أن لله ولداً أو شريكاً — سبحانه وتعالى عن هذا الإفك — لما ضارتنا عبادته « قل إن كان للرحمن ولدٌ فأنا أولُ العابدين » .

لكن هذا محض الكذب والدجل ، فكيف تتورط فيه ؟ .  
والمؤسف أن البشر لما اختلقوا على الله هذه القرية . . . فرية الشركاء والوسطاء ، ظل الضلال ينحدر بهم من ظلمة إلى ظلمة حتى نسوا الله نفسه — الذى اتخذوا الشفعاء سمسرة له — وذكروا مادونه من أصنام أو من أنبياء أو من أولياء « وإذا ذكر الله وحده اشمازت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة . وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » .

ومن هنا ظفر هؤلاء الشركاء بنصيب الأسد في كل شيء ، في العبادة والإخلاص والسؤال والنذر والحب والحماسة . . . ولم يبق لله من ذلك شيء يذكر « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله ، بزعمهم وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء ما يحكمون » .

وفي الحديث القدسي: « إنني والإنس والجن في نبأ عجيب ، أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر غيري » .

ولقد سرت هذه اللوثة في العقائد حتى كادت تفسد على الناس حياتهم ومصيرهم . وحسب الدنيا ضلالاً أن تعنى عن إشراق التوحيد في أنحاء الوجود . وإنك لتأسى إذ ترى للوثنية المخرفة أجيالاً تزحم مناكب الأرض ، وللمسيحية المشركة أقطاراً تسودها الأوهام « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » .

وشيوع هذا الشرك في العالم هو الخطوة المؤدية حتماً إلى جحود مبدأ الألوهية وعدم الإيمان بالله العظيم .

### مقارنات بين الشركاء والعيبد

أراد الله عز وجل أن يعرف سفهاء المشركين بأقدار الآلهة التي عبدوها من دون الله . فردد هذه المعبودات المظلومة بين صنفين ، أما أن تكون من جمادات فالعيبد أوسع قدرة من هذه الآلهة . لأن لهم جوارح يستخدمونها فيما يشاءون . . أما هذه الأصنام المعبودة فاذا لها ؟ « ألم أرجل يمشون بها ؟ أم لهم أيدي يبطشون بها ؟ أم لهم أعين يُبصرون بها ؟ أم لهم آذان يسمعون بها ؟ . . » ليس لها من ذلك شيء .



وإما أن تكون هذه الآلهة المزعومة تملك ما ذكر من أدوات ومشاعر ،  
فماذا يمنحها ذلك من فضل ؟ سيكون الآلهة والعبيد سواء في القوى الذاتية  
والمنزلة السكونية . فأى الوهية تلك ؟ « إن الذين تدعون من دون الله  
عباداً أمثالكم ، فادعوهم فلنستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » .  
وليست طبيعة الإنسان أن يقف حاسراً قاصراً أمام الوهية هي دونه  
أوهو فوقها فإذا دعاها كانت بين أمرين . إما ألا تسمع وإما ألا تجيب .  
« إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة  
يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير » .  
ولذلك فإن من النقائص أن تتعلق النفس البشرية بهذه الأوهام والأباطيل .

\*\*\*

لقد كثرت في القرآن الكريم ضرب الأمثال وسوق الأدلة واستنارة  
الانتباه واستنهاض الكرامة الآدمية حتى تقوم من هذه الوهدة التي تدل فيها  
لمن هو دونها أولمن هو مثلها ، وأفاض القرآن في استقصائه للمعاني التي تصون  
الوجه من دنس الشرك ، وفي مخاطبة العاطفة الإنسانية بأسلوب رائع في رفته  
واضح في غايته .

« أرباب متفرقون خيرٌ؟ أم الله الواحد القهار؟ » .

« ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ، ورجلاً سالماً لرجل ،

هل يستويان مثلاً؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ؟ » .

والحق أن التوحيد روح الإسلام وجوهر عقيدته ومحور عباداته المنوعة ،  
ومبدأ التوحيد يسرى في تعاليمه كافة سريان الماء في النبات أو الأعصاب  
في البدن ، وقد وضع القرآن الكريم حقيقته و بسط فكرته وناقش ما قد  
يعرض له أو يعارضه ، حتى ليعتبر التوحيد الإسلامي أصرح وأكمل ما أسسه

دين في قلوب بنيه ، ودمغ البشر جميعاً بطابع العبودية لله وحده ، وانتزاع كل  
شارة لأي عبد يحاول الصعود فوق مستوى هذه العبودية ؛ وبحو كل شعور  
يتجه بالمرء إلى تقديس كائن ما — هنا أو هناك — كل ذلك من عناوين  
الإسلام الأولى وليس من إرشاداته الثانوية أبداً .

« إنه من يُشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، وماواه النارُ ،  
وما للظالمين من أنصار » والله وحده هو الضار النافع ، الخافض الرافع ؛ الذي  
يخذل أو ينصر ، ويعطي أو يمنع ، وليس لأحد بعده تعقيب على حكمه ؛  
وليس من شأن ملك في السماء أو نبي في الأرض التدخل في مشيئة الله ،  
فهى التي تحكم أبداً ، وإليها يُحتكم أولاً وآخراً ، وأولياء الله أو أعداؤه  
لا يفرضون رغباتهم على الإرادة العليا .

\*\*\*

ولذلك فإن من إخلاص التوحيد أن نكل ما فوق قدرتنا وإرادتنا  
إلى الله وحده ، وأن نربط خوفنا ورجاءنا به .  
« أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ » ؟ .

« قل أرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضرٍ هل هنَّ كاشفاتُ  
ضره ؟ أو أرادني برحمةٍ هل هنَّ ممسكاتُ رحمته ؟ قل حسبى الله عليه  
يتوكل المتوكلون » .

\*\*\*

للمؤمن قبلة واحدة يوليها وجهه ، ويهبها فؤاده ، وبينها نجواه وشكواه ،  
ويعرف على أشعتها طريقه في ظلمات الحياة . .

للمؤمن صلة عليا بالله ، يحدد على أساسها علاقاته بالناس ، وله عواطف  
تجيش بالأمن والقلق ، والسخط والرضا ، والحب والبغض ، والوحشة والأنس



ومهما اضطرت في نفسه هذه المشاعر المعتادة ، فإن ضوابط اليقين تحكها ، وعرفانه بربه هو الذي ينقضها أو يبرمها ، وقد كان إمام الأنبياء يفرس هذه المعاني في قلوب المؤمنين حين كان يدعو في تهجده : « اللهم لك أسلمت وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت » .

هذه الضراعة الحارة النابضة هي آية التوحيد الكامل ، إذا مشت عصارتها في القلوب هزتها بالحياة والنماء ، وإذا فرغت الأنفس منها ذوت ، والتوت ، وخبطت في عماء ما بعده عماء . . .

ونحن في الدنيا نمر بتجارب شتى تكشف عن معادتنا وخصائصنا كما تكشف التجارب في معامل الكيمياء عن مييزات الغازات والسوائل المختلفة . .

وما يعرف الإيمان والكفر ، وما يتكشف الإخلاص والنفاق ، وما يتميز الخبيث والطيب إلا في هدى هذه التجارب التي تكفل القدر بإجرائها : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإينا ترجعون » .

\*\*\*

وإذا رأيت المرء يحب غير الله أكثر مما يحب الله ، ويخاف العبد أكثر مما يخاف الرب ، ويتعلق قلبه بالناس أكثر مما يتعلق برب الناس ، ويصدر عمله ابتغاء رضاهم أكثر مما يطلب ثواب الآخرة فإذا نزلت به نسيئة كان تفكيره في فلان قبل تفكيره في الله ! وإذا أصابه خير كان حمده لفلان أسبق من شكره لله . . !

فاعلم أن هذا الشخص قد أشرك . . ولئن كان بعض العلماء يقول

إن الشرك في العمل غير الشرك في الاعتقاد . وأن هذا شرك أصغر وذلك شرك أكبر فالحقيقة أن المسألة أصعب مما يتصورون ومما يصورون للعامة .  
فالشرك عين حمئة قدرة إذا انفجرت في قلب وبدأت تسيل قطرات راشحة يوشك أن تتحول سيلا كاسحا ، ويومئذ لا يبقى في القلب إيمان حق ويتحول مايسمونه شركا أصغر إلى عين الشرك الذي يعده الإسلام أقبح الكبائر :

إن الأمور صغيرها مما يهيج له العظيم والإسلام يوم حارب اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى لم يجارها لذواتها . ولم تكن بينه وبينها عداوة شخصية إنما حاربها لأنها احتلت من قلوب المتقين بها مكانة السيد المتصرف من عبده الأذلين فكل ما يصرف القلوب مثلها عن الله فهو صنم . وكل من تكون في قلبه منزلة لشيء ما غير الله ، مثل منزلة هذه الأصنام في قلوب المشركين القدامى فهو — ولا كرامة — مثلهم ، يحسب منهم ويحشر معهم ولا عجب . فالخمر لم تحرم لعينها وإنما حرم المسكر من كل شراب .

والإيمان بالله لا تتفاوت حقيقته وإن اختلفت نواقضه على توالي الأيام .

### توحيد العامة وما يعلوه من غبار

ينبغي لهذه الأمة أن تكون مثلاً عالياً في إسلام الوجه لله وإفراده بالنية والعمل .

بيد أننا نلاحظ آسفين أن هناك مسالك شائعة بين الجماهير الغفيرة من المسلمين لها دالاتها الخطرة على فساد التفكير وضلال الاتجاه واضطراب المقصد ، ولا نحب أن نوارب في الكشف عن هذه العلة فإن أي خلل في دعائم التوحيد معناه الخبل الذي يدرك موطن القيادة الفكرية في هذا الدين الحنيف .



إذ التوحيد في الإسلام حقيقة وعنوان وساحة وأركان وباعث وهدف ومبدأ ونهاية .. ولسنا كذلك ممن يجب تصيد التهم للناس ، ورميهم بالشرك جزافا ، واستباحة حقوقهم ظلما وعدوانا . ولكننا أمام تصرفات توجب علينا النظر الطويل والنصح الخالص والمصارحة بتعاليم الكتاب والسنة كلما وجد عنها أدنى انحراف .

لقد اهتمت حكومة إنجلترا في سبيل مكافحة الشيوعية بالحالة الدينية في مصر ! .

فكان مما طمأنها على إيمان المصريين (!) أن ثلاثة ملايين مسلم زاروا ضريح أحمد البدوي بطنطا هذا العام .

والذين زاروا الضريح ليسوا مجهولين لدى فطلما أوفدت رسمياً لوعظهم فكنت أشهد من أعمالهم ما يستدعي الجلد بالسياط لا ما يستدعي الزجر بالكلام وكثرتهم الساحقة لا تعرف عن فضائل الإسلام وأنظمتهم وآدابه شيئا .

ولو دعوا لواجب ديني صحيح لفروا نافرين . وإن كانوا أسرع إلى الخرافة من الفراش إلى النار ! وحسبك من معرفة حالهم أنهم جاءوا الضريح المذكور للوفاء بالنذور والابتهاج بالدعاء ! ولئن النذر ؟ ولئن الدعاء ؟ إنه أول الأمر للسيد . فإذا جادت القوم قالوا : إنه لله عن طريق السيد البدوي . وأكثرت أولئك المغفلين لفظا يقول لك : نحن نعرف الله جيدا ونعرف أن أولياءه عبيده وإنما نتقرب بهم إليه ، فهم أظهر منا نفسا وأعلى درجة . وهذا الكلام — على فرض مطابقتة لواقع القوم — غلط في الإسلام . فإن الله سبحانه وتعالى لم يطلب منا أن نحج ، معنا بالآخرين ليحملوا عنا حسناتنا أو ليستغفروا لنا زلاتنا « أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مِثْلَ مَا أَدْخَلَ اللَّهُ فِيهِ » . بل المعروف من بديهيات الإسلام الأولى أن الطلب ووسيلته جميعا يجب أن يكونا

من الله « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » ، ( إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ) .

أليس من المضحك أن نستنجد بقوم يطلبون لأنفسهم النجدة ، وأن نتوسل بمن يطلب كل وسيلة ليستفيد خيراً أو يستدفع شراً .  
« أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ » .

\*\*\*

إن المسلمين لما طال عليهم الأمد نسوا الحق ، والمرء قد يعذر إذا ذهل عن شأن تافه أو فاته استصحاب شيء هين . . أما أن يذهل عن كيانه وإيمانه فهنا الطامة ، وأحسب أن القرآن الكريم كان يقصد إلى التنديد بهذا اللون من إفساد التوحيد عند ما قال : « وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ : أَأَنْتُمْ أَضَلَّاتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ ؟ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ؟ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا . . »

أجل لقد نسوا الذكر ، وما قام عليه الذكر من توحيد شامل ، وليس يعنى في الدفاع عن أولئك الجهلة من العوام أنهم يعرفون الله ، ويعرفون أنه وحده مجيب كل سؤال ، وباعث كل فضل ! وأن من دونه لا يملكون من ذلك شيئاً . فإن هذه المعرفة لا تصح ولا تقبل إلا إذا صحبها أفراد الله بالدعاء والتوجه والإخلاص فإن المشركين القدماء كانوا يعرفون الله كذلك « قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يَدْبُرُ الْأُمُورَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ » ومع أنهم



يقولون الله بصراحة وجلاء فلم يحسبوا بهذا القول مؤمنين . لأن الإيمان — إذا  
عرفت الله حقاً — ألا تعرف غيره فيما هو من شئونه ، ولذلك يستطرد القرآن  
في مخاطبة هؤلاء . . . . . « قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَاذًا  
بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ . كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى  
الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » .

إن العامة عندما يشدون الرحال إلى قبور تضم رفات بعض الناس ،  
وعندما يهرعون بالنذور والحاجات والأدعية إلى من يظنونهم أبواباً لله ، إنما  
يرتكبون في حق الإسلام مآثم شنيعة ومهما قلبنا عملهم هذا من جميع وجوهه  
فلن نجد فيه ما يطمئن إليه ضمير المؤمن أبداً .

ومحبة الصالحين وبعض الفاسدين من شعائر الإسلام حقاً ، ومظاهر الحب  
والبغض معروفة . . هي مصادقة للأحياء أو منافرة ، واستغفار للموتى أو لعنة . وأين  
من عواطف الحب والبغض هذا الذي يصطنعه المسلمون اليوم ؟ . إن الواحد  
منهم قد يصادق أفسق الناس وقد يقطع والديه — وهما أحياء — ثم تراه  
مشمراً مجدداً في الذهاب إلى قبر من قبور الصالحين لا يدعو له ويطلب من الله  
أن يرحم ساكن هذا القبر . بل ليسأل صاحب القبر من حاجات الدنيا  
والآخرة ما هو مضطر إليه . ذلك ضلال مبين ! .

\*\*\*

وبناء المعابد على قبور الصالحين تقليد قديم ، وقد ذكر القرآن ما يدل  
على شيوعه في الأمم السابقة . وفي قصة أهل الكهف تسمع قوله عز وجل :  
« فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ  
لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِدًا » .

ويظهر أن اتخاذ المساجد على القبور كبناء التماثيل لم يكن محظوراً  
أول أمره إذ لم تكن له دلالة مثيرة .

غير أن البشر سفهوا أنفسهم ، فالأحجار التي تحتوها للعطاء عبدوها ،  
أو — على حد تعبيرهم — اتخذوها إلى الله زلفى . والمعابد التي أقاموها على  
قبور الصالحين قدسوها وسلكوها مسلك الأصنام في الشرك ، فلما جاء  
الإسلام أعلن على هذين المظهرين من مظاهر الوثنية حرباً شعواء ، وشدد  
تشديداً ظاهراً في محق هذه المساخر المناقفة ، وقد رأينا كيف أن النبي  
صلى الله عليه وسلم أرسل على بن أبي طالب وأمره أن يسوّى بالأرض كل  
قبر وأن يهدم كل صنم ، فجعل الأضرحة العالية والأصنام المنصوبة سواء  
في الضلالة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم في البيان عن سفاهة القدامى  
وفي التحذير من متابعتهم : « لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور  
أنبيائهم مساجد ، ألا لا تتخذوا القبور مساجد ، إني أنهاكم عن هذا » .  
وكان يرفع الخِمرَة عن وجهه في مرض الموت ويكرر هذا المعنى ، وكأنه توجس  
شراً مما قد يقع بعده فدعا الله : « اللهم لا تجعل قبري من بعدى وثناً يُعبد » .  
ومع كثرة الدلائل التي انتصبت في الإسلام دون الوقوع في هذا المحذور ،  
فقد أقبل المسلمون على بناء المساجد فوق قبور الصالحين . وتنافسوا في تشييد  
الأضرحة حتى أصبحت تبنى على أسماء لا مسميات لها ، بل قد بنيت على  
ألواح الخشب وجثث الحيوانات . ومع ذلك فهي مزارات مشهورة معمورة .  
تقصّد لتفريج الكرب وشفاء المرضى وتهوين الصعاب ! ! .

\*\*\*

وأحب ألا أثير فتنة عمياء يهدم هذه الأضرحة . فإن النبي صلى الله  
عليه وسلم امتنع عن هدم الكعبة وإعادة بنائها على قواعد إبراهيم لأن العرب



كانوا حديثي عهد بشرك ، وجاهير العامة الآن ينبغي أن تساق سوقاً رقيقاً إلى حقائق الإسلام حتى تنصرف في هدوء عن التوجه إلى هذه الأضرحة وشد الرحال إلى ما بها من جثث .

وإخلاص المعلم وأسلوبه في الدعوة ، عليهما معول كبير في تمحيص العقيدة مما علق بها من شوائب وعلل .

وقد تكون لدى البعض شبه في معنى التوسل فلنفهم أولئك القاصرين أن التوسل في دين الله إنما هو بالإيمان الحق والعمل الصالح . وقد جاء في السنة « اللهم إني أسألك بأنك أنت الله الذي لا إله إلا هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » فهذا توسل بالإيمان بذات الله وجاء كذلك توسل بالعمل الصالح في حديث الثلاثة الذين آواهم الغار .

وجاء توسل بمعنى دعاء المرء لأخيه بظهور الغيب .

ودعاء المسلم للمسلم مطلوب على أية حال .

ولا نعرف في كتاب الله ولا في سنة رسوله توسلاً بالأشخاص مهما علت منزلتهم سواء كانوا أحياء أو أمواتاً ، على هذا النحو الذي أطبق عليه العامة وحسبوه من صميم الدين ، ودافعوا عنه بجملة وعنف ضد المنكرين والمستغربين

### حول توحيد العامة

جاءتني رسالة كريمة الأسلوب حسنة الجدل من طالب أديب يذكر فيها حجج القائلين بالوسيلة ويسردها على النحو الآتي :

( ١ ) جمهور الناس عصاة ، والله إنما يتقبل من المتقين . فلو ذهب

الإنسان إلى ربه وهو موقر بالسيئات لم يجب له سؤالاً ولم يسق له فضلاً . ومن ثم فعلى الإنسان أن يبحث عن وساطة مقبولة كولي صالح مثلاً .

(٢) لا يسوغ القول بأن هذا شرك لأن النية هي الحكم على الأعمال والمتوسلون لم ينووا شركاً أو يرضوا به .

(٣) الصحابة والفقهاء والأئمة جميعاً كانوا يتوسلون إلى الله بالأنبياء والأولياء . وقد توسل عمر بالعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم .

(٤) يتساءل السكاتب عن قول الله في جدار الغلامين اليتيمين « وكان أبوهما صالحاً » أليس في ذلك ما يفيد أن بركة الأموات تتعدى إلى الأحياء ؟ وفي قوله لنبيه : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله » أليس في الآية ما ينص على التوسل ؟

وجاءتنا رسالة من أزهرى . يقول فيها إن أحد العلماء الرسميين يقول إن التوسل بأصحاب القبور واجب فإن لصاحب القبر تأثيراً أقوى من تأثير الحي ولا حرج في ذلك ما دام المتوسل يعتقد أن الله هو الفاعل ، ويقول إن الآيات التي استشهدنا بها على نفي هذه المزاعم نزلت في المشركين خاصة وأن الرسول أمر الأعمى أن يتوسل به إلى الله فرد عليه بصره . الخ .

\*\*\*

هذه هي جملة الشبه التي تعلق بها طائفة من الناس وبنوا عليها مسالك طائشة عكرت رونق التوحيد الخالص ، وردت كثيراً من المسلمين إلى جاهلية طامسة مهلكة . ونحن نغالب السامة التي تعترينا كلما خضنا في هذا الحديث أوسطرنا فيه حرفاً ، فإن الجدل فيه طال مع وضوح الحق واستبانة النهج . ولم يبق إلا أن يحمل الناس عليه حملاً ، وإليك البيان الحاسم لما سبق سرده من شبهات .

فأما أن العاصي ليس له اللجوء إلى الله مباشرة وأنه أولى به أن يستصحب أحد المقربين قبل مناجاة رب العالمين ، فكلام لا أصل له



في الإسلام قط .. إن إبليس دعا ربه مباشرة وأجيب « قَالَ رَبِّ انظُرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ » والمشركون دعوا الله مباشرة وأجيبوا « دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكوننَّ من الشَّاكرين فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق » فهل عصاة المسلمين يحرمون من حق أخذه إبليس وجنوده ؟ إن أى مسلم يقع في خطأ فعليه أن يجار بالدعاء إلى الله على عجل من غير توسط نبي ولا ولي ولا إنسان ولا شيطان « والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم . ومن يغفر الذنوبَ إلا الله » ثم إن الرجل إذا كان بحالة لا يقبل منه دعاء معها ، فلن يقبل فيه دعاء غيره له ، ولو كان سيد الأنبياء ، ألا ترى كيف رُفِضَ استغفار الرسول لعبد الله بن أبي : فأما المسلم المعتاد فله بل عليه أن يدعو الله ولا ينظر في هذا الضرب من العبادة إلى مخلوق أبداً . . . ! وصحيح أن إجابة الدعاء تقتضى الإخلاص والتقوى . ولكن ما صلة ذلك بما نحن فيه ؟ أنظن أن الرجل إذا فقد الحرارة والصدق والتقى يذهب إلى ميت أو حى ليجد لديه العوض عما فقدته ؟ هذا زعم باطل . وليس في دين الله ما يؤيده بل إن دين الله ضده .

\*\*\*

والقول بأن العمل لا ينظر إليه ، وإنما تعتبر النية المصاحبة له غير صحيح فالعمل المقبول — ديناً — يجب أن تتوفر فيه أولاً النية الصالحة وثانياً الصورة المشروعة . وفقدان العمل لأحد هذين الركنين يبطله . فالعمل المتفق ظاهره مع الشرع إذا كان صاحبه مرانياً أو منافقاً يحبط أجره . والقصد الصالح إذا لم يجر في طريقه الذى رسمه الدين فلا قيمة له ولا يلتفت إليه . . .  
والتشريعات الوضعية لا تسكثرت بحسن النية عند ارتكاب محظور

وترى أن الجهل بالقانون لا يمنع من تطبيق القانون . وذلك سد للاحتيال وحماية للحقيقة ، فهل يكون دين الله أنزل حرمة من هذه التشريعات ؟ ولماذا نستحي من وصف القبوريين بالشرك مع أن الرسول وصف المرأين به ؟ فقال : « الرياء شرك » . . .

إن واجب العالم المسلم أن يرمى هذه التوسلات النائية باستنكار يبذل جهده في تعليم ذويها طريق الحق لا أن يفرغ وسعه في التحل والاعتذار ! ولست ممن يحب تكفير الناس بأوهى الأسباب ولكن حرام أن ندع الجهل يفتك بالعقائد ونحن شهود . أية جريمة يرتكبها الطيب إذا هو طأن المصدر ومنع عنه الدواء ، وأوهه أنه سليم معافى ؟ إن ذلك لا يجوز .

\*\*\*

أما القول بأن الصحابة كانوا يتوسلون إلى الله بأشخاص الأحياء والأموات فنكر قبيح وما يروى من شعر منسوب إلى الإمام الشافعي فنحول لأصل له . وقد ذكرنا نحن أن دعاء الإنسان لنفسه وغيره مطلوب وقد جاء ذلك في القرآن لسان النبيين والصالحين فن دعاء إبراهيم : « رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ » ومن أدعية نوح : « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » ، « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ » . وقد أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو بعضنا لبعض بظهر الغيب ، ومن هذا القبيل وفي حدود تلك الدائرة من استعطاف العبيد لله وتواصيهم باسترحامه واستغاثته طلب عمر من العباس أن يدعو الله للمسلمين فدعا العباس وكان المسلمون حوله يُؤمّنون . بين الزبير بن بكار في الأنساب صفة مادعا به العباس فقال : إن العباس لما استسقى به عمر قال : اللهم لم ينزل بلاء إلا بذنب ولا يكشف إلا بتوبة



وقد توجه القوم بى إليك لمكانى من نبيك وهذه أيدينا إليك بالذنوب ،  
ونواصينا إليك بالتوبة فاسقنا الغيث .

وليس ذلك مقصوراً على أن يدعو من تتوسم فيهم الصلاح لمن نظن بهم  
التقصير فهذا خطأ . بل الأمر أعم . وقد طلب رسول الله من عمر أن يدعوله .  
وأمر الرسول جمهور الأمة أن تدعوله ، أولسنا نصلى عليه كما أمر الله ،  
وكما أمر رسول الله . ؟

فما صلة ذلك بالتوسل على هذا النحو المجنون الذى سقط فيه العامة  
وجازاهم عليه الكسالى والمرتزة والقاصرون من ادعياء العلم ؟

\*\*\*

ولست أدرى ما علاقة التوسل بالآية الكريمة : « وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ  
لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ  
رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا » .

إن الآية تفيد أن صلاح الآباء يمتد نفعه إلى الذرية . كما أن فسادهم  
ينقل خطؤه إليها : « وَابْتَئِشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا  
خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ . . »

فالصالحون بعد موتهم قد يظهر في أعقابهم أثر من بركة استقامتهم .  
ونقول : قد ! لأن للوراثة قوانين سنهارب الوجود الأعلى ولا تعرف بالضبط  
اتجاهاتها ، وقد كان إبراهيم من نسل رجل كافر . وكان لنوح ابن عنيد  
الضلال . والله يقول في ذرية نوح وإبراهيم : « وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ  
لِنَفْسِهِ مُبِينٌ » . ومن المنتسبين إلى الأسرة النبوية في هذا العصر من أساءوا  
إلى الإسلام والعروبة أشنع الإساءة . .

فإن كان السائل يقصد أن هؤلاء هم أصنام العصر الحديث الذين  
يقوسل بهم المتوسلون . فقد كفرنا بهم وآمنا بالله وحده . .

إن الحسين لم يدفع عن نفسه وهو حي فكيف يدفع عن غيره وهو ميت ؟  
وقوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ . . . » ليس  
تصريحاً ولا تلميحاً إلى جواز التوسل . والآية ناطقة بأن الحجى للظفر باستغفار  
الرسول وذلك بداهة في أثناء الحياة لا بعد الموت ، وللصوفية شطحات في هذا  
الموضع إن صدقوا فيها فهي أحوال توقف عليهم وليس لدين الله بها شأن .  
ومصادر التشريع معروفة ، ولم نعرف من مصادر التشريع أن فلاناً الصالح  
رأى في منامه كذا وكذا ، أو أن فلاناً المجذوب خيل إليه في أثناء زيارته  
للروضة النبوية كيت وكيت .

ولقد كان ابن عمر - لما فاض في قلبه من حب الرسول يتصرف تصرفات  
خاصة فكان في سفره ينزل حيث نزل الرسول ، ويقعد حيث قضى حاجته  
- ولو لم تكن له حاجة - واعتبر العلماء هذا كله عاطفة لابن عمر وحده  
لا يلزم بها أحد ولا توصف بأنها شرع ، فإذا كان بعض الناس يحكى أموراً  
عن مجيئه للرسول في قبره وأنه سلم فسمع الرد ثم حظى بتقبيل اليد !!!  
فهو بين حالتين إما أن يكون كاذباً فلا قيمة لكلامه وإما أن يكون مجذوباً  
تخيل فحال ولا قيمة لكلامه كذلك . . . ونحن لا ندع كتاب ربنا  
وسنة نبينا لهذه الحكايات .

أما ذلك الذى يوجب التوسل ويرى أن تأثير الميت أقوى من الحى  
فهو رجل مخبول ! وزعمه بانتفاء الشرك مادام الاعتقاد أن الفاعل هو الله  
كلام فارغ . وقد أبت أن المشركين القدماء كانوا يعرفون أن الفاعل هو الله .  
وأن توسلهم كان من باب « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرَّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » .



وأن ندمهم يوم القيامة إنما هو على تسويتهم الخلق بالخلق « تَاللَّهِ إِن كُنَّا لِنَافِي صَلَالٍ مُّبِينٍ ، إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ » .

وهناك عشرات الآيات تؤكد هذا المعنى . سيقول بعض الناس إن القدماء كانوا يعبدون أما عوام اليوم فهم يدعون ويسألون فقط ، وشتان بين عبادة الجاهليين وتوسل المحدثين بأولياء الله ، ونقول : هذه مغالطة فالسؤال والدعاء بنص القرآن والسنة عبادة محضة : « وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » .

وفي الحديث « الدعاء مخ العبادة » فلماذا نتوجه إلى البشر بما هو من خصائص الألوهية ؟ ؟ وإذا وقع الجهال في تلك الخطايا بغباوتهم فلماذا لا نسارع إلى إنقاذهم منها ، بدل تزوير الفتاوى لهم ، وقد تذكر في هذا المجال قصة الأعمى الذى توسل إلى الله بنبيه ليرد إليه بصره . ومع أن القياس مع الفارق — لو سحت القصة — فهذا الأعمى دعا الله وأوثق الحقى يدعون غيره إلا أن القصة نفسها ليست من قسم الحديث الصحيح .

والاحتجاج بالآثار الضعيفة فى العقائد والأحكام لا يقبل من صاحبه .  
ومثل هذه الرواية قد تروج عند الوعظ بفضائل الأعمال .

\*\*\*

وآيات القرآن ينظر فيها إلى عموم اللفظ لا إلى خصوص السبب .  
وقد حرم الله الشرك على العرب فهو على غيرهم حرام ، فالقول بأن الآيات نزلت فى أهل الجاهلية وحدهم جهالة لا تأبه لقائلها ولا نقيم لها اعتبارا .  
رزقنا الله صدق التوحيد ، وأحيانا وأمانتنا عليه .

جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم : « الشرك أخفى من دبيب الذرِّ  
على الصفا في الليلة الظلماء . وأدناه أن تحب على شيء من الجور ،  
وأن تبغض على شيء من العدل . وهل الدين إلا الحب والبغض ؟ ثم تلا :  
« قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِ يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ .  
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

يعنى أن إخلاص التوحيد يقتضى محبة العدل وكرهية الظلم فإذا أحب  
الإنسان جائراً وكره عادلاً فقد أشرك !! .

فإذا كان حسُّ الإسلام مرهقاً إلى هذا الحد في تمحيص القلوب ونقد  
اتجاهاتها الخاطئة ، فكيف يسوغ أن نأتى إلى رجل يجار بالدعاء لغير الله  
ويخاف ويرجو غير الله . ثم تقول له : لا بأس عليك .

إن موقف العالم المسلم في هذه القضية ليس موقف المحامى الذى يدفع  
عن المجرم فيقف ساعة أو أكثر ليزيِّف التهمة ويؤول القانون !!  
بل موقف الذائد عن معالم الإسلام . فإذا كان لا يعاقب المتهم لأنه جاهل  
— كما يقولون — فليعلمه دين الله ولا يتركه نهياً للشياطين .



(٣)

الجمال الأعلى

## القدرة

العالم وما فيه من سكون وحركة أثر لقدرة الله سبحانه وتعالى . ليست لشيء ما — قدرة ذاتية يستمدّها من طبيعته المجردة ، فإذا رأيت البذور تشق التربة وتنمو رويداً رويداً لتستوى على سوقها فذلك بقدرة الله . وإذا رأيت الأمواج تلطم الشطآن غادية رائحة لا تهدأ حتى تثور فذلك بقدرة الله . وإذا رأيت القاطرات أو الطائرات تهبّ الفضاء وتطوى الأبعاد وتحمل الأثقال فذلك بقدرة الله . وإذا رأيت البشر يموج بعضهم في بعض ، وينفعلون بالحب والبغض والفرح والحزن ، وينطلقون عاملين ، أو يهدأون نائمين ، فذلك بقدرة الله . وسواء شعرت أو لم تشعر فنبضات قلبك في حناياك وسريان دمك في عروقك ، وكون الحس في أعصابك ، وتجدد الحياة في خلاياك ، وانسكاب الإفرازات من غدّدك ذلك كله بقدرة الله . ! ؟

لا تحسبن شيئاً في الكون قادراً بنفسه ، فكما أن القدرة أبدعته أولاً من عدم ، فقد أودعت فيه من أسرارها ، وبثت فيه من آثارها ، ما يدل عليها . وبعض الجاحدين من علماء الطبيعة يردون ما يقع تحت أبصارهم من هذه الدلائل الباهرة إلى مجهول محض ، أو قوى كامنة في المواد والعناصر المختلفة وهذا تحريف شائن وتسفيه للعقل ومغالطة للواقع .

إن النور المتولد عن انتشار الكهرباء في الأسلاك ، والحركة الناشئة عن امتداد الأبخرة في المواسير ، والحديد المرتفع في الجو نتيجة تغيير المرواح الدائرة لمقادير الضغط — في الطائرة — كل أولئك لا يرفع قدر عنصر من العناصر المخلوقة فيه مرتبة الوجود المستقل فضلاً عن الإيجاد الرائع ! . لماذا يطلب



منا أن نظن في مواد التربة أنها — بقدرتها — خلقت النبات ؟ ولو كان ذلك حقاً فما الذي يمنع التربة أن تكون إلها . ولو كانت العناصر جميعاً بهذه المثابة مع حركاتها وسكونها ، فأى خبط نفع فيه نتيجة هذا الفرض الأحمق ؟ أليس أقصر طريق نصل به إلى الحق أن ننظر إلى العالم كله من أرضه لسمانه على أنه صنع القدرة العليا ، وأن كل ما يتجدد فيه إنما يقع تحت إشراف القدرة وهيمنتها ؟ .

من المؤسف أن تكون السمة الغالبة على كافة العلوم الطبيعية أنها تقوم على البحث المجرد في مادة الوجود وتعرف حقيقة العلاقات والتطورات والروابط بين شتى العناصر . وقلما تلتفت إلى شيء بعد ذلك إذا وقفت إلى نتائج معينة في موضوع بحثها . وتنتهي أغلب هذه العلوم بمن يدرسونها إلى علم جيد بالخلوقات وجهل مطبق بخالقها ، لأنه لم ترد إليه إشارة ما في غضون البحوث الكثيرة المنتشرة . وهذه لا ريب خيانة علمية ، فإن دراسة هذا الكون العظيم تنفذ إلى صميم الفكر الحر بأشعة من الهدى والإيمان ، وتجعل الإنسان يتطلع ملء الفؤاد بعواطف الرهبة والرغبة إلى هذا الخالق العظيم ،

وهذه البحوث المجردة تشعر بآثار القدرة الرائعة فيما تتناولها من نواحي الطبيعة ، غير أنها تطويها طياً تحت أسماء مبهمه وتستدرج المتعلم بإجراء الملاحظات والتجارب ثم تشغله بتدوين النتائج . أما الانتفات من وراء هذه الحجب الشفافة إلى عظمة الله جل جلاله فأمر لا يكثر له كثير من علماء الكون والحياة ، وهكذا تظل بحوثهم مبتورة ، لأنها تنقصها الحلقة المفقودة بين الخلق والخالق .

من ذلك كله نعلم أن الله قدير على كل شيء ، وأنه قوى متين ، وأنه

لا يؤوده خلق ولا أمر « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ  
وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا » .

والقدرة في مجالها الواسع لا يعيها شيء ألبتة وآثارها التي نشهدها تدل  
على طاقة لا تقف عند حدود ، وليس معنى ذلك بداهة أن تخرج القدرة على  
منطقها فيقال مثلاً إنها لا تستطيع قلب الحقائق ! وقد كان الدكتور زكي مبارك  
سخيفاً ، ولعله كان « مسطولاً » يوم كتب في ( البلاغ ) : إن الله لا يستطيع  
إخراجي من ملكه ، وإن الله لا يستطيع الجمع بين النقيضين . . .  
والجنون فنون ! .

## الإرادة

والله سبحانه وتعالى ، فيما خلق وفيما يخلق ، وفيما دبر ويدبر به شؤون العالم  
كان يصوغ الكائنات في الأوضاع التي يريد ، ويضفي عليها الأوصاف التي  
يشاؤها ، ويبرزها في الأوقات التي يختارها ، لا يستكرهه أحد على شيء من  
ذلك كله . وماترى في الأرض والسماء من تنوع في الوجود ، وتميز في السمات  
هو مظهر الإرادة الحرة في كافة تعلقاتها فما أوجده الله في هذا العصر كان من  
حقه الكامل أن يوجده في الأيام الخالية ، وما جعله الله كوكباً متألّقاً كان  
يستطيع جعله جنديلاً بارداً ، وتوزيع الصفات والأحجام والأحوال في أنحاء  
الكون العريض ليس إلا المشيئة العليا لله عز وجل ، ولو أراد أن يخلق العالم  
الذي نعيش فيه على نحو آخر في قوانينه وأنظمته وأحيائه وأشياءه كلها لفعل .  
وإنك لترى انطلاق المشيئة دون أي عائق في إخراجها الأصناف المختلفة  
من الأصل الواحد ! فالحقول المتجاورة تختلف محصولاتها كما وكيفاً . والبذور  
المتجانسة تتفاوت فروعها حلاوة وحموضة ولوناً ووزناً في النبات . ولو ما ونبلا



وذكاء وبلادة ، في الإنسان والحيوان : « وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ  
وَجَنَّاتٌ مِنْ أُعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ  
وَنُفْضَلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ »  
وقديماً استدلت الأمة على عظمة الإرادة - في هذا المعنى - بالنحل  
يأكل من ورق الشجر فيحوله شهداً ، ويأكل منه الدود فيحوله حريراً ،  
وتأكل منه أطيبار أخرى فتحوله قدراً ، وإذا اتجهت الإرادة إلى شيء فيستحيل  
أن يتخلف أثرها « إِنَّ اللَّهَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ » . « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا  
أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

فإرادة الله نافذة في السماء والأرض لا راد لها ولا معقب عليها « وَرَبُّكَ  
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ » .

وقد تطلق الإرادة على قصد الشيء بأسلوب سلبي فأنت إذا خرجت من  
بيت يستطيع صاحبه منعك من الخروج منه ولكنه تركك ، فهو بسكوته  
يريد خروجك ، وإلى هذا المعنى يشير المتنبي لما ترك سيف الدولة مغاضباً ،  
ثم قال مبرراً عمله وملقياً التبعة على صاحبه :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحمون هو  
ومثل هذا ترك امرئ يمشى في طريق الضلالة ويهيم على وجهه ، لأنه  
حرم أسباب اللطف ، والله قادر على سوقها إليه لو شاء ! . ولعل ذلك تفسير قوله  
تعالى : « وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ  
شَيْئًا ، يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْبًا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » .  
« وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ نَمُنِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمُنِّي لَهُمْ  
لِيَزَادُوا إِثْمًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ » .

## الحكمة

وشمول الإرادة وعموم القدرة ، وكون الله سبحانه يفعل ما يريد متى يريد ، وكيف يريد ، ليس معناه أن أمور الخلق والرزق ، وشئون القبض والبسط ، وحفظ الرفعة والضعمة ، والإعزاز والإذلال ، والنصر والهزيمة — أن هذه جميعاً تصدر على طريقة الارتجال السريع ، أو الخواطر السانحة ، أو تتم اتفاقاً وتقع مصادفات عارضة ! كلا كلا .

فإن السكون كله خاضع لشبكة دقيقة النسيج من الأسباب والمسببات ، والسنن الثابتة الخالدة ، والقوانين المترابطة المتكاملة ، لا تضطرب ولا تختلف ولو أجمع البشر على مناقضتها .

فالنبات يتم نضجه بالإرادة والقدرة ، ولكن مظهر الإرادة والقدرة فيما نعرفه من غرس وسقي وتعهّد وزمان ومكان .

والجنين يكتمل بشراً سوياً بالإرادة والقدرة ، ولكن اكتماله في أطوار وأحوال لا بد من توافرها ويستحيل أن يولد غيرها .

وقول الله إنه يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء لا يعنى أنه بين عشية وضحاها يقيم دولة ويهدم أخرى ، فدون إقامة الممالك وقبل انهيارها توجد مقدمات طويلة تستغرق سنين أو عصوراً ، حتى تقع نتائجها اللازمة وأصحاب العقول الضيقة والأفكار القاصرة يحسبون أن وصف الله عز وجل بأنه يفعل ما يشاء معناه أن أحكامه في عبادته لا ضابط لها ولا رابط بينها . ولعلمهم يقيسون سعة السلطان الإلهي على ما عهدوه من تصرفات ذوى السلطة فيهم ، أولئك الذين يخبطون خبط عشواء ويعبثون عبث الحمقى ، تعالى الله عما يظن الجاهلون علواً كبيراً .



إن الأسباب والمسببات هي المفاتيح الملقاة بين أيدي البشر ليصلوا بإرادتها إلى ما وراءها من خير أو شر . وعموم المشيئة والقدرة مقيد بما شرع الله في كونه ، أو بين عباده من قوانين كونية ، أو قوانين شرعية . . . . .  
كذلك ليس معنى أن الله يفعل ما يشاء أنه يثيب العاصي أو يعذب الطائع ، أي أنه يجوز عليه الظلم ، ويقع منه الغبن !! وهذا جهل شنيع .  
ونسبة ذلك إلى الله تكذيب لما قال في كتابه العزيز .

ثم إن هذه العدالة مردها إلى ما ينبغي لله من كالات — بداهة — وليس مردها إلى أنه لو ظلم تعرض لعقاب أو سؤال ، فذلك مستحيل ، ومن أين يحدث ذلك ، وهو المتفرد في الوجود بالألوهية بين عبيد عنت له وجوهمهم ، وذلت له رقابهم ؟؟ إن بعض العامة من المسلمين يظنون في انطلاق المشيئة أن السنن الكونية صفر ، وأن العدالة العليا قد تتخلف ، ونشأ عن هذا استهتار غبي بالأعمال والمسئوليات سنعالجه عند الكلام على القضاء والقدر .

## الحياة

مراتب الوجود تختلف رفعة وضة ، فالجماد أنزل رتبة من النبات ، والحيوان أعلى درجة من النبات ، والوجود الإنساني أرقى من أنواع الوجود الأخرى ، واتصاف الله سبحانه وتعالى بالحياة معناه أن وجوده بلغ الغاية في عظمته وآثاره ، فهو موجود ، ويعرف أنه موجود ، وهو يهب الوجود لغيره عن إدراك واختيار ، ومن ثم فهو حي . . . . .

إن بعض الفلاسفة الذين يقولون بأن العالم معلول في وجوده بغيره ، ويسمون الخالق علة العلل أو مبدأ الوجود ، يعطون صورة مبهمه عن هذا الوجود الأعلى ، حتى لتحسب أن صدور الكائنات عن بارئها الأعظم يشبه

التفاعلات الكيماوية التي لا روح فيها ولا حياة معها . وهذا ضلال . .  
فدلائل الحياة الكاملة تنبتق من الذات العليا ابثاقا يتضاهل أمامه كل  
ما نعرف من صنوف الحياة ودرجاتها المختلفة . أطلق لخيالك العنان وتصور  
كل ما تنتجه الأيدي « الحية » من أعمال ، وما تنشئه العقول « الحية » من  
أفكار ، وما تهتز به الأفئدة « الحية » من مشاعر . واجعل هذا الخيال يضم  
أشتات ذلك من مشارق الأرض ومغاربها ، ويستجمع ما حدث في الأعصار  
الخالية وما يحدث اليوم وما سوف يحدث غداً إلى أن يرث الله الأرض  
ومن عليها .

إن مظاهر هذه الحياة المفعمة بالقوة والإنتاج لا تعد شيئاً مذكوراً بالنسبة  
إلى الحياة الإلهية الواسعة ، بل هي أثر ضئيل من أعمال الحى الذى لا يموت ،  
الحى الذى ينفخ من روحه فى الموات فيهتز ، وفى الجماد فيتحرك : « إنَّ اللهَ  
فَالِقُ الْخَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ  
ذَلِكُمْ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ » . « اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ » .

## العلم

الله تعالى عليم بكل شىء ، لم يسبق معرفته جهل ، ولا يعدو عليها نسيان  
ولا يمكن أن تخالف الواقع ، وعلمه محيط بالأمس واليوم والغد ، بالظاهر  
والباطن ، بالدنيا والآخرة ، قد يعرف الإنسان شيئاً عن حاضره ، وقد يذكر  
طرفاً من ماضيه ، وما وراء ذلك فهو بالنسبة إليه عماء .

بيد أن الإنسان لا يذكر من ماضيه الطويل إلا قليلاً من الحوادث ،  
ولا يدري من تاريخ العالم الذى يعيش فيه شيئاً طائلاً ، لكن الله وحده يحصى  
أعمالنا الماضية ساعة ساعة ، ويسجل أحوال العالم الغابرة دولة دولة وحادثة



حادثة : « قَالَ مَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ؟ قَالَ : عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى » .

إنه علم بشرق على كل شيء ؛ فيجلى بواطنه وخوافيه ، ويكشف بداياته ونهاياته ، ويكتنه ذاته وصفاته ، فالمشهود والغيب لديه سواء ، والتقريب والبعيد والقاسى والدانى : « إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامٍهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ » . والعلم الإلهى يشرف على كل شيء إشرافاً تاماً ، ويهيم على أطوار الموجودات ما يحس منها وما يتوهم هيمنة كاملة ، فعدد ما فى صحارى الأرض من رمال ، وعدد ما فى بحار الدنيا من قطرات ، وعدد ما فى الأشجار من ورقات ، وعدد ما فى الأغصان من ثمار ، وما فى السنابل من حبوب ، وما فى رؤوس البشر وجلودهم من شعر . ثم ما يمكن أن يطرأ على هذه الأعداد الكثيرة من أحوال شتى ، وما تحتاجه فى وجودها من قوى متجددة ، وما يعترىها من أوصاف متغيرة . ذلك كله يستوعبه شعاع واحد من أشعة العلم التى لا تدرى عقولنا من كنهها إلا قليلاً : « وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » . وهذا العلم من خصائص الذات المقدسة . وقد ينير الله بعض العقول بمحائق يسيرة — على قدر طاقتها من المعارف الكونية ، أو رشحات ضئيلة من الغيوب الخفية ، حسب قواعد مدروسة ، وحكم مأنوسة ، وما وصل إليه البشر من ذلك مقرر معروف ، وما أوتوا إلا القليل . أما الله عز وجل فكما قال فى كتابه : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ، وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » .

## السمع والبصر

عن عائشة رضی الله عنها : « الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات . لقد جاءت المجادلة خولة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في جانب البيت تحدّثه ما أسمع ما تقول ، فأنزله الله عز وجل : « قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَاسْتَشْكَى إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا . إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ » .  
أجل ! فما من كلام يدور بين الناس ، أو حديث يتجادون أطرافه إلا سبق وقعه إلى سمع الرحمن ، جل وعلا ، قبل أي شيء ! ولا تحسبن أن الله حين يسمع نجوى جماعة يشغله ذلك عن سماع قوم آخرين . كلا . فما يشغله شأن عن شأن ، وما تغيب عنه همسة وسط الضجيج ، ولا تشبهه عليه لغة على اختلاف الألسنة .

إنك بالوسائل التي هدى إليها البشر — تجلس في المشرق فتنتقل إليك محطات الإذاعة الأغاني والأحاديث من المغرب طاوية الأبعاد الشاسعة .  
فما أدرانا بما وراء ذلك من أسرار الكون .

وما أيسر — في منطق العقل — أن يشرف رب الكون بسمعه على كل حركة وسكنة في الوجود تنبعث من مصدرها القريب أو البعيد — وليس ثم قرب ولا بعد بالنسبة إلى الله — فيعلم كنهها ويسمع صوتها ويبصر وضعها ! . إن ربك يسمع كل صوت ، وهناك أصوات يسمعها ويحبها « ما أذن — ما استمع — الله لشيء أذنه لني حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به » ، وكما يحب الله صوت الوحي تتلوه الألسنة يكره أصوات الفحش والسوء : « لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا » .



ولا تستكثر أن يقال لك : إن الله يسمع خفقان القلوب في حنايا الخلق  
أجمعين ، فما القلوب إلا أثر قدرته سبحانه بالحياة ثم دفعها فهي تسير إلى أجل  
معلوم ، فكيف لا يسمع أثر ما أوجد ؟ وكان أن الله يسمع كل شيء فهو يشهد  
كل شيء ، ورؤيته تنظر في أعماق الظلمات فتستشف كوامنها فما هو بحاجة  
إلى ضياء يبصر به الخفي ، أو مكبر يعظم به الدقيق .

إذا كنت ثالث ثلاثة فاعلم أن هناك رابعاً يبصر ما تفعلون ، ويسمع  
ما تقولون : « لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ، مَا لَهُمْ مِنْ  
دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا » .

عند ما أرسل الله موسى وهرون إلى فرعون توجّسا من طغيانه وقالوا :  
« رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّعِنَا ، قَالَ : لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا  
أَسْمِعُ وَأَأْمُرُ » .

إنه معهما ، ومع كل كائن من بدء الخلق إلى قيام الساعة ، وما قبل ذلك  
وما بعد ذلك ، يسمع ويرى ، وهو سبحانه قد ركب في وجوهنا هذه العيون  
التي نقرأ بها ونكتب ونشهد بها ما نشاء ، ولكن ما قيمة رؤيتنا هذه إلى  
جانب الرؤية الإلهية المحيطة الشاملة لو أن كل ذى بصيرة انظموا صفاء يستغرق  
محيط الأرض ، ثم اجتهدوا في رؤية ما حولهم ، ما أبصروا شيئا يذكر إلى  
جانب الرؤية الإلهية التي تستوعب جميع المدركات ، من جميع الجهات ، في وقت  
واحد ، سواء فيها المستخفي بالليل والسارب بالنهار ، الخالي وحده والبارز  
للناس : « وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ  
عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ . . . »

والإحساس بهذه الحقيقة جزء من الدين بل هو قته العليا : « الإحسانُ أن تعبدَ اللهَ كأنك تراهُ ، فإن لم تَسْكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » وملاحظة العبد لله أساسها شعوره بأنه سبحانه قائم على كل نفس بما كسبت ، ومطلع على ما أسرت وأعلنت . وذلك وحده لب التقوى وسر الإخلاص .

### الكلام

هو وسيلة للإبانة عما في النفس من معارف ونصائح ورغبات شتى ، وتفهم ذلك للآخرين . ولاشك أن الله سبحانه وتعالى مستحق لهذا الوصف فقد عهد إلى ألوف من ملائكته بالقيام على شؤون الإحياء والإماتة في أنحاء العالم العريض ، كما عهد إلى ألوف وألوف منهم بشؤون شتى لا ندرى منها إلا القليل . وهذا التسخير الدائم خاضع لأوامر الله التي يتكلم بها خلقاً ورزقاً ورفعاً وخفضاً ، ومحوراً وإثباتاً ، وتقديراً وتدييراً . . . إلخ .

وما حفل به علم الله فوق الحصر ، وما يدل على هذا العلم من كلمات لانهاية له كذلك ، إن أحدنا في مباشرة أعماله المحدودة يحتاج إلى قاموس من الألفاظ ، فما ظنك برب العالمين وهو يحكم ملكوته الواسع العظيم ؟ ألا ترى أن كلامه من السمة والاستبحار على النحو الذي يقول الله تعالى فيه : « وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

« قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا » ، وكتب الله التي أنزلها على أنبيائه مظهر من مظاهر انصافه جل شأنه « بالكلام » وقد كلم الله موسى تكليماً . وسوف يكلم كثيراً من عباده يوم القيامة .



وأرسل الروح الأمين بمختم الوحي إلى صاحب الرسالة العظمى . فكان القرآن الكلمة الأخيرة في هدايات الله لعباده « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » أما حقيقة الكلام — كصفة لله — فلا تقصر فيها ولا تطيل ، لأننا دون هذا المجال بكثير ، بيد أننا نجزم بأن الكلام الإلهي ليس ألفاظاً تصنعها الشفتان واللسان ، وتضبطها الرئتان والحنجرة والأسنان . فذاك شأن الإنسان لا وصف الرحمن .

### أنت أنت الله<sup>(١)</sup>

إذا ما اتجه الفكر في السموات حيث انتشرت النجوم في الليل ، وإذا ما كَلَّ البصر فيما لانهاية له من الآفاق المظلمة ، وإذا ما خشعت النفس خشعتها من رهبة السكون الشامل ، فإنك تشرف بوجهك الكريم من خلال هذه الآفاق ، وتسمع صوتك في ذلك السكون ، وتمس بعظمتك النفس الخاشعة المطمئنة — حينئذ تبدو الآفاق المظلمة كأنها باسمه مشرقة ، ويتحول السكون إلى نبرات مطربة تنبعث من كل صوب ، وحينئذ تغنى النفس الخاشعة لتقول : « أنت أنت الله » .

وإذا ما كان المتأمل على شاطئ البحر الخضم ، وأرسل الطرف بعيداً بعيداً ، حيث تختلط زرقة السماء بزرقة الماء ، وحيث تنحدر شمس الأصيل رويداً رويداً كأنها الإبريز المسجور ، لتغيب في هذا المتسع الملح الأجاج ، وحيث تتهادى الفلك ذات الشراع الأبيض في حدود الأفق الملون بألوان الشفق ، كأنها طائر يسبح في النعم — إذ ذاك يشعر المتأمل بعظمة واسعة دونها عظمة البحر الواسع ، وإذ ذاك تقر العين باطمئنان الفلك الجارى على

(١) من « خواطر نفس » للدكتور منصور فهمي .

أديم الماء المهد ، وفي رعاية الله الصمد ، حيث تكون مظهر العظمة ، وحيث  
تطمئن النفس لرؤية ما تطمئن إليه في منظر جميل ، إذ ذلك يدق القواد بدقات  
صداها في النفس : « أنت أنت الله » .

وإذا ما انطلقت السفينة بعيداً بعيداً في البحر اللجج ، وهبت الزوابع ،  
وتسابت الرياح ، وتلبد بالسحب الفضاء ، واكفهر وجه السماء ، وأبرق  
البرق ، وأرعد الرعد ، وكانت ظلمات بعضها فوق بعض ، وابعثت بالسفينة  
الأمواج ، وأجهد البحار جهده وأفرغ الربان حيلته ، وأشرفت السفينة على  
الغرق ، وتربص الموت من كل صوب وحذب — إذ ذلك يشق ضياؤك هذه  
الظلمات والمسالك : وتحيط رأفتك بهذه الأخطار والمهالك ، وتصل بحبال  
بجدتك المكرو وبين البائسين ، وإذ ذلك يردد القلب واللسان : « أنت أنت الله » .

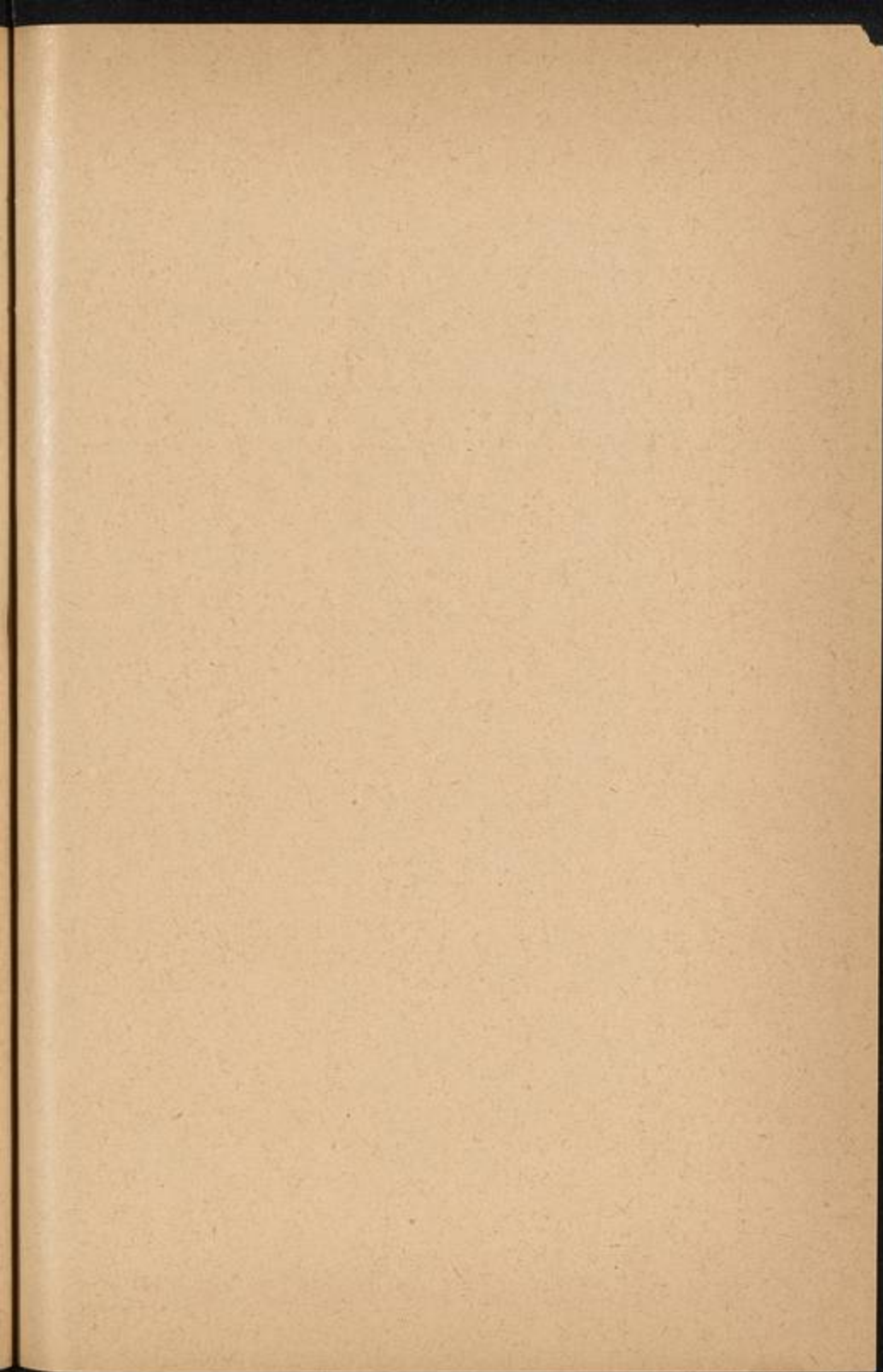
وإذا ما اشتد السقم بمن أحاطت به عناية الأطباء ، وسهر الأوفياء ، ونام  
بين آمال المخلصين ودعوات المحبين ، ثم ضعفت حيلة الطبيب ، ولم ينفع وقاء  
الحبيب ، واستحال الرجاء إلى بلاء — إذ ذلك تتجلى مستويًا على عرش  
عظمتك ، والنواصي خاشعة ، والنفوس جازعة ، والأيدى راجفة ، والقلوب  
واجفة لتقول : « أنا قضيت » ، ويقول الطبيب والقريب والحبيب :  
« لك الأمر أنت أنت الله » .

وإذا ما باين الدنيا إنسان وباينته ، إذ ينظر إلى المال فيلقاه فانيًا ، وإلى  
الجاه فيلقاه ذاويًا ، وإلى الأمانى فيلقاها زائلة ، وإلى الآمال فيجدها باطلة ،  
وإلى الشهوات فيلقاها خادعة كاذبة ، وإلى المسرات فيجدها آفلة غاربة —  
إذ ذلك يستعنى عن الجاه والمسال ، وتشل في نفسه حركة الآمال . وبين جاه  
يدول ، وأمل يزول لا يملأ فراغ النفس إلا ذكرك : « أنت أنت الله » .



وإذا ما وقعت العين على زهرة تنفتق في الأكمام ، أو تلاقى العين بعين  
يملؤها الحسن والابتسام ، وإذا أعجب المعجبون بجمال الفجر المنتفس ، وتغريد  
الطير المتربص ، وعاود الصدر انشراحه ، وملاً القلب ارتياحه — إذ ذاك  
يشرق في قلوبنا نورك الجميل فنراك : « أنت أنت الله » .

فيما يمس النفس من مظاهر العظمة ، ومظاهر السعة ، ومظاهر الرحمة ،  
ومظاهر القدرة والقضاء ، ومظاهر الدوام والبقاء ، ومظاهر الجمال والجلال —  
اعتاد الناس أن يصفوك بالعظيم ، والواسع والرحيم ، والقادر والدائم ، والجميل  
والجليل ، وأوتار القلوب تردد : « أنت أنت الله ، أنت أنت الله » .





(٤)

القضاء والقدر

## الإيمان بالقضاء والقدر

الإيمان بالقضاء والقدر عقيدة من العقائد التي أسسها الإسلام على الإيمان بالله عز وجل ، وبنائها على المعرفة الصحيحة لذاته العليا وأسمائه الحسنى وصفاته العظمى . ولا ريب أن الإسلام قد أوجب لله نعوت الكمال ، وصفات الحلال والجمال ، ودواعي الحمد والتمجيد .

ووافق العقل النقل في ذلك كله ، ثم فصلت هذه الكمالات الواجبة لرب الوجود — الذي خلق فسوّى والذي قدّر فهدى — فكان في عداد ما ينبغي الإيمان به والاطمئنان إليه أن لله وحده صفات العلم الواسع والإرادة الشاملة والقدرة الكاملة ، وأنه سبحانه فعال لما يريد عالم بما يفعل .

وعلى هذه الصفات قامت عقيدة القضاء والقدر . فكان الإيمان بها لا ريب — جزءاً متمماً للإيمان بالله وعنصراً من حقيقته الواضحة المشرقة . نعم إن الله وسع كل شيء علماً وأحاط بكل شيء خبيراً . سواء في هيئته ديب النمل في ججورها أم وثبات الأفلاك في مداراتها ، وشمول علمه يستغرق الأمكنة على تعدادها ، والأزمنة على تطاولها ، فما تغيب عنه بقعة في المشرق أو في المغرب ، وما يغيب عنه يوم في الأزل أو الأبد ، وأحداث الحياة — وما أكثر ما يلوح في آفاق الحياة من خير وشر وبأس ورجاء وحزن وفرح — ذلك كله استوعبه العلم الإلهي عدداً وإحصاءً : « وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْفَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » وفي صفحات هذا الكتاب خطت سطور القضاء والقدر ، وعرفت مصائر الأمور ووضحت نهاياتها من شقاوة وسعادة . ولكن أنى لنا علم بذلك ؟

إنما الغيب كتاب صانه عن عيون الخلق رب العالمين



ليس يبدو منه للناس سوى صفحة الحاضر حيناً بعد حين  
ويتعلق القضاء والقدر بوقائع الحياة وأحداثها وأعمال الناس وتصرفاتهم  
على نحوين واضحين متميزين ! لسلك نحو منهما حكمه الخاص وآثاره التي  
تترتب عليه ، وبين كلا القسمين فواصل قائمة ، تجاهلها يوقع في الدين الغموض  
والاضطراب ، ولذلك سنوضح حدود كل قسم ومعالجه .

### نحن مجبورون في هذا كله

هناك أمور تحدث وتم بمحض القدرة العليا وعلى وفق المشيئة الإلهية  
وحدها ، وهي تنفذ في الناس طوعاً أو كرهاً سواء شعر بها الناس أو لم يشعروا .  
فالعقول ومقدار ما يودع فيها من ذكاء أو غباء ، والأمزجة وما يلبسها من  
هدوء أو عنف ، والأجسام وما تكون عليه من طول أو قصر وجمال أو قبح ،  
والشخصيات وما تطبع عليه من امتداد أو انكماش ، والزمان الذي تولد فيه  
والمكان الذي تحيا به ، والبيئة التي تنشأ في ظلها ، والوالدان اللذان تنحدر  
منهما ، وما تتركه الوراثة في دمك من غرائز وميول ، والحياة والموت والصحة  
والمرض والسعة والضيق ذلك ومثله لا يد للإسان فيه . فأصابع القدر وحدها  
هي التي تتحرك ظاهرة وباطنة لتوجه الحياة كما يريد صاحب الحياة « إِنْ أَلَّهَ  
لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ  
كَيْفَ يَشَاءُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

وغنى عن البيان أن شيئاً من هذا ليس محل مؤاخذه ولا موضع حساب  
وإنما لفتنا النظر إليه لتعرف أن الجنسية التي تنتمي إليها ، واللغة التي تنطق بها ،  
بل نوع التكوين الذي يوجد الإنسان عليه ذكراً أو أنثى ، هذا شيء من  
الخصائص التي لا قبل لنا بها ولا سبيل لنا إليها ، وفي مثلها يساق قول القرآن

الحكيم « وَرَبِّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ، سُبْحَانَ اللَّهِ  
وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ، وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ، وَهُوَ  
اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »  
والإيمان بهذا الضرب من القدر واجب ، والأدلة عليه متظاهرة من العقل  
والنقل ، وعلى المؤمن أن يوقن من أعماق قلبه أن هذه أمور مفروغ منها مفرقة  
على ذوبها من قديم ، قد جفت الأقلام بها فلا راد لها ! ! هذه أمور علمها  
الحق وأرادها ونفذها استقلالاً ولسنا منها في قليل ولا كثير ، وقد أحسن  
سلفنا الصالح الإيمان بها ، فكان أثرها في مسلكهم رائعاً ، وإذا علم الواحد  
منهم أن أجله مكتوب لا ينقصه الإقدام ولا يزيده الإحجام أدى واجبه على  
وجهه الأكمل وفي أذنيه دوى التوجيه الإلهي « قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ  
اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » ، ومواقع الرجوع  
إلى القضاء والتسليم لله فيما أراد كثيرة متنوعة ، وهي تعطى الرجل صلابة  
وقوة واندفاعاً ، وتملؤه عزيمة وتحملاً وجلادة .

### هنا إرادتنا حرة

أما القسم الثاني من متعلقات القضاء والقدر فهو يتصل بأعمال على عكس  
الأولى ! ونحن نشعر حين أدائها بيقظة عقولنا وحرارة ميولنا ورقابة ضمائرنا .  
فما مدى صلتنا بها ؟ وما معنى نسبة القدر إليها ؟ الخطب سهل جداً وسنجيب  
على هذا التساؤل بما يذر شبه المشوشين هباء إن شاء الله .  
إننا نحس باستقلال إرادتنا وقدرتنا فيما نباشر من أعمال تقع في دائرتيها ،  
وكان يكفي هذا الإحساس دليلاً على حريتهما لولا أن هناك من يزعم أن الإحساس  
يكذب أحياناً ! ولكننا نطمئن إلى صدق هذا الإحساس ونكذب ما يعض من



قيمته بعد أن نرجع إلى القرآن الكريم نستفتيه في ذلك ! ونحن نجد القرآن يؤكد هذا الإحساس البديهي وينوه بحرية الإرادة الإنسانية : « وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ » . ولا يخليها من المسؤولية الواضحة على ما يصدر منها : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ » . بل إن طبيعة الدين وهي التكليف والابتلاء لا تتحقق ألبتة مع استبعاد الإرادة وتقييدها .

وإيقاع الجزاء كذلك لا يتوجه ويقر إلا في هذا الجو الطلق الفسيح وليس هنا موضع سرد الآيات الشاهدة لذلك . فالقرآن كله شواهد بينات ودلائل واضحات .

فما موقف العلم الإلهي إذن من هذا النوع من أعمال الناس ؟ هو الإحاطة التامة والشمول الكامل : « عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى » ولكن كيف يتفق القول بحرية الإرادة والقول بأن أعمالنا لن تخرج عن دائرة العلم الإلهي المحيط الشامل ؟ والجواب سهل ! قف أمام مرآة مجلوة صافية وأنت عابس الوجه مقطب الجبين فاذا ترى ؟ سترى صورتك كما هي عابسة مقطبة . أي ذنب للمرآة في ذلك ؟ إن مهمتها أن تصف وأن تكشف وهي قد صدقت فيما أثبتت لك ، ولو كنت ضاحك الوجه لأثبتت لك على صفحتها خيالاً ضاحكاً لا شك فيه . كذلك صفحات العلم الإلهي ومرآيته لا تتصل بالأعمال اتصال تصريح وتجريك ولكنها اتصال انكشاف ووضوح فهي تتبع العمل ولا يتبعها العمل . غاية ما يمتاز به العلم أنه لا يكشف الحاضر فقط ولكنه يكشف كذلك الماضي والمستقبل فيرى الأشياء على ما كانت عليه وعلى ما ستكون عليه كما يراها وهي كائنة سواء بسواء ! .

بقي بعد ذلك تفسير ما قرناه من شمول الإرادة العليا ومن هيمنة القدرة العليا على الخلائق كافة فما معنى ذلك وكيف يتفق مع حرية الإرادة الإنسانية ؟؟ .

### معنى

« يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ »

الخطب في ذلك سهل كذلك ولن نذهب في بيانه إلى أبعد من كتاب الله لمن شاء أن يفهم « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟ » ونحن نجد أن إطلاق المشيئة في آية تقيده آية أخرى يذكر فيها الاختيار الإنساني صريحاً أى أن إضلال الله لشخص معناه أن هذا الشخص آثر الفنى على الرشاد فأقره الله على مراده وتم له ما يبغي لنفسه « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » .

وانظر إلى قيمة التنويه بالاتجاه البشرى المعتاد « وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ » فهل بقي غموض في إطلاق المشيئة ؟ لا ، إن معنى قوله « يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ » لا يعدو قوله « وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ، الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ » وكذلك الحال في « يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » انظر إلى قيمة الإرادة الإنسانية في قول الحق وهو يتكلم عن إرادته « قُلْ إِنْ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مِنْ أَنْبَاءٍ ، الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ » فهو يهدي إليه من أناب « إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » .

اجعل أيها القارىء هذا المصباح بين يديك وسر في نوره بين شتى السور



فإن تجد في دين الله قلقاً أو اضطراباً وإنما القلق والاضطراب في عقول الحقي وقلوب الغافلين .

وهنا قد يسأل بعض الناس عن حدود الإرادة الدنيا والعليا في الأعمال . ومع أن هذا السؤال لا مبرر له فنحن نتبرع بالإجابة عنه حتى يظهر السر في نسبة الهداية والإضلال تارة لله وتارة للإنسان . هل تعرف ما يفعله الفلاح في حقله ، إنه يلقى البذر ويتعهده بالسقى وعلى الله الإنبات والإثمار : تستطيع أن تسمى الفلاح زارعاً — وأنت صادق — لقيامه بالسبب . وتستطيع أن تسمى الحق سبحانه زارعاً لقيامه بالعمل « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ . أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ . لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا » فما للإنسان في سعيه مثل ما للفلاح في زرعه . فازرع عمرك إن شئت خيراً فإن يد القدرة سوف تنميه لك ورداً يانعاً . أو ازرعه إن شئت شراً فإن يد القدرة تنميه شوكا رائعاً « وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ » .

### كذب على دين الله

على أنه كثيراً ما يحدث أن تختلط مظاهر الجبر الإلهي بمظاهر الاختيار الإنساني في أقوال عديدة لا يريد الآن أن نضرب لها الأمثلة . وإنما نريد أن ننبه إلى أن الحساب الأخرى شبيه بالمعادلات الرياضية ! يؤخذ منه والله ثم يحاسب العبد على ما قدمت يده « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا » ولكن فربقاً من الناس زعم أن الله كتب كل شيء ثم سخر الناس في هذه الحياة لتنفيذه وجبرهم على فعل ما يفعلون وترك ما يتركون . وكان صدى هذه العقيدة الخرافية أن نسمع إلى بعض الجهلة من المتصوفين يرى المنكر أمامه فيهبز كتفيه قائلاً ( وضع العباد فيما أراد ) أو نسمع لأحد العصاة من المتبجحين

وهو يقول لك حين تنصحه : غداً يهديني الله . . . وقريب من ثرثرة هؤلاء المغفلين .  
 قول المشركين قديماً في الاعتذار عن ضلالتهم : ولو شاء الله فعل بنا غير ذلك !  
 وقد زيف القرآن هذه الأباطيل في غير موضع واحد من آياته البينات « سَيَقُولُ  
 الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ  
 كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ  
 فَتَخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ » وانظر كيف  
 يرفض القرآن هذه المكابرة الآثمة إذ لا ياتفت للرد عليها حتى لا يكون نقاشها  
 نوعاً من الاعتراف بها « وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ  
 مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ  
 مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ » وما أثر هذا البلاغ المبين عند الله  
 وعند الناس ؟ إنه أثر يقطع دار المحتجين « رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِيَلَّا  
 يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ . وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا » .

ألا فليفهم ذلك النيام ! ليفهم ذلك الشريقيون الكسالى ممن يصطنعون  
 الفلسفة والإدراك ! ليفهم ذلك الذين آتاهم الله العزيمة والقدرة فهانت عزائمهم  
 ووهت قدرهم ، وناموا في ظلال المهزومة والعار ، على حين برز في الحياة  
 أصحاب الهمم الجبارة والسبق البعيد ! ليفهم ذلك الذين ظنوا عقيدة القضاء والقدر  
 ثغرة في الإسلام ينفذون منها إلى حماه الكريم و « وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ » .

### الاعتذار بالأقدار

كثيراً ما يعتذر الإنسان عن أخطائه بتبويرها أو تبريرها ، وقد يعالج  
 الخطأ التافه بخطيئة جسيمة ، بأن يمنح إلى الكذب مثلاً ، أو إلى الجدل  
 الذي لا ينطوي إلا على الدجل .



قد يؤمر الإنسان بشيء ما ، فيثاقل عنه ويخلد إلى الأرض ولا يؤديه ، وقد يزجر عن شيء ما ، فيخضع به وينزلق إليه ، فإذا ما حدثته في صنيعه هذا لم يذكر علته الحقيقية من كسل عن الخير أو ميل إلى الشر . بل قال في صفاقة :  
ما حيلتي . ؟ إنني مقهور . . . معذور . . .

مردداً قول المشركين القدماء لما نفرهم الرسول من عبادة الأصنام  
« وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ، مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ  
إِلَّا يَخْرُصُونَ . أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ » .

إن تجاهل الإنسان لما زوده الله به من قوة وتفكير وما ذرأ في طبيعته  
من استعداد للرفعة والضعفة ، وما وهبه من حرية يتوجه بها إلى الخير أو الشر  
دون أى ضغط أو ظلم ، إن ذلك التجاهل لا ينقص فتيلًا من مسؤوليته الملقاة  
على عاتقه مهما قارنه من المسكارة والمراء .

وقد ضمنى مجلس مع نفر من أولئك الذين يرمون على القدر أنقالمهم ،  
واستمعت إلى ما تعلقوا أو تعاقبوا به من أفهام ، فوجدت أكثره أفهاماً مغلوطة  
حول ما ورد من نصوص . وإن كانت هذه الأغاليط قد راجت للأسف  
بين جماهير العامة .

لقد رفض النبي صلى الله عليه وسلم من الرجال الذين بنوا أنفسهم على  
الجهاد والعبادة أن يستريحوا ساعة باسم هذا القدر . فعن علي بن أبي طالب  
أن رسول الله طرده وفاطمة ايلا فقال : ألا تصليان ؟ فقلت : يارسول الله :  
أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا . فانصرف رسول الله حين قلت ذلك ،  
ولم يرجع إلى شيئاً — لشدة استغرابه — ثم سمعته يقول وهو مولّ يضرب  
خذه بيده : « وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا » .

إن هذه الكلمة من أبي الحسن ردت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يعجب كيف قيلت ، واثن تمشت مع طبيعة الإنسان في الجدل فليست من طبيعة رجل كعلى له في دين الله مكانته . ولعلها أثر الجهاد والكلال الذي يصيب المرء بعد ما يأوى إلى فراشه فتأتى أحكامه دون ما ينتظر منه .

وقد روى لى بعضهم قصة آدم مع موسى دليلاً على جواز الاعتذار بالقدر وهي كما رواها أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « احتج آدم وموسى فقال موسى : يا آدم أنت أبونا أخرجتنا من الجنة ! . فقال له آدم : أنت يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده . أتومنى على أمر قدره الله علىّ قبل أن يخلقنى بأربعين عاماً ؟ قال رسول الله : فحج آدم موسى ! » . وهذا الحديث لا يدل على شيء قط مما يفكر فيه المعتذرون بالقدر ، فالحديث وروايته الأخرى يشير إلى أن موسى كان يريد تحميل آدم متاعب الإنسانية كلها ، ويرجع شقاء أبنائه جميعاً إلى أكلته المسمومة من الشجرة . وقد دافع آدم عن نفسه بصدق ، فإن وجود الحياة البشرية لم يكن نتيجة طبيعية ولا عقلية لذنب آدم كان من الممكن جداً أن يعاقب آدم على خطئه بأى عقاب آخر كالتوبيخ أو الحرمان المؤقت أو غير ذلك ، أما ترتيب وجود العالم الزاخر بألامه وآماله على هذه المعصية فهذا قدر إلهى محض لم يدر بخلد آدم ولا يجوز أن يعاتب عليه ، ومن هنا حجج آدم موسى . أما مسئولية آدم الخاصة عن ذنبه الذى استغفر الله منه فلا صلة لها بهذا الحديث .

إن خطيئة آدم ليست سبباً شرعياً ولا علة عقلية لوجود العالم وانتشار الناس في القارات الكبرى يشقون ويكدحون .

ولما وهم موسى ذلك عاتبه آدم وورده إلى أن ذلك القضاء المكتوب ، فلا يجوز لأى امرئ أن يحمل الأب الأول هذه الأوزار كلها . وفي رواية



أخرى لأصحاب السنن : « قال موسى : يارب ، أرنا آدم الذى أخرجنا ونفسه من الجنة . فأراه الله أباه آدم عليه السلام . فقال : أنت أبونا آدم ؟ قال نعم . فقال : أنت الذى نفخ الله فيك من روحه ، وعلّمك الأسماء كلها ، وأمر الملائكة أن يسجدوا لك ؟ قال نعم ! قال فما حملك على أن تخرجنا ونفسك من الجنة قال آدم : فمن أنت ؟ قال أنا موسى ! . قال أنت الذى اصطفاك ربك برسالاته ؟ أنت نبيّ بنى إسرائيل الذى كلمك الله من وراء الحجاب ولم يجعل بينك وبينه رسولاً من خلقه ؟ قال : نعم ! . قال : فما وجدت أن ذلك كان فى كتاب الله قبل أن أخلق ؟ قال : بلى !! قال أفتلومنى فى شيء سبق فيه من الله القضاء قبلى ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم فخرج آدم موسى ، فخرج آدم موسى ، فخرج آدم موسى .

إن آدم يعلم — من غير مراء — أنه أخطأ حين أكل من الشجرة وقد اعترف بذلك عن صدق ، وطلب من الله المغفرة وغفر له ! .

أما أنه مصدر ما وقعت فيه البشرية كلها من عناء ، فهذا ما أنكره — وهو محق — وجعله من شئون القدر الأعلى ؛ واقتنع بذلك موسى كما رأيت ومن السخف أن نخطئ نحن ثم نسوق كلمة آدم عندهم لنا . . . على خطئنا . إن الصورة التى يرسمها الجبريون للعالم لا ترمز إلا إلى الفوضى المطلقة والخلط الشائن . ولما كان البشر — فى نظرهم — يقومون بأدوار لاخبرة لهم فيها فهم لا يفرقون بين برّ وفاجر . وإنك لتسمع فى كلام بعض الصوفية بمن يدينون بهذا المذهب الباطل تسوية بين آدم وإبليس وبين موسى وفرعون ، إذ السكل فى نظرهم مدفوع إلى عمل ما قدّر عليه أزلاً ، وليست الحياة إلا رواية يقوم أفرادها بما فرض عليهم من مواقف ، وينطقون بما لتّمّنوا من كلمات .

هذه الحياة رواية لمثل ! الليل ستر والنهار الملعب !  
وإنك لو نَقَبْتَ لرَأَيْت هذه الصورة مرتسمة في أذهان الكثيرين ،  
بعضهم يعلنها مصارحاً ، وبعضهم يطويها مستحيياً وإن كان يدين بها .  
وانهيار الدولة الإسلامية راجع إلى فشو هذه الضلالة بين الناس فشواً  
جعل المنكر يفتشر بلا نكير ، وجعل الواجبات تهمل بلا نصيح .  
وأساس الإصلاح يعتمد أول ما يعتمد على تصحيح الفهم في عقيدة  
القضاء والقدر ، حتى تعود كما كانت . . الدافع الأعظم على التضحية والقداء  
والوازع الأول على ترك الشر وفعل الخير قياماً بواجب الإنسان نحو نفسه ،  
وتنفيذاً لأوامر الله جلَّ شأنه .

أما الآيات والأحاديث التي وردت توهم بظاهاها أن الإرادة الإنسانية  
غير حرة ، فليست كما يظن الواهمون . إن هذا الفهم العجيب نضحت به  
العقول المعوجة ولم توح به نصوص الدين ، إذا قال الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ  
كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » .  
فليس إنذارهم وعدمه سواء ، لأن نفوسهم صيغت بحيث لا تقبل الحق  
من تلقاء ذاتها ، فهي أوعية للكفر برغم أوفها . كلا ، وإنما القصد صرف  
همة الرسول عن قوم طالما دعاهم وبذل جهوده لإيقاظهم من غوايتهم فأصرُّوا  
على تنكب الصراط المستقيم بمحض اختيارهم .

وقول الله تعالى : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ  
يَشَاءُ » لا يعنى أكثر من مواساة الرسول عند ما مات عمه أبو طالب كافراً ،  
وكان شديد الحرص على إيمانه . بيد أن الرجل إلى آخر لحظة من حياته آثر  
الوثنية على التوحيد مع طول مناشدة الرسول إياه أن يؤمن بالله ويدخل في دينه  
وقوله تعالى : « وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَنْبِيَاءَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِ لَمُتَذَرِينَ » .  
« وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَنْبِيَاءَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِ لَمُتَذَرِينَ » .  
« وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَنْبِيَاءَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِ لَمُتَذَرِينَ » .



لَا يَفْقَهُونَ بِهَا » معناه أن الأغبياء الشاردين عن الحق يرشحون أنفسهم لجهنم بقبائهم وشرودهم . فجاء التعبير عنهم متمشياً مع أسلوب اللغة في الأداء البليغ .  
فمثلاً يقول الأستاذ لتلامذته في الدرس مهدداً الكسالى : إن السقوط يتخير ضحاياه من كل بليد يتلاعب بالدروس ويتناسى الامتحان ، وهذا الكلام لا يساق ليراد به ظاهره أبداً .

\*\*\*

ثم إن كل فعل اختياري يتم فإنه يصح أن ينسب إلى الإنسان على أنه السبب فيه وإلى الله على أن الخالق له . فالزراعة تنسب إلى الفلاح . وتنسب إلى الله . هذا سبب البذر وذلك أساس الإيجاد وإذا أفرد الفعل في النسبة إلى الإنسان وحده أو إلى الله وحده . فإن إبراز ناحية لايعنى انعدام الأخرى .  
وإذا استصحبت هذه القاعدة معك فهمت على ضوءها آيات كثيرة من غير تشويش . على أن الفعل قد يكون من الله خلقاً ولا ينسب إليه تأدياً ألا ترى كيف طوى الفاعل في قوله : « وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا » ، وكيف أسند إبراهيم المرض لنفسه والإطعام والسقيا إلى ربه « الَّذِي هُوَ يَطْعَمُنِي وَيَسْقِينِي وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي » وكذلك فعل الخضر قال عن خرق السفينة « فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا » وقال في حفظ الكنز « فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزُهُمَا » وقد يتواضع المؤمنون فيجردون أنفسهم من كل فضل وينسبون إلى الله كل توفيق ويقولون « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ » . ومع ذلك فإن الله عز وجل يذكر لهم نشاطهم وسعيهم « وَتَوَدُّوْا أَنْ تَلَکُمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .  
وقد جاءت في القدر أحاديث شتى عن النبي صلى الله عليه وسلم توضح

ما قد يشبهه على الأنظار فيها حتى نقطع الاعتذار الباطل بها ، فمن على كنا  
 في جنازة في بقيع الفرقد فأتانا رسول الله فقمعد وقعدنا حوله ومعه مخرصة  
 فنكس وجعل ينكت بمخصرته ثم قال : « ما منكم من أحد إلا وقد كتب  
 مقعده من النار ومقعده من الجنة فقالوا يا رسول الله . أفلا تتكلم على كتابنا  
 وندع العمل ؟ قال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل  
 السعادة فيصير لعمل أهل السعادة . وأما من كان من أهل الشقاوة فيصير لعمل  
 أهل الشقاوة ثم قرأ : « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيْرُهُ  
 لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيْرُهُ لِلْعُسْرَى » .

والحديث — للبصر النافذ — لا لبس فيه . فأما أن الله عالم بما سيعمل  
 الناس في الدنيا وما يصيرون إليه في الآخرة من ثواب أو عقاب فهذا مما لا شك  
 فيه . وأما أن سبق العلم هو ما يرغم الناس على العمل بما كتب أزلا فباطل .  
 فإن العلم نور يكشف ولبس قوة ترغم . والبشر من تلقاء أنفسهم يتوجهون  
 إلى ما يريدون من أهداف . والله يتم للعبد مراده فمن زرع تفاحاً آتاه الله  
 ثمرة شهية ومن زرع شوكا جنى ما غرس والآية التي استشهد بها النبي تدل  
 أوضح دلالة على ذلك . فإن من تعلق بأسباب الخير من عطاء وتقوى وتصديق  
 أكمل الله غايته ويسره للحسنى . ومن تعلق بأسباب الشر من بخل وفجور  
 وتكذيب أتم له قصده وأملى له في غيه ويسره للعسرى وإليك حديثاً آخر  
 طالما أرجف به الجهلة يحسبون أنهم سوف ينقضون به دين الله من القواعد  
 ودين الله أقوى مما يظنون وأعلى مما يبصرون . فقد ورد عن النبي صلى الله  
 عليه وسلم « والذي لا إله إلا هو إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى  
 ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار



فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » .

وهذا الحديث إنما يصف لنا صنفين من الناس خواتيم أعمالهم تغاير مسالكهم الأولى مغايرة تامة ، وذلك ليس غريباً فيما يقع تحت حسناً من أحوال الناس ، فَرُبَّ فاسق ظل أكثر عمره مريض الاعتقادي الخليفة ثم أبصر آخر الأمر عواقب غيه فاهتدى . وَرُبَّ صالح ظل يعكف على الخيرات ثم غرته الدنيا فوقع في شرها وهوى ، ولو أن أحداً اطّلع الغيب ثم قارن بين ما يراه من أحوال هذين في مطالع حياتهما وما سطر في الكتاب عن خواتيم أعمالهما لعجب وطل استغرابه . غير أن هذه المصائر المتناقضة لم يكن للقدر السابق أثر جبرى في خطها على هذا النحو .

والتعبير في الحديث الوارد بسبق الكتاب لايعنى أكثر من دقة العلم وانضباطه ، وهو جار في هذا على أساليب المبالغة في لغة العرب ، فقد تتوقع لشخص ما نهاية معينة ، فإذا وصل إليها عبّرت عن ذلك بتعبيرين كلاهما صحيح . تقول تحقق فيه ظنى ، أو صدق فيه حكى . ولك أن تزداد تنويرها بفراستك وذكائك فتقول : إنه ما كان يستطيع أن يفعل غير ما توقعته ، أو تقول إن حكى لا يتخلف أبداً .

وكم في اللغة من تعبيرات تقوم على هذه التحويرات اللفظية المختلفة :

ومهمه مغبرة أرجاؤه كأن لون أرضه سماؤه

أى كأن لون سماءه أرضه .

وفي التشبيه المقلوب قالوا :

كأن الصباح المتألق وجه الخليفة حين يعطى .

ويقول الله تعالى مثلاً: « يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ » .  
والمعنى لا تفتننوا بالشیطان .

ومهما اختلفت التراكيب والأساليب فإن المعنى لا يخبى على اللبيب .  
ومن ثم فلا يجوز أن نهدر حريقنا في العمل وأن نلقى التبعة على القدر متعلقين  
بما لا ينبغي التعلق به .

### إجابة ساخرة ...

سألني سائل : هل الإنسان مُسَيَّرٌ أم مُخَيَّرٌ؟ فنظرت إليه في ضيق شديد .  
وقررت أن ألتوى معه في الإجابة ، كما التوى هو مع فطرته في هذا التساؤل  
وقلت له : الإنسان نوعان ؛ نوع يعيش في الشرق ، ونوع يعيش في الغرب .  
فالأول مُسَيَّرٌ ! والآخر مُخَيَّرٌ ! . فقفر الرجل فاه عن ابتسامة هي بالضبط  
نصف تناوب الكسالى والعجزة والثرثارين الذين ينتشرون في بلادنا . ثم  
قال : ما هذا الكلام ؟ إنني أسألك هل للإنسان إرادة حُرَّة وقدرة مستقلة  
يفعل بهما ما يفعل ويترك ما يترك ، أم هو مجبور ؟ فقلت له : قد أجبتك ،  
الإنسان في الغرب مستقل وفي الشرق مستعمر ، هناك له إرادة وقدرة ، وهنا  
لا شيء له !! .

فضحك أحد الظرفاء وقال هذه إجابة سياسية . فقلت : وإنها لدينية  
كذلك . . . يارجل إن القوم في الغرب شعروا بأن لهم عقولا ففكروا بها  
حتى كشفوا المسائير من بدائع الكون . وشعروا بأن لهم إرادة فصمموا  
بها حتى التقت في أيديهم مصائر الأمم وأزمت السياسات . وشعروا بأن  
لهم قدرة ، فجابوا المشارق والمغارب ، وصنعوا الروائع والعجائب . . .  
أما نحن فهذا . . . رجل من أوف الألوفا التي ترحم البلاد يأتي ليستفتي



في هذه المعضلة التي غاب عنه حلها . أله حقاً عقل حر يستطيع أن يفكر به ؟  
أله إرادة يستطيع أن يعزم بها ؟ أله قوة يستطيع أن يتحرك بها . وإلى أن  
نثبت له نحن ذلك ! سوف يبدأ فيفكر ثم يعزم ثم يعمل !! أما الآن فهو  
فعملاً مسيراً من ذلك الرجل المحيّر في الغرب . .

ما أبعد البون بين الشخصين .

الرجل في الغرب أُلقيَ به في تيار الحياة فعلم أن له أعضاء يستطيع أن  
يعوم بها . فظل يسبح مع التيار تارة وضده تارة أخرى ، حتى وصل  
إلى الشاطئ . !!

أما هنا ، فلما أُلقيَ بالرجل في معترك الأمواج ، بدأ يسائل نفسه ، هل أنا  
حيٌّ حقاً أم أنا جثة هامدة ؟ أو بتعبير المتفهمين هل أنا حرٌّ أم أعضائي مقيدة ؟  
ولسكن التيار الجارف لا ينتظر نتائج هذه السفطة فلا يلبث أن يطويه اليم  
مع الهالكين . وليس يغنى في عزائه قول الشاعر السقيه :

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له : إياك إياك أنت تبتلّ بالماء

اعمل أيها الرجل . ولا تقل هل أنا مسيرٌ أم مخير . واستغل المواهب التي  
آتاك الله . واشعر بأن لك في الحياة حقوقاً وعليك للحياة واجبات . وكفى  
كذباً على الدين وعلى الدنيا . . . !

### على هامش الأقدار

( ١ ) قد يطلق الفدر على جملة القوانين التي تضبط شئون الحياة والأحياء  
وتنتظم على أساسها ظواهر السكون وبواطنه في الأرض والسموات وما بينهما .  
فإن الله خلق الأشياء من ذرات وخلايا تخضع في كمها وكيفها لنسب دقيقة

دائمة . وتؤدى أغراض وجودها فى خط لاتضل عنه ولا تحيد : « ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » .

فالقوانين التى تعرف بها مقادير العناصر التى تكون الماء ، والقوانين التى تعرف بها أحجام الماء وضغوطه إذا تبخر أو تجلد أو انساب أو اندفع تلك كلها تقديرات الخالق التى يسير عليها ملكوته فى الكائنات كلها من غير عوج أو اضطراب : « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » ، « سبح اسمَ رَبِّكَ الأعلى ، الذى خلق فسوَّى ، والذى قدَّر فهدى » .

وقد أشار الحق إلى أن ما نشاهده من نضج الثمار واستوائها ، وتخلق الأجنة فى أرحام الأمهات ونزولها . وتكور الليل والنهار نتيجة حركة الأفلاك فى مداراتها . ذلك كله قدر حكيم ونظام مستقيم : « إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ . ذَلِكَ اللَّهُ فَالِقُ الْوُفُكُونَ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » .

( ٢ ) عدالة القدر لا تنافى التفضل والتميز أعنى أن الرجلين قد يؤديان عملاً متشابهاً . ويستحقان أجراً واحداً . ومع ذلك يعطى الله الرجلين أجرهما ثم يمنح أحدهما زيادة خاصة من لدهن ويترك الآخر . . . !!  
وقد يرتكب مخطئان ذنباً واحداً ويستحقان عقوبة مشتركة . ثم يصدر عفو عن أحدهما ويبقى الآخر رهين ذنبه !

هذه الأحكام إنما تقررها ليعرف الناس أن الله لا مستكره له ولا قيد على مشيئته فليأت العباد إلى ساحته وقلوبهم منفعة بمشاعر الرغبة والرغبة فحسب . . !



« إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ، يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » .

ومن ثم نعرف القصد من إسناد العموم إلى المشيئة العليا ثم فيما يتصل بمغفرة الذنوب « إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ . وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ . وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » .

عن ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم ، كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ! » .

أوتى أهل التوراة التوراة فعملوا بها ، حتى إذا انتصف النهار فعجزوا ، فأعطوا قيراطاً قيراطاً ...

ثم أوتى أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا إلى صلاة العصر فعجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً .

ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس ، فأعطينا قيراطين قيراطين ! فقال أهل الكتابين : أى رب : أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين ، وأعطيتنا قيراطاً قيراطاً ، ونحن كنا أكثر عملاً منهم ؟ قال الله عز وجل : « هل ظلمتكم من أجركم شيئاً ؟ قالوا : لا . قال : فهو فضلى أوتيه من أشاء » .

\*\*\*

وكم في أوضاع الحياة من تفاوت يرجع أمره إلى القدر الأعلى . هذا التفاوت بما ينطوى عليه من تفاضل هو من دعائم العمران ونظام الوجود . فمن المستحيل أن يُخلق الناس متساوين في كفاياتهم المادية والأدبية ، أو أوضاعهم الاجتماعية والسياسية أو أجزيتهم الدنيوية والأخروية . والوظائف التي تقوم بها الحياة

تحتاج إلى رءوس وأذرع وأقدام ، وهم الناس تقسم على هذه الأنحاء ليؤدي  
الاجتماع البشرى رسالته متناسقة متكاملة . وإنما يقع العيب في أعمال الناس  
إذا وضعوا رأساً موضع قدم ! وقدماً موضع رأس ! والأمة التي تصنع ذلك  
تشبه الأحق الذي يضع طرف بوشه في رجله وحذاءه على دماغه وما أكثر هذه  
الأمم في الشرق المحتلّ المحتلّ . . .

لندع هذا الآن فلسنا بصدد إصلاح اجتماعي ، ولكنا نريد لفت نظر  
إلى أن الأقدار قد توزع الأعمال والأعباء على الناس ، كما يوزع القائد جنوده  
في المعركة فيكون حظ بعضهم الوقوف في صفوف القتال الأمامية لتلقى  
الضربة الأولى ، بينما يكون حظ الآخرين نقل المؤن وكتابة الرسائل في مؤخرة  
الجبهة . . . وكلا العاملين ضروري في الميدان .

\*\*\*

على أن هذا التفاوت لا يضير قاعدة العدل في الجزاء ، ولا يعنى ألبتة  
أن القدر يببخس حقاً أو يجهل وضعاً ، فلكل امرئ عند الله حسابه الخاص  
به . وفي دائرة مازود الإنسان به من قوى ، وأتيح له من فرص ، وأحيط  
به من ظروف يكون تقدير ثوابه وعقابه . قرأت مرة أنه أقيم سباق فريد  
للطيران ، لم يكن منح الجوائز فيه للطيار الذي يصل إلى الغاية المرسومة قبل  
غيره . بل كانت تجري معادلات جبرية معقدة بين قوى الطائرات .  
وما تستطيع الآلات في حدود طاقتها أن تقطعه ، مع مراعاة حال الجو وإمكان  
الرؤية وسرعة الريح . . الخ .

ومعنى ذلك أنه قد يحدث أن تصل طائرة مسبوقه بأربع طائرات أخرى  
مثلاً ، وتعطى الجائزة الأولى لا الخامسة . . كما يظن لأول وهلة .



إن هذا السباق مثل قريب للتفاوت الشاسع بين قيم النفوس وما أودعه الله فيها من ذكاء ومقدرة ونشاط تختلف أنصبه الناس منه اختلافاً كبيراً .  
ومثل كذلك للأسلوب التي توزن به أفعالهم ، ويحكم به على جهودهم من غير افتيات أو هضم « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا . وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ » .  
إن النفوس أشبه ماتكون بمصاييح الكهرباء ، هذا يضيء بقوة خمسين شمعة ؛ والآخر بقوة مائة ، وغيرها بقوة مائتين . . فإذا أضاء المصباح ذو المائة شمعة بقوة سبعين فقط ، فهو أكثر عطلا من مصباح ذي خمسين شمعة يضيء بأربعين .

وإن كان المصباح الأول في نظر الناس أسطع من الأخير ، ما أكثر الذين وهبهم الله طاقات ضخمة وظروفاً مواتية فأضاعت نفوسهم من دينه بقدر يحسبه الناس كبيراً وهو عند الله صغير ، وما أكثر الذين وهبوا نفوساً محدودة فاستنارت بصائرهم بقدر من الإسلام يحسبه الناس هيناً وهو عند الله عظيم « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ، وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ » .

للقدر أثر عميق كما أسلفنا في تكوين الإنسان وفي مدى مايزود به من طاقة واستعداد وفي تحديد الدائرة التي يكدرح فيها مابقى حياً ، ويتوسع علماء الوراثة في إحصاء ما ينحدر إلى الإنسان من صفات كامنة أو ظاهرة ، ويرجعون أكثر مظاهر السلوك إلى ما ولد به الإنسان من ميول ونزعات .

وقد ثبت أن هناك علائق قوية بين إفراز الغدد في داخل البدن وبين اعتدال المزاج أو حدته . فنشاط الغدد الجنسية وما ترسله من « هرمونات » في الدم ، له دخل كبير في شدة مقاومة الفرد للإغراء الجنسي أو ضعفه ! !

وللمجموعة الغدد المجاورة للكلى « درنال » أثر في مقدار تهيج المرء حين يخاف أو يفض ، نظراً لما تسكبه هذه الغدد في الدم من عصارات منشطة للقلب والعضلات . . .

من أجل ذلك نلاحظ أن الأفراد يختلفون في ميولهم وانفعالاتهم وتباین مواقفهم بإزاء ما يعرض لهم من مشا كل الحياة وأعراضها ومفاتها ومباذها . لكن هذه الموروثات المعقدة لن تزيد في قوتها عن الغرائز العامة . وهذه وتلك يمكن — كما يقول علم النفس — تعديلها حتى توأم القوانين المشروعة . فبدلاً من أن يهتاج الإنسان للباطل يهتاج للحق !! أما كون هياجه عنيفاً أو خفيفاً في الحالين فأمر فطري لا يعنينا . . . وإن كنا لانفعل حسابه في تقويم أقدار الناس .

وقد نعيه اهتمامنا عند تحديد المسؤولية<sup>(١)</sup> في الذنوب المرتكبة .

\*\*\*

ويقول علم النفس إن هناك مصابين بالشذوذ<sup>(٢)</sup> في تصرفاتهم . فيهم المولع بعد درجات السلم أو قطع البلاط أو مصايح الشوارع . ومما أثر عن الأديب الانجليزي « جونسون » أنه لا يمر بحاجز خشبي إلا لمس بيده كل قائمة من قوائمه . فإذا نسي واحدة عاد إليها ليلمسها من جديد ! ومنهم من يفرغ من رؤية فأر مع أنه معروف بالشجاعة ، ومنهم من يميل إلى سرقة أشياء من نوع خاص ، مهما بلغت تفاهتها ، مع أنهم من الأغنياء المحترمين !! هذه الأمور وأشباهها تدل على أن المرء قد يسلك سلوكاً لا يقصد ، وأن فيه قوى باطنة تعمل في الخفاء .

(١) و(٢) في مبحث الإيمان والخطيئة شروح طويلة لهذه المسالك وصلاتها بحقيقة التقوى .

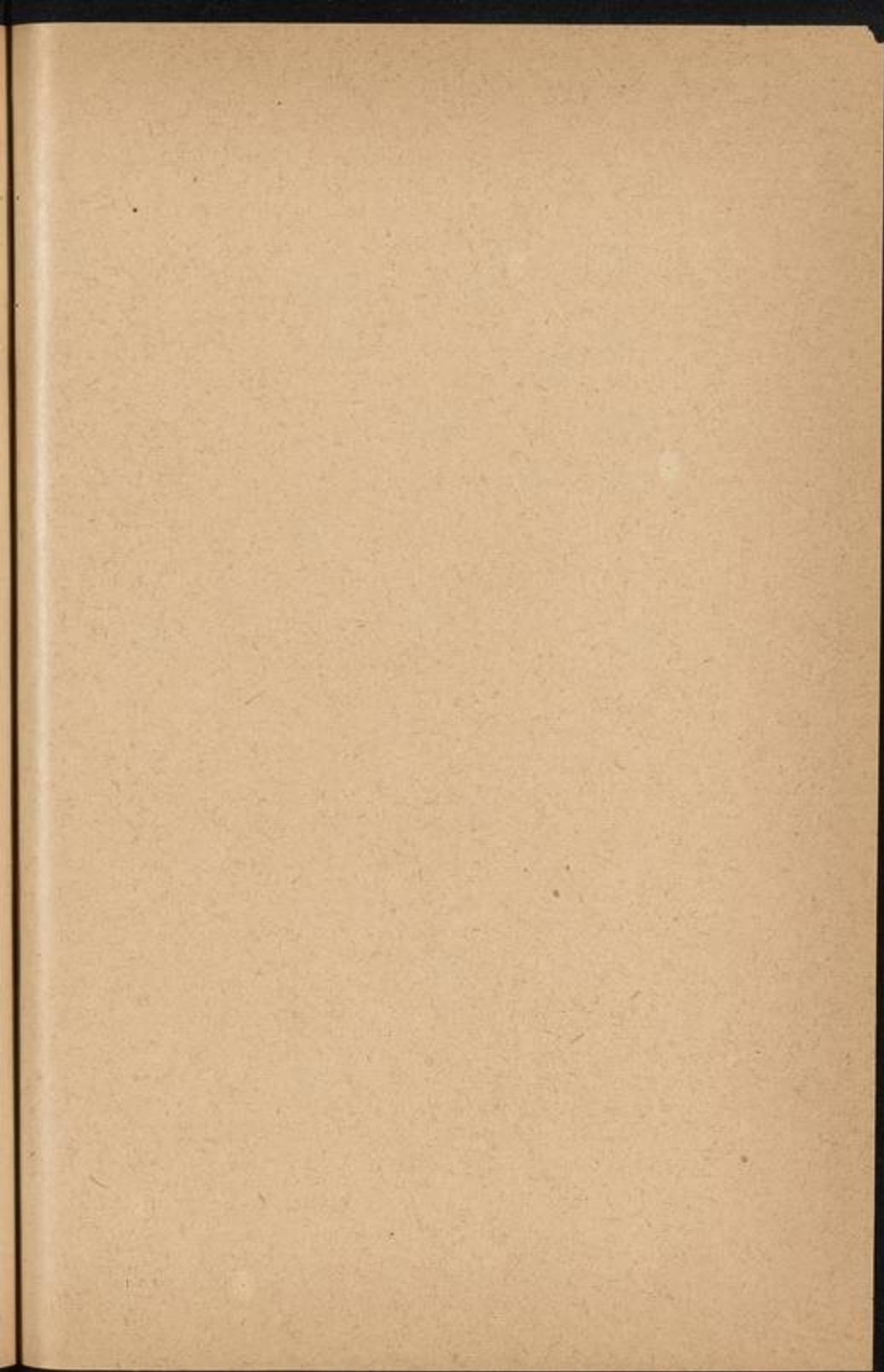


وكان القدماء يعزونها قديماً إلى التعب أو الخليل أو الألفاظ ، ولكن  
المحدثين يردونها إلى إيجاء العقل الباطن . . .

وفي مسألة تداعي المعاني يقول علم النفس : إن هذا التداعي كثيراً ما يتحكم  
فيها ويغلب إرادتنا ويوقعنا تحت تأثير ما نحب وما نكره .

ولا شك أن هناك أحوالاً من الكتابة النفسية قد تتوارد على الإنسان  
من حيث لا يدري — فتوهي من عزمه . وربما كانت أمثال هذه الحالات  
هي التي دفعت علي بن أبي طالب إلى أن يقول للنبي صلى الله عليه وسلم  
كلمته<sup>(١)</sup> السابقة . وقد رفض النبي قولها لأن قوانين الحياة العامة لا ترتبط  
بأمثال هذه الساعات الواهنة من تداعي المعاني أو تنافرهما سواء كانت في السراء  
أو في الضراء .

(١) مبحث الاعتذار بالأقدار .





(٥)

العمل أساس الإيمان

أمنت بالله ، أى عرفته معرفة بلغت حد اليقين . وأسأمت له أى خضعت  
لحكمه عن طواعية وانقياد . وكلتا الإيمان والإسلام فى نظر الشرع مترادفتان  
أو متلازمتان . حقيقة الإسلام تتضمن أداء العبادات المطلوبة . فهى تصديق  
بالله وتنفيذ لأمره . وحقيقة الإيمان تنطوى على المعرفة الصحيحة والقيام بحقوقها  
ومن ثم فعنى اليقين ملحوظ فى الإسلام ومعنى الخضوع ملحوظ فى الإيمان .  
ولا يقبل إسلام خلا عن اليقين ، كما لا يقبل إيمان مجرد عن الخضوع لله . !  
وقول الله تعالى « قَالَتِ الْأَعْرَابُ : آمَنَّا . قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ  
قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ » . فإن هذا الإسلام  
الذى ذكرته الآية ليس الدين الحق الذى عنته الآية الأخرى : « وَمَنْ يَبْتَغِ  
غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » بل هو خضوع عن قهر ونفاق .  
ولا قيمة له إلا إذا سكن الإيمان القلب واستقر فيه . .

والإيمان المعتبر ما اقترن بالسمع والطاعة ، وتطهر من الجحود والاستكبار  
عن أمر الله « وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ  
مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ، وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ » .

\*\*\*

وقد اعتبرت كلمة « الإسلام » علماً على الدين الذى جاء به صاحب  
الرسالة العظمى محمد بن عبد الله . وتعارفت الأجيال هذه الحقيقة . فإذا ذكر  
الإسلام عرف من هذا العنوان أنه الدين الذى يقوم على اتباع القرآن  
الكريم والسنة المطهرة . ويدخل فيه من شاء من بابة الرئيسى المعروف  
« كلمة التوحيد » ثم يؤدى بعد ذلك ما يفرض عليه من تكاليف شتى .



على حين توسع العرف العالمى فى كلمة « الإيمان » فهناك إيمان مسيحي وآخر يهودى ، وآخر وثنى ، وآخر شيوعى . . . الخ . وهذا العرف العام لا يفض من قيمة الحقيقة الشرعية التى ذكرناها آنفاً . . . فمتعلقات الإيمان والدائرة التى يتسع لها فى ديننا تجعله لا يصح فى نظرنا إلا إذا كان مرادفاً للإسلام أو ملازماً له . ولكن هذا العرف الشائع يؤكد أن الإسلام يرفض رفضاً حاسماً أى مسلك ينطوى على الاستهتار بالأعمال المطلوبة والتمرد على شارعها جلّ شأنه .

ولذلك نعد رفض الخضوع لله خروجاً على الإسلام ، ومروقاً عن الدين ، وهدماً للإيمان ، مهما زعم هذا الرفض من معرفة و يقين . لقد كان إبليس يعلم أن الله واحد لا شريك له ، وكان يعلم أن مصيره إليه يوم يبعثون ، بيد أنه لما صدر إليه الأمر : أن اسجد ! فقال مستكبراً جاحداً : لا . . . عُدّ كافراً ! ولم تشفع له معرفته بوحداية الله ، لأن المعرفة المجردة عن مبدأ الخضوع المطلق لرب العالمين لا وزن لها . . . والمعصية التى يقارنها هذا التمرد تخلع صاحبها من الإيمان خلعاً ، والشعور بتلك الحقيقة هو الذى جعل أبا بكر يسوى بين مانعى الزكاة وبين المرتدين برغم زعمهم أنهم مؤمنون ، فقد صدر إليهم الأمر بإيتاء الزكاة ، ففصوا وشهروا السلاح ، وآثروا القتال على دفع المال ، فساق إليهم الخليفة الأول جيوش الإسلام تفاق هاماتهم وتلحقهم بإبليس الجاحد المستكبر . !

وهذا الحكم يسرى فى جميع الأحوال المشابهة ، فإن التأبى عن قبول أمر الله والهزء بالفرائض التى أوجبها ، والفخر بالجرمات التى زجر عنها لا يمكن أن يوصف بأنه خضوع وإسلام ، إلا إذا كانت أحوال الجهال تسمى علماً ، وأحوال الكذابين تسمى صدقاً ! .

وقد ذهل بعض المصنفين في الفقه عن هذا الأصل الراسخ فأفتوا بأن  
المتنع عن الصلاة حتى يُقتل يُقتل حَدًّا ، ولا يسمى مرتدًّا وهذا غلط ، فإن  
الذي يؤثر أن يقتل على أن يُصَلِّيَ لادين له ، فكيف يحسب من المسلمين ؟ .  
أما صلة الإيمان بالأعمال كما فصلت في القرآن والسنة فسنشرحها بعد .

## الإيمان والعمل

صلة الإيمان بالعمل كصلة الخلق بالسلوك ، فإذا آمن الإنسان بالله العظيم  
وأيقن باليوم الآخر ، وصدَّق بما جاء به المرسلون ، دفعه ذلك لاجتهاد إلى  
استرضاء ربه ، والاستعداد للقائه ، والاستقامة على صراطه ، كما أن الشجاع  
في ميادين الخطر يقدم ، والكريم في مواطن البذل ينفق ، والصادق في أداء  
الحديث يتحرى الحق . . . إلخ

وعسير بل مستحيل أن يهبط الإنسان بحقيقة الدين عن هذا المستوى ،  
أو أن يفهم من كتاب الله وسنة رسوله ما يغير ذلك . بيد أن أعداء الإسلام  
— وقد عجزوا عن هزيمته في ساحات القتال — لم تعيهم الحيل لسحقه في عقر  
داره ، ففسدوا على المسلمين من بصورهم الإسلام كلمة لا تكاليف لها وأماناً  
لاعمل معها ! . وفي ظل هذا الفهم المعوج ترى المسلم واليهودي والقبطي  
يتعاشرون سنين عددا ، فلا تستطيع أن تميز أحدهم من الآخر في شيء ،  
الكل لا يدخل مسجداً ولا يقيم فريضة ولا يحترم الله شعيرة . . . والكل يشرب  
الخمر ويأكل الربا ، ويفجر بالأعراض . وغاية ما بينهم من فوارق أن اليهودي  
يقدم يوم السبت ، وقد يذهب المسيحي إلى كنيسة خلسة . أما ذلك المسلم  
المزعوم فليس يربطه بالإسلام إلا اسم سجل في شهادة الميلاد فحسب .  
والمؤسف أن أقواماً — من أهل العلم الديني — لا يكثرئون بذلك فالمرء



إذا نغم بين شفقه بكلمة التوحيد ! تحسن وراءها فأصبح بسيراً عليه ألا يقوم إلى واجب وألا يفتى عن محرم . وقد زعم هؤلاء المغفلون أن الدين ينص على ذلك ! الأساء ما يصنعون .

ولو فرضنا أن حزباً ما تقدم إلى الناس وقد أضاف إلى جملة المواد التي تبين للجاهير منهاجه وتوضح أغراضه ، مادة أخرى تصرح أو تلمح بأن لكل منتمٍ للحزب ألا يعمل بمبادئه وألا يتقيد بتعاليمه ، لقال الناس أجمعون : هذا هو العبث والمجون ! .

فكيف تهم الإسلام بأنه يحمل في ثناياه ما يهدمه ؟ وكيف ننطلق إلى نصوصه نبعث بينها عن (المادة) التي تبيح الخروج عليه واللعب به ؟ وكيف ندعى أن الأعمال أمر كالمى بحت ، لا يضير نقصانه ؟ . أولئك هم الحمقى الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا . وعلى رؤوسهم يقع التفريط الهائل في إقامة حدود الله وأداء فرائضه . وما أصاب المسلمين من كوارث ونكبات عند ما فهموا دينهم على ذلك النحو الأبتى .

أمة تعتبر العمل من (الكليات) الخفيفة كيف يقوم لها دين ؟ أو تقوم بها دنيا ؟ إن الله عز وجل جعل العمل رسالة الوجود ووظيفة الأحياء وجعل السباق في إحسانه سر الخليقة ودعامة الحساب « الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ » وما من آية في كتاب الله ذكرت الإيمان مجرداً بل عطفت عليه عمل الصالحات أو تقوى الله أو الإسلام له بحيث أصبحت صلة العمل بالإيمان آصرة لا يعرفها وهن . فإذا عقدت مقارنة بين الهدى والضلال ، جعل الإيمان والعمل جميعاً في كفة ، وجعل الكفر في الكفة الأخرى « وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءِ » وكثيراً ما يشار إلى الإسلام وحقيقته الشاملة بمظاهر عملية واضحة محدودة « فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكَّ رَقَبَةً أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَدِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مَسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ » .  
 بل إن العلامة التي ينصّبها القرآن دليلاً على فراغ النفس من العقيدة وخراب القلب من الإيمان هي في النكوص عن القيام ببعض الأعمال الصالحة « أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ . فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ . وَلَا يُحِضُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ » ، وقد ينظر إلى الإيمان على أنه وصف يلحق الأعمال ويطراً على السلوك الإنساني المعتاد فيصلحه ويصله بالله ، فيذكر العمل أولاً كما هي مرتبة وجوده ، ثم يذكر الإيمان ثانياً على أنه شرط صحته وقبوله « فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ » . ثم ما الذي يوزن في الدار الآخرة ؟ . أليست الأعمال التي تميل بالإنسان إلى النعيم أو الجحيم أم الدعاوى والمزاعم ؟ « وَالْوِزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ » .

\*\*\*

إننا نعرف تاريخ أمة هلكت بسوء عملها . ونعرف أن الله نقم على قوم لوط مثلاً ارتكابهم الفاحشة ، وعلى قوم شعيب مثلاً بخسهم المكيال والميزان ، وقد عرفنا مصائر أولئك الفاسقين ، فهل أمتنا وحدها هي التي تريد أن ترتكب السيئات دون حذر أو وجل ؟ .

ليس الإسلام بدءاً من الشرائع السابقة فيوجب الإيمان دون العمل ، بل إن القرآن الكريم ليقتص علينا عبر السابقين لتنعظ منها ، ثم لنسمع قول



الله بعد ذلك « وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ ، لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا . كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ . . . ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » .

هكذا نمتحن وتراقب تصرفاتنا ، ويكلفنا الله بالإيمان والعمل جميعاً ، ثم ينظر وفاءنا بما حملنا من أعباءه ، وقد خاطب الله أبناء آدم قاطبة بهذه الحقيقة السافرة ، وأفهمهم في جلاء وقوة أن نجاتهم في الصلاح والتقوى ، لا في النفاق والدعوى « يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رِسَالٌ مِنْكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ آتَى وَأُصْلِحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

وعند ما اهتدى أولو الألباب إلى الحق ، وأعلنوا إيمانهم بالله وهتفوا : « رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمَنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا » ، وعندما تضرعوا يطلبون من الرحمن أن يصفح عن زلاتهم : « رَبَّنَا فَاعْفُرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ » وعندما تطلعوا إلى النصر والتمكين في الأرض والنور والرضوان في الآخرة : « رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . . مع هذه الحرارة في الدعاء والإخلاص في التوجه ، أعلن الحق أن استجابته مقرونة بالعمل وحده ! وأن الكلام فحسب لا يروج عنده ! وأن تحقيق هذا الرجاء مرهون بجهاد وتضحيات وتكاليف : « فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكرٍ أو أنثى بعضهم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا ،

لأَكْفَرْنَ عَنْهُمْ سِتَانِهِمْ وَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» .  
إن النصوص الهادية إلى تلازم الإيمان والعمل كثيرة ، يزخر بها القرآن  
وتستفيض بها السنة ، تقر الحق في نصابه وترسم لكل مسلم غاية ، وتخط له  
مكاتبه ، وتقرع الآذان بذلك الأمر الحاسم : « اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ  
وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ . وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ  
تَعْمَلُونَ » .

### لا يعلمون الكتاب إلا أمانى

ومن الناس من وقع على نصوص لم يفهمها ، وحاول أن يشغب بها على  
القواعد المقررة . وكم تدور على السنة العامة أحاديث شتى ، مثل ما رواه أنس  
أن النبي صلى الله عليه وسلم ومعاذ رديفه على الرحل قال : يا معاذ قال : لبيك  
يا رسول الله وسعديك ثلاثاً : قال : ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً  
رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار . قال : يا رسول الله أفلا أخبر  
به الناس فيستبشروا ؟ قال : إذن يتكلموا !! وأخبر به معاذ عند موته تأتماً «  
بهذا الحديث وأمثاله تتعلق العامة في نقض بناء الإسلام وهدم أركانه  
والتهمين من خطر العمل وآثاره .. وهو تعلق باطل مردود . قال الحافظ المنذرى :  
« ذهب طوائف من أساطين أهل العلم إلى أن مثل هذه الإطلاقات التي  
وردت فيمن قال لا إله إلا الله دخل الجنة أو حرم على النار أو نحو ذلك ،  
إنما كان في ابتداء الإسلام حين كانت الدعوة إلى مجرد الإقرار بالتوحيد ،  
فلما فرضت الفرائض وحدت الحدود نسخ ذلك . والدلائل على هذا كثيرة متظاهرة .  
وإلى هذا القول ذهب الضحاك والزهرى وسفيان الثوري وغيرهم . . وقالت  
طائفة أخرى : لا احتياج إلى ادعاء النسخ في ذلك ، فإن كل ما هو من أركان



الدين وفرائض الإسلام هو من لوازم الإقرار بالشهادتين وتتماته . فإذا أقر ثم امتنع عن شيء من الفرائض جحداً أو تمهاوناً على تفصيل الخلاف فيه حكمتنا عليه بالكفر وعدم دخول الجنة » .

وذكر المنذرى أقوالاً أخرى تتفق كليهما على أن ظواهر هذه الأحاديث غير مراد ، وكيف يعتد بظواهرها مع ورود مئات النصوص الأخرى من الكتاب والسنة تربط الإيمان أوثق رباط بأعمال معينة ! ! والواقع أن ما أجمل في نص يفصل في نص آخر ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس — مشركي العرب — حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة . فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله » . فهذا الحديث أحصى أعمالاً لم تذكر في حديث النطق بالشهادتين ، وهو تفسير لقول الله تعالى : « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين » ، وقوله من قبل : « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين » ، وهو تفسير لقول الله تعالى : « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين » ، وقوله من قبل : « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين » .

إن النطق بالشهادتين بداية لما بعده من اعتقاد وعمل ، لا ما تحسبه الأبصار الكليية والمهم القاصرة من أن مجرد النطق فيه الكفاية والغناء .

وحروف هذه الكلمة — كلمة التوحيد — منافذ تفضى بالإنسان إلى ساحات رحبية وآفاق ممتدة ، يشرب القلب فيها حقيقة التوحيد الخالص كلما سجد لبارئته وبادر إلى مرضاته ونفر من مساخطه ، وأدى الواجب وترك المحرم . وأدران الشرك ليست كلمة تلوث الفم وحده حتى تطهرها كلمة مقابلة ينطق بها الفم ، ولكن الشرك توجه الفؤاد لما دون الله ، وعمل الجوارح لغير الله . فإذا لم يسيطر التوحيد على القلب والجوارح ويتحول قوة باعثة إلى العمل الصالح فلا قيمة له ! ! إن كلمة التوحيد حصانة البشرية من الخنوع

للآلهة المزيفة ، وهذه الآلهة ليست حجراً منحوتاً فحسب ، بل كل ما يقطع صلة الإرادة الإنسانية بالله ويربطها بغيره رباط الخوف والرجاء والرغبة والرهبنة والألم والأمل فهو ذريعة للشرك ، وهناك ألوف مزقت المعاصي صلتهم بالله شرمزق ، وظلت أهواؤهم يجمع بهم بعيداً عن الله ، حتى نسوا الله أنهم نسيان فلو قارنت بين ضمائرهم وضمائر أهل الجاهلية الأولى ما وجدت فارقاً بين وجود ووجود وكنود وكنود !! إلا أن هؤلاء نطقوا بكلمة التوحيد ولم يفهموها ، وأولئك فهموها ولم ينطقوا بها . . .

إن البشرية - بفطرتها - تخلق في أجواء مشرقة من توحيد الله . فإذا علقت بها حبايل الشيطان ورائت عليها أبقال الشهوة وزهدت في السماء ونظرت إلى الأرض ، ظلت تهبط وتهبط ، وتسقط دون فضل الله وتسقط ، حتى تصل إلى الحضيض : « وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ » .

ما كانت كلمة التوحيد نبتاً مشلولاً في تربة خبيثة ، ولكنها نبت تمتد أصوله في القلب الخصب ، وتظهر آثاره ظلالات واورقة وثمرات شهية . تظهر أعمالاً طلبها الإسلام وأكدها ، وربط وجوده بنائها ووفرتها : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » .

وهذه الكلمة أعلى عند الله قدراً وأعلى شأنًا من أن يستغلها منافق أو ائوب ، فالرجل العقيم من الأعمال لا تنفعه دعواه ولا يغني عنه إيمان منتحل : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَلَيْسَ لَهُ يَوْمَ الْآخِرِ . وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ »



فإذا دلت أعمال المرء على باطن خبيث ، وتبين نكوصه عن تحمل المسئوليات وتفقدناه في المواطن التي لا يتخلف عنها مؤمن فلم نقف له على أثر ، بل وجدناه يرحم أسواق الشيطان ويحالف بأفعاله أعداء الإسلام فحقيق بنا أن نرفض هذا الإيمان ، ولو حلف صاحبه على صحته : « وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيْمَانَهُمْ لِمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ، لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَعَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ » .

ولما كان الإسلام قد قرر ما ينبغي عمله في كافة الشؤون المتصلة بنواحي الحياة من أحكام ومعاملات وأخلاق ، فإن موقف المؤمنين تجاه ذلك واحد لا يتغير ، هو الخضوع المطلق ، فإذا انكشف الغطاء عن غير ذلك وتبين من ضلال السلوك ضلال القلب ، فإن الإيمان زعم باطل ، وبهذا المقياس فضح الله طوائف المناقنين الأولين . وبه كذلك نفضح أشباههم اليوم .

أعرف في إحدى المدن مصنعين للنسيج يدير الأول أجنبي يخشى الاتهام بالتعصب فهو يأذن لعماله أن ينصرفوا ساعة لصلاة الجمعة . أما الآخر — ويديره مسلم بالوراثة — فهو باسم إسلامه الدعى لا يخشى هذا الاتهام ، فهو يرضن على العمال بالوقت الذى سمح به الأجنبي للصلاة ! ولعلك إذا جادته في هذا الصد عن سبيل الله تطاول على الصلاة والمصلين ناسباً إليهم كل رذيلة . . أفنتل هذا الوغد الذى لا يكثر بشعائر الإسلام يسلك في عداد المؤمنين ؟ . وقد تسمع أحدهم يذكر تشريعات الإسلام فيسلقها بلسان حاد ، وقد يتناولها ويتناول أنصارها بالسخرية ، إن إجماع العلماء منعقد على طرد هؤلاء من حظيرة الإسلام ، وينبغي أن نسارع بغرلة الأمة الإسلامية ، حتى ينقى خبثها ويعزل سقطها ، ويمتاز فيها المسلمون من المجرمين والملحدن .

## في ميدان التربية

هذه أحاديث تطيش فيها أفكار العامة . وينبغي أن نقف قليلا لديها حتى نشرح ملاساتها ونذكر المعنى المقصود منها .  
والأحاديث في العفو والعقاب ، والخطيئة والمتاب .  
وماذا نصنع إذا كانت الأمة مُبتلاة بمن يهون لديها بشاعة الأخطاء ، وفظاعة الجرائم ، مستنداً إلى نصوص لم يفهمها ، وراكفاً إلى رحمة لم يتبها لها .  
وفساد الحضارات الدينية يرجع إلى تكوّن أخلاف من الناس يُجرّ قون الكلم عن مواضعه ، ويخلطون خلطاً شائناً في تطبيق أحكام الشريعة على أعمال الجوارح وخطرات القلوب ، ويريدون أن يرتكبوا آثام الملعدين ، وينالوا جزاء الأوابين .

وقد عاب القرآن الكريم على اليهود وأعقابهم هذا المسلك الطائش ، فذكر إقبالهم على دنيا الحياة ، وارتباطهم بأعراضها الفانية ، ثم آملهم الجريمة في نعيم الآخرة — مع ذلك — ثم زعمهم أنهم بهذه السيرة الحفيرة مستقيمون مع منطلق التوراة وهدى موسى — وهذا هو الأدهى — . ذكر القرآن صورة ذلك ووضعها أمام أعيننا ماثلة : « فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ، يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه ؟ »  
ثم أبان الله لهم — سبحانه — أن للمصلحين أجرهم الذي لا يضيع ، وأن عناصر هذا الإصلاح هي في التمسك الحق بالكتب السماوية وما تأمره به من عبادة وتقول ، ومن ثم قال : « والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين » .



ولكن أين تمسك المتدينين بكتبهم ؟ بل أين نزول المسلمين على هدى قرآنهم ؟ . إن جرائم القتل التي تقع بوادينا المسلم ( !! ) تزيد على ما يقع في نصف قرن يبذل كفنلندا لا يعرف الإسلام ولا غيره من الأديان .

وعلى هذا المهرج كثيرة ، ولكن نفتيت الصلة بين الإيمان والعمل وقطع التلازم بين الجريمة والعقاب وسوق نصوص الرجاء للعاطلين ووضع الندى موضع السيف ، ذلك كله في مقدمة الأسباب التي جرت على الحضارات الدينية هذا الفساد ، وجعل بعض الحضارات الأخرى ترجحها في ناحية ما . أما الأحاديث التي يغلط العامة في فهمها فقبل أن أسردها أذكر هذا المثل للدكتور عبد العزيز إسماعيل قال : « شخص يخاف ربه ويطيع أوامره ، لكن حدث له أن وقع مرة تحت تأثير انفعالات نفسانية شديدة أضع معها رشده . . فارتكب جريمة قتل . . فلما تاب إليه رشده ندم على فعلته . . فهذا الرجل ارتكب الجريمة بجوارحه فقط ، ولم يقتل بصميره ، فقد ثبت طبيياً أن الانفعالات الشديدة تحدث زيادة إفرازات في بعض الغدد السماء تؤثر على ضغط الدم وعلى المخ ، وقد تحدث تشنجاً عصبياً أو شللاً وقتياً في قوة الإدراك ( غيبوبة ) يأتي الشخص في أثناءها من الأفعال ما يستنكره في حالته العادية » هذه الخطيئة يظهر فيها قهر القدر الغالب ، وتشخيص حقيقتها من طبيب مختص يفسر لنا مدى المسؤولية الأخروية عليها ، وفيها وفيما يجري على نسقها من أخطاء يصح أن يفسر قول النبي صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » .

ليس هذا الحديث دعوة عامة إلى ارتكاب الخطايا . ولا هو تقرير لبيان حكمة الوجود بأنه فعل السيئات ، فإن الله في كتابه أظهر لنا الحكمة العليا من وجودنا فقال : « ليلوكم أيكم أحسن عملاً » وقال النبي شرحاً للآية

« أيكم أحسن عقلا ، وأروع من محارم الله ، وأسرع في طاعة الله » .  
الحديث في الحقيقة تعليق على الموجات النفسية التي تجرف في تيارها  
أبناء آدم وتضع عزائمهم - مهما قويت - أمام عواصف القدر المحتاجة ،  
فإذا بها تصبح هباء منثورا ، فإذا خرج امرؤ من غمراتها وفي رأسه من عماتها  
دوار ، استمع إلى هذا الحديث : « لو لم تذببوا . . . » كما يستمع المحزون  
إلى كلمة عزاء .

والحديث مبتوت الصلة بمسلك السفلة ومعتادى الإجمام ، ونحن نحتاج  
إلى هذا التوجيه النبوي الكريم في علاجنا لعثرات الشباب ووقوعهم المتكرر  
في مآزق الغريزة الجنسية . . فكم لنشاط الغدد من آثار خطيرة ! تسكب  
إحدى الغدد إفرازها دافقا في الدم المهتاج ، فإذا بالرجل لا يكاد يقوم حتى  
يكبو ، وكأنما يريد ربك أن يجعل من الإنسان العملاق عبداً كبير الجناح  
أمام جبار السموات والأرض ، وحتى تكون آمال الإنسان أعلق بانتظار  
الغفو والتوفيق منها بتقديم الأعمال وشتى الطاعات . . . وقما يحدث ذلك  
إلا لذوى المواهب والملكات ممن يخشى عليهم الغرور بطاقتهم الواسعة ، لولا  
ما يعرض لهم من غلطات ، ويقعون فيه من سيئات .

ومن هذا التحديد تدرك سر قول النبي صلى الله عليه وسلم : « كتب على  
ابن آدم نصيبه من الزنا ، مدرك ذلك لا محالة . . . العينان زناها النظر ،  
والأذنان زناها الاستماع ، واللسان زناه الكلام ، واليد زناها البطش ، والرجل  
زناها الخطا ، والقلب يهوى ويتمنى . . ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه » .  
هذا الذي كتب هو لوثات الغريزة في جماحها الطاغى ، ومدى غفو الله  
في هذا مربوط بما خرج عن دائرة المجاهدة والتطلع إلى الكمال ، أى أن  
الشاب مكلف ببذل جهده كله في محاربة الجريمة والبعد عن مغريات ومثيراتها ،



فإذا حدثت مضاعفات فوق الحسبان شردت بالمؤمن عما التزمه كالساجح الذي يضرب بيديه في اللجة ، ويدفع صدره إلى الأمام ، ويستهدف الوصول إلى الشاطئ في بأس وعزيمة . ثم يظهر له أن جهده يذهب سدى ، لأن التيار ضده ، فهو مهما بذل لا يعدو مكانه . عندما يحاط بامرئ ما في أوضاع الحياة على هذا النحو ، يساق هذا الحديث لا لتبوير الخطأ ، ولكن لتيسير الخلاص منه . . . ومنع الارتكاس فيه ، ثم توجه الإرادة البشرية عندئذ إلى العبادات الإيجابية ، ففيها الدواء لما أصابها من فشل في العبادات السلبية : « أقم الصلاة للذاكرين » وأبواب الأمل في الخير إن حاول الشيطان سدها من ناحية فتحت من ناحية أخرى ، ولذلك قال : « واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » والحق أن فعل الصالحات ليس علاجاً فقط للفشل في ترك السيئات ، بل هو الطريق الوحيد للنجاح في تركها والتطهر من أدرانها ، مهما عز ذلك أول الأمر وتلك آية الإيمان ، أما أن نرى قوماً يفعلون الشر ، ويتركون الخير ويزعمون الإسلام فهم كذابون ، وليس في الحديث الآنف ما يصحح إيمانهم . وهذا حديث آخر ذكره أحد الجهال في تهوين قيمة العمل ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال رجل : والله لا يغفر الله لفلان .. وأن الله تعالى قال من ذا الذي يتألى على أن لا أغفر لفلان ؟ فإني قد غفرت وأحببت عملك » والحديث صحيح رواه مسلم . وأخرج أبو داود مثله ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كان مع بنى إسرائيل رجلان متواخيان أحدهما مذب والآخر في العبادة مجتهد ، فكان المجتهد لا يزال يلقي الآخر على ذنب فيقول له : اقصر ، فقال خلني وربى أبعثت على رقيبا ؟ فقال له : والله لا يغفر الله لك ، أو قال لا يدخلك الجنة قبض الله أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين ، فقال الرب تعالى للمجتهد أ كنت على ما في يدي قادرا ؟ وقال للمذب : اذهب فادخل الجنة برحمتي وقال للآخر اذهبوا به إلى النار . »

هذا الحديث نظر إليه العلماء ففهموا منه المعنى الوحيد الذى يفهم منه ، وهو أن الرجل المستكبر بطاعته أبعاد عن الله من الرجل المستخذى بمعصيته . . . وهذا حق فهناك ممن يلبسون مسوح الدين رجال يحسبون أنهم ببعض صلوات أقاموها قد شاركوا الله فى تقرير مصير العباد ، وأنهم يحملون معه مفاتيح الجنة والنار ، وقد رأيت كثيرين من المتصعلكين فى الأندية الدينية تنطوى نفوسهم على هذه الجهالة ، وتعوزهم مشاعر الرقة والتواضع ، والحديث المذكور قمع لتطاول هؤلاء .

ومن بقايا المسيحية اليوم قد تجدد إنسانا كبير القلب لأنه أخطأ يذهب إلى راهب فى الكنيسة ليقوم بمراسيم الاعتراف الشائعة عندهم ، ولو غصت فى أغوار هذا وذلك لوجدت نفسية الخطيء أقرب إلى الكمال الإنسانى من نفسية الراهب الذى سيمنحه المغفرة وهو مدل مختال .

وإننى فى تجاربي الكثيرة ما أزال أشكو قسوة القلب وخلال الفظاظة التى أجدها فى مسالك بعض المنسولين إلى الدين ، على عكس ما يلحظه المرء أحيانا من تأدب وسماحة فى سير بعض الذين لما يهتدوا بعد إلى مافى الدين من حق وخير وجمال . . . ويستحيل أن يكون الحديث المذكور مناقضاً لقول الله فى كتابه : « إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم ، أفجعل المسالمين كالجرمين مالكم كيف تحكمون أم لكم كتاب فيه تدرسون ؟ إن لكم فيه لما تخيرون !! أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون سلمهم : أيهم ذلك زعيم ! » .

ونحن نسأل الجهال العابثين بالنصوص : كيف جاز لهم أن يقطعوا صلة الإيمان بالعمل والخطيئة بالعقاب لحجب غطت على عيونهم فلم تر الصواب ولم تفقه الكتاب .



(٦)

الخطيئة والمتاب

## الإيمان والخطيئة

ما ذكرناه من تلازم الإيمان والعمل لا يعني أن الإيمان يقتضى العصمة . فإن المؤمن قد يخطئ ، وما يقع فيه المؤمن من خطأ أو خطيئة لا يسلخه من الدين . ولا بد من بيان مفصل نضم به أطراف هذا الموضوع .

عندما يكون المرء وثيق الإيمان كثير الطاعات طويل المراقبة لله فإن أخطائه تقل لا محالة . وما قد ينزلق إليه من سيئات يعتبر غريباً على حياته غرابة الشذوذ بالنسبة إلى القاعدة . وطبيعة الخطأ من رجل هذه حاله تجعل لسيئته صفة خاصة ، فهو لا يقصدها ولا يستريح إليها ولا يستقر عليها كالسائر في طريق ما إلى هدفه لا يفكر إلا في أعماله وآماله ، فإذا بقدمه تحبط في حفرة غير منظورة أو تمر بقشرة فأكهة ملقاة فإذا بالمسكين يهتز ويضطرب ويهوى إلى الأرض . إنه ينجل من سقطته ، ويقوم منها شديد الضيق والسخط ! !

كذلك قد تنزل قدم المؤمن وهو سائر في طريقه إلى الله فيعلم بعمل لا ينبغي منه ، ثم لا يكاد يتورط فيه حتى ينزع عنه وهو بادى الألم عميق الحسرة ... هذه السيئات لا تصم سيرة المؤمن ولا تهدم شخصيته . وهى من قبيل « لكل جواد كبوة ، ولكل صارم نبوة » .

ولما كانت خليقة الإنسان مزدوجة ، يلتقى فيها عنصران أحدهما من السماء والآخر من الأرض . فإن آثار هذا الاختلاط تبدو في سلوك الإنسان ، وليس يستغرب على طبيعته أن تخلد إلى الأرض لحظة ما . ومن ثم جعل الله سبحانه وتعالى دائرة عفوه تتسع لهذه السقطات : « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة » . وعلل هذا العفو الكريم



بقوله : « هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ » قال الشاعر :

ولابد من أن ينزع المرء مرة إلى الحما المسنون ضربة لازب

على أن هذه المزالق كما قلنا تعترى الإنسان وهو في طريقه إلى ربه يؤدى واجبه ويقيم حقوقه ، ويتحرى رضوانه . وما يصاحب هذا اللطم من ألم ، وما يسبقه من غفلة ، وما يعقبه من دهشة وغصة . . ذلك كله يكشف سواده ويخفف عواقبه ، وحسب صاحبه من عقاب ، دوى هذه السقطات في نفسه وإسراعه بالإجابة إلى الله يجأ بالدعاء !! وفي مثل هذه الحالات يساق قوله تعالى : « والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويمجز بهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون » ، « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرنَّ عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون » .

والمعنون بتربية النفوس وتزكية السرائر لا يحبون أن يقفوا طويلا عند هذه العثرات العارضة . وهمهم أن يأخذوا بيد السكابي لكي يستطيع النهوض ويستأنف المسير ، ويقبل على واجباته بنشاطه القديم أو أشد رغبة . وتهويهم من هذه السيئات المقرفة لأن هذه السيئات تافهة أو مستحسنة بل ليخلصوا المذنب من آثارها ويفكوه من آصارها ، ويمنعوه من الارتكاس فيها والانكباب عليها . وذلك أخطر ما يتوقع ، وأول ما يباذر الشرع منه . وفي مثل هذه الحالات يساق قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكى عن ربه عز وجل قال : أذنب عبد فقال : اللهم اغفر لي ذنبي . فقال الله عز وجل : أذنب عبدى ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب . . ثم عاد فأذنب . فقال : أى رب اغفر لي ذنبي . . فقال الله تعالى : أذنب عبدى ذنباً وعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب . . ثم عاد فأذنب ! فقال : يا رب اغفر لي !!

فقال الله تعالى : أذنب عبدي فعلم أن له رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ ،  
اعمل ما شئت فقد غفرت لك » .

هذا الحديث وأمثاله مما يفتح مصاريع التوبة على كثرة العثار هو فيمن  
قدمنا من الناس ، والمراد منه حفز الهمم إلى الصالحات ، والتقصي عن دائرة  
الجريمة مهما حدث من الإنسان ، ورفع أنظار البشر إلى أعلى كلما نكسها  
الشیطان . . وليس المراد منه ألبته ما يفهمه سفهاء العامة من تحقير الجرائم ،  
وتهوين السيئات ، وإغراء العصاة بالجرأة على المخالفات ، واستباحة الحرمات .  
فهذا المعنى نقض لحقيقة الرسالة الهادية ، وتجاهل وقح لآلاف الأحاديث المرهبة  
عن ارتكاب الذنوب ، والتفريط في الأعمال الصالحة بناء عن فهم معوج  
لهذه الأحاديث هو ضلال مبين . . !

وليست اخطايا كلها من هذا القبيل ، ولا الذين يقعون فيها جميعاً من هذا  
الصف ، فهناك حالات من البرق والسفاهة تغوى ذوبها بارتكاب الدنيا .  
وقد لا ينزعون منها على عجل . على أن الإيمان في نفوس هؤلاء يعانى لاريب  
أزمات عنيفة ، وبقاؤه أو انتهاءه مرهون بمدى ما يصل إليه العاصي من بعد  
عن الله واستمراء للخطايا . ومهما عصى المسلم فهو بين توبة سريعة تطهره  
أو توبة مضمرة يستقيم إليها ويرتبط بالإسلام على أساسها . !

ومصائر أولئك الذين يتدنسون بالمعاصي ويرجئون المتاب منها . . — مع  
الإحساس بالخرى وتوقع العقاب — مجهولة ! لأن إلحاح المعاصي على القلب  
قد يزهق الإيمان ويرد المسلم إلى الكفران . كما يلح المرض الخبيث على  
الجسم فينزع منه الروح ويتركه جثة بالية . وأياً ما كان الأمر فإن رباط العاصي  
بالإيمان واه . . ونستطيع أن نقول : إنه باق إلا يوم يقترف الجريمة مفتخراً  
أو يترك الفريضة مستهزئاً ، فإنه يومئذ ينسلخ عن الإسلام ويحكم بارتداده . .



وليس يتصور في مؤمن هذا . فإن المؤمن إذا لم يكن ذا عزيمة في الخير فلن يكون ذا عزيمة في الشر تجعله يبارز الله بالمعصية وهو قبح صفيق ! وقد بين الله في كتابه أن المعصية التي تقع من الموسومين بالإيمان إنما تصدر عن جهالة أى عن طيش وضعف وغلبة وشهوة وضعة همة : « إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ . فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . » وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : إِنِّي تُبتُ الآن ولا الذين يموتون وهم كفَّارٌ . » « كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . » وكذلك نُفِصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ . »

إن صلة الطاعات والمعاصي بالإيمان لا يجوز نكرانها ، فالأولى أغذية ينمو بها ويزدهر ، والأخرى سموم يضعف بها ويزوى . وقد أبان الله عز وجل أنه ما من شخص يدعى الإيمان إلا فحّصت نفسه بألوان التكاليف وبلبت بمراتب شتى من الجهاد ، جهاد الشهوات ، وجهاد الحياة والمبادئ ، ولا بد أن يجتاز الشخص هذا الامتحان ليحكم بعدئذ بنجاحه أو سقوطه ، ولن يترك الإنسان سدى . ولن يغلب العصاة ربهم بإيمان مزعوم وكفران مكتوم ، والتكاليف التي شرع الله لعباده هي الطليعة الأولى للفتن التي تقتحم النفس وتكشف دخالها . وإن تزال هذه الفتن تسبر أغوار الإيمان ومدى صلابته ومدى استعداد صاحبه للنعيم أو للجهنم أو لهما معاً حتى يرجع الإنسان من حيث بدأ . « إِلَى اللَّهِ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ؟ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ! أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . »

ومصير المرء لا يحدد بمعصية واحدة ولا طاعة واحدة . فالأجل طويل  
والتكاليف متجددة ، والأمر أعقد من أن تصدر بصدده حكماً عاماً . وفي  
الحديث : « تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عوداً عوداً ، فأى قلب  
أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة  
بيضاء حتى تعود القلوب على قلبين قلب أسود مر بآء كالكوز مجخياً (مكبو بآ)  
لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه ، وقلب أبيض فلا تضره  
فتنة ما دامت السموات والأرض » وهذا الحديث يبين أن المعاصي منازل  
ومزلق يسلم بعضها إلى بعض ، وأن الإيمان يتأثر بما يعرض للقلب من أحوال  
فهناك قلوب أفقرت منه تماماً — بإدمان المعاصي والفتن — ، وهناك قلوب في  
طريقها ، لَمَّا تقفر بعد ويوشك أن تضل . وهناك قلوب في أواخر طريق الخير  
وأوائل طريق الشر تتأرجح ناحية اليمين أو الشمال . والحديث يشبه عرض  
الفتن على القلوب شيئاً فشيئاً كعرض عيدان الحصير وهى طاقتها شيئاً فشيئاً .  
وقسم القلوب عند عرضها عليها قسمين : قلب إذا عرضت عليه فتنة أشربها  
كما يشرب الإسفنج الماء ، فتنكت فيه نكتة سوداء . فلا يزال يشرب كل  
فتنة تعرض عليه حتى يسود ويتنكس وهو معني قوله « كالكوز مجخياً »  
أى منكوساً . فإذا اسود عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطيران يتأديان  
به إلى الهلاك : أحدهما اشتباه المعروف عليه بالمنكر . فلا يعرف معروفاً ولا  
ينكر منكراً . وربما استحكمت فيه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكراً  
والمنكر معروفاً : والثاني تحكيم هواه على ما جاء به الشارع وانقياده لهذا  
الهوى حيثما ترى به .

أما القلب الآخر فهو أبيض أشرف فيه نور الإيمان فإذا عرضت عليه  
الفتنة أنكرها وردها فازداد نوراً وإشراقاً . .



وفي أحوال الإيمان مع الفتن والمعاصي ورد كذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم « أن العبد إذا أخطأ خطيئة نكثت في قلبه نكتة فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه . وهو الران الذي قال الله « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ » .

### بين التوبة والعصمة

من حقائق التربية النفسية أن الإنسان خطأ ، وأن الغلط مركز في طبيعته يجري في عروقه مع الدماء ، وأن الله لم يكلف أحداً بالعصمة المطلقة !! إنما كلف الإنسان إذا أخطأ أن يثوب إلى رشده ، وإذا بدرت منه زلة أن يراجع تفكيره ، وإذا زلقت قدمه فكبأ أن ينهض من كبوته ، وأن يزيح عنه ما علق به ثم يستأنف طريقه إلى غايته المنشودة .

ويظهر أن نفس الإنسان كجسمه ، كلاهما يحتاج إلى تطهير دائم ، لأن كليهما ينضح من داخله ، ويتعرض من خارجه لما يضطره إلى مداومة الغسل ومقابلة النظافة . . . !! ففي البدن غدد وأجهزة دائبة الإفراز ، وجو الأرض التي يحيا عليها يكسوه أبداً بالغبار والأكدار ، فكان لا بد لعافية الجسد من إزالة هذه الأدران كلها .

والنفس الإنسانية كذلك تهفو إلى السيئات وتنزع إلى الشرور وتتعرض في مخالطتها الآخرين إلى ضروب من الفتن والمغريات المخرجة ، وهي بحاجة إلى توبة متجددة متكررة تسمح عنها هذه الأكدار وتمحو هذه الآثار ، مثلما يحتاج الجسد إلى أنواع الغسل وضروب المطهرات . وإلى هذا يشير القرآن في قوله « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » .

وقد كان الرسول يجدد التوبة إلى الله بين لحظة وأخرى ويقول : « توبوا إلى الله فإنى أتوب إليه في اليوم مائة مرة » .

ومدح القرآن الأنبياء بهذا المعنى فقال عن سليمان : « نِعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ »  
ووصف المؤمنين بأن الله ينقذهم من أضرار الشهوات وظلمات الأهواء ومفاتن الحياة ساعة بعد ساعة لأنهم - ماداموا أحياء - معرضون لها في كل حين وهذا ما يوحى به نظم الآية الكريمة : « اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ » عَلَى أَنَّ الْأَخْطَاءَ الصَّادِرَةَ عَنِ النَّاسِ تَتَفَاوَتُ تَفَاوُتًا كَبِيرًا .  
فما يعتبر صواباً يصح صدوره من إنسان يعتبر خطأ لا يسوغ صدوره من إنسان آخر :

ويختلف الرزقان والفعل واحد إلى أن يرى إحسان هذا لذا ذنبا وهذا معنى عبارة المتصوفة : « حسنات الأبرار سيئات المقربين » .  
والغرض من سوق هذه الحقيقة أن يحسن الانتفاع بها في ميدان التربية النفسية انتفاعاً يعالج به غلطات العصاة وأخطاء المتهورين .

إن القالة الخبيثة التي شاعت بين المسلمين توهمهم أنه لا يضر مع الإيمان معصية ، لا أصل لها ، وهي فضلا عن أنها أفسدت حضارتهم وأسقطت دولتهم أضرت بالإيمان كوازع خلق وحصانة اجتماعية أبلغ الضرر . وقبل ذلك أضرت بالإيمان كفكرة تنير العقل ويقين يملأ الصدر . فحقته محقاً .

ولسنا نزع أن كسب سيئة يزد المؤمن كافراً في طرفة عين ، فقضية الإيمان أخطر من ذلك ! ولكننا نؤكد أن القلب إذا أهدت به السيئات وترادفت عليه الفتن وطال عليه الأمد وهو بين ظلمات معتمة ، لا يخرقها بصيص من متاب . . هذا القلب ينفلت منه الإيمان رويداً رويداً حتى يطمس



بهاؤه ويرتد صاحبه إلى جاهلية نكراء، وانظر إلى قوله تعالى: «بَلَى . مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» فَإِنْ إِحَاطَةُ الخَطِيئَةُ بالفاسدين تتأني على سر الليل والنهار، وهم يتقبلون في مهاد الخزي والعار، فهيهات أن يكون لهم إلا النار، وبئس القرار .  
أما تفسير كلمة «سَيِّئَةٌ» في الآية بأنها الشرك وعبادة الأصنام فلامعنى له، فإن سياق الآية في مخاطبة أحرار اليهود واستعمال اللغة واصطلاح الشارع . . . ذلك كله ينفي هذا التأويل الذي لامبرر له .

### من مخلفات حرب الجدل

هذه صورة خلقها الجدل المحض، وثار النزاع فيها نظرياً للأثرة فيه من رعاية الواقع أو استقراء أحوال المؤمنين على ضوء التجارب الصادقة . . !  
قالوا . . ثم اختلفوا في الإجابة، ما حكم المسلم الذي يصر على المعصية؟  
قال بعضهم كافر؟ وقال آخرون بل مسلم، ولا تضر مع الإيمان معصية!  
وقال غير هؤلاء وأولئك: بل هناك منزلة بين المنزلتين!!

وانقسم المسلمون فرقا متقاتلة لهذا الاختلاف الذي يرجع في أساسه إلى التلاعب بالألفاظ والنزوع إلى المرأ، والتعلق بالجدل . والحق أن هذا السؤال لا يجوز إرادته فهو غلط ظاهر في فهم طبيعة الإسلام . إن كلمة إصرار تعنى توجه الإرادة وانعقاد العزم وتقدير النتائج المستقبلية والسيطرة على البواعث والأساليب المقارنة للعمل . أى أن الإصرار مبارزة لله بالعصيان على نحو مقرون بالتحدى وعدم الاكتراث . . وذلك لا يتصور في مسلم قط! نعم قد يعكف بعض الناس على معصية ما، لانهييار في إرادتهم وجماع في شهوتهم، وهذا الانكسار في القوة الإيجابية الدافعة إلى الخير لا يسمى ما ينشأ عنه إصراراً

على الشر . إذ أن المسلم الذي يقارن ما لا يليق لا ينفك عنه شعور قوى أو ضعيف بالخزي والمعرة . أما يوم يصل إلى الحال التي يُقبل بها على الكبائر وهو مسرور باسم ، ويترك معها الواجبات وهو مستريح هادئ ، فهو اليوم الذي يتخرف فيه الدين من القلب ، ولا يبقى له بالإسلام سبب ولا نسب . وهذا الشعور المفروض في المسلم إذا سقط في كبيرة ، هو نواة التوبة المعجلة أو المؤجلة التي تربط الرجل بالإيمان أي رباط . فإذا غاض هذا الشعور وانفصم ذلك الرباط فأى إيمان يبقى بعد ؟

رَوَى عن النبي صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمن ومثل الإيمان كمثل الفرس في آخيته يجول ثم يرجع إلى آخيته وإن المؤمن يسهو ثم يرجع » وروى : « المؤمن وإه راقع فسعيد من هلك على رقعة » وإه مذنب وراقع تائب مستغفر .

والإصرار حالة تتولد بعد مراحل متطاولة من إلف المعصية وموت الشعور بما فيها من نكر ، وجذور الإيمان — مع الولوج في المآثم — تنقطع جذراً جذراً ما لم تتدارك بمتاب . والبحث في هذا الموضوع تتسكون النتائج فيه بالملاحظة والاستقراء ، لا بالتلاعب والمراء .

وإليك طائفة من الحقائق المقررة في علم الأخلاق تستطيع على ضوءها أن تتبين ملاسبات الأعمال المنكرة ومراتب مقترفيها والحكم على أنواع الجرائم والحزمين ، ومدى قربها أو بعدها من الإيمان والكفر .

ذكر الأستاذ محمد يوسف موسى في كتابه «مباحث فلسفية في الأخلاق» درجات التوجه والتنبيه عند الكائنات المختلفة ، فسمى امتداد جذور النبات إلى أدنى طلباً للغذاء ، وامتداد الأغصان والفروع إلى أعلى طلباً للضوء والهواء ... سمي ذلك « حاجة » .

وسمى تطلع الحيوان إلى مابه قوام حياته وإدراكه المحدود لقومات



وجوده ، دون شعور بالغاية المترتبة على تحصيلها ، سمي ذلك « شهوة » .  
ثم قال : « ترتقى بعد ذلك للإنسان فنجده يسعى لما يحتاج إليه وهو  
شاعر تماماً به متصور اللذة التي تعقب وجوده والألم الذي ينتابه لفقده ، وذلك  
ما يميزه عن الحيوان . ويسمى ذلك في الإنسان « ميلاً » .

ويعرف « الميل » بأنه توجه من الإنسان لشيء متصور بوضوح مع  
إدراك الغاية المترتبة عليه — وباختلاف غايات الناس اختلفت ميولهم . هذا  
غايته الشهرة وذلك غايته السيادة وغيرها الغنى وهكذا ، وكل طائفة متشابهة  
من الميول تدور حول غاية واحدة تسمى « عالماً » ومنها تنشأ الرغبة .

فإذا تغلب ميل من هذه الميول على سائر الميول المشابهة التي تدور معه  
في محور واحد ، وسيطر عليها كان ذلك ما يسمى بالرغبة ، فإذا فكر فيما يرغب  
فيه ورآه ممكناً وذلك ما قد يكون بينه وبين نيته من عقبات ، ثم أجمع أمره  
عليه ارتقى ذلك الاتجاه فسمى « إرادة » والفرق بين الرغبة والإرادة يتضح  
من أن الرغبة قد لا يتلوها العمل المثمر . . ربما يرغب المرء في أمر يستحيل  
الحصول عليه . أما الإرادة فلا تتسكون إلا حيث يتروى الإنسان في الأمر  
ويزن جميع الظروف والملاسات . ثم بعد ذلك يراه ممكناً فيعزم عليه . وبهذا  
يعقبها العمل الذي إذا اعتيد صار خلقاً . .

ويظهر من هذا أن الخلق عادة للإرادة — وليس مجرد الإرادة — وأن  
الإرادة تغلب عالم من قوى النفس على غيره . . « اه باختصار ، فالإصرار على  
الكبائر — في ضوء هذه الحقائق النفسية المقررة — هو نتيجة لمقدمات  
طويلة وأطوار يتولد بعضها من بعض في نظام مرتب دقيق . فإذا علمنا أن  
التدنس بخطيئة عقب ميل مفاجيء أو رغبة جامحة يوقع الإيمان في مأزق  
خطير ، ويصيبه بجرح عميق ، مالم يندمل هذا الجرح بتوبة ، وسمعنا قول النبي

صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » . . فكيف بإيمان ترادفت عليه هذه الجراحات الدامية من آثار الذنوب الفاجرة ! وكيف تكون حال هذا الإيمان إذا اقترب به الميل إلى الجريمة ثم ارتقى هذا الميل إلى رغبة ، فإرادة ، فعزيمة صادقة ، فخلق معتاد ، فإصرار بالغ ! هيهات هيهات أن يكون له بقاء إلا في أوهام المجادلين والمعايشين بعلم الكلام . . على أن للإصرار على الكبائر طبيعة يجب أن تعرف ، فهو لا يمد سحابة الشر حتى تعطى وجه الإيمان الجميل لحسب ! بل يرسب بسوءاته في النفس فيحول بينها وبين فعل أى خير وتقديم أى بر . فليس المصرُّ رجلاً من النوع الذى قال القرآن فيه : « وآخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » . كلافعى الإصرار على الشر أن يفتاح الخير جفت تماماً في الضمير فلن يشرح بخير قط ، ومن ثم استقر الأمر في علم الأخلاق على أن الاتجاه المائع الذى تتأرجح فيه النفس لا يسمى خلقاً . ويقول الأستاذ محمد يوسف موسى : « لا يصح أن نقيم وزناً للرأى القائل بأن الخلق أمر نسبي بمعنى أنه يحكم على المرء بالميل الذى يغلب عليه . فمن غلب عليه حب الإعطاء وأعطى كثيراً ولم يبخل إلا قليلاً . كان كريماً وكذلك الصدق والكذب وسائر الفضائل والردائل . لا يصح أن نقيم وزناً لهذا الرأى ، ذلك أنه مما لا بد ملاحظته في الخلق الرسوخ والثبات لحالة نفسية معينة حتى تعطى ثمرتها من الأعمال باستمرار ، ويؤيد هذا ما ذكره « ما كنى » في كتابه الأخلاق : « إنه لا بد لتسكويين خلق من ثبات عالم من العوالم — يعنى المشاعر النفسية — أما مجرد باعث خير أو غرض نبيل في حياة الإنسان فلا يكفي لجعله فاضلاً » .



وتطبيقاً لهذه القاعدة الخلقية في محيط الإيمان يجعلنا نجزم بأن الإيمان الكامل يقتضى العمل الصالح وجوباً ، وينقص الإيمان كلما تهص العمل ، فإذا لم نجد إلا شراً محضاً جزمنا بأن ظل الإيمان قد تقلص . . . ولذلك قلنا إن الإصرار بمعناه الشامل لا يتم في نفس مؤمنة أبداً .

\*\*\*

وإذا أحصينا النصوص الواردة والتفسير الصحيحة لها ، وجدنا أن الشرع الشريف يهتم بالبواعث المقارنة للعمل اهتماماً شديداً وبينى الحكم على الإيمان والجزاء بعد التأكد من هذه الحالات النفسية التي لا ينفك عنها عمل . والتي ينقطع العمل أو يتكرر لارتباطه بها .

قال ابن قتيبة شرحاً لقوله تعالى : « وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى » ، يجوز أن يقال عصى آدم ولا يجوز أن يقال عاص ، لأنه إنما يقال لمن اعتاد فعل المعصية . كالرجل يخيظ ثوبه يقال له : خاط ثوبه ، ولا يقال : هو خياط حتى يعاود ذلك مراراً ويعتاده . . فهذه معصية لا يأخذ صاحبها وصفاً يسجل عليه الشر . ولو أنه فعلها !! بينما يسجل الإنم وعقابه على شخص آخر لم يفعل الجريمة ولكنه عزم عليها ، فعن النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار . قيل هذا القاتل ! فما بال المقتول ؟ قال : كان حريصاً على قتل صاحبه ! » . إن للنية المصاحبة مدخلاً كبيراً في الحكم على الأخطاء والخطايا .

ولا محب أن نفعل في تقديرنا لأثر المعاصي في الإيمان .

١ - أن المعاصي ليست سواء في تهاوى الناس إليها وبلاتهم بها ، فجمهور المسلمين في بلادنا لا يطعم لحم الخنزير مثلاً ويستغنى عنه في بسر ولذة بلحوم البقر والضأن . وجمهور الفقراء لا يلبس الحرير ولا يتحلى بالذهب .

فإذا كان لحم الخنزير أو لبس الحرير مثلاً من المناكر التي حرمها الإسلام ، فإننا نلاحظ أن طبيعة هذه المحرمات تغير المعاصي القائمة على دسائس الشهوة الجنسية مثلاً وما أكثر التعرض لها .

٢ - أن هناك بيئات تعين على العصمة ، وأخرى تعري بالفاحشة . وقد يوجد أقوام لا يسعون إلى الجريمة ؛ فيبذلون بمجتمع دنس يسهل لهم الانزلاق ، وقد يتمنى قوم الشر ، بيد أنهم يجدون الأبواب إليه موصدة في بيئة محافظة مصونة مأمونة .

٣ - أن درجات السقوط نفسها تتفاوت ، فالذي يهوى من قمة مشرفة غير الذي يسقط وهو يسير ، غير الذي يتردى في حفرة عميقة . . . كذلك السقوط في المعاصي ، فقد يقارف الشخص الذنب عن ميل عارض وفرصة مواتية ، وهذا غير من يقع فيه عن رغبة ملحة ، وذلك غير من يسعى إليه عن إرادة يقظة ، وهؤلاء غير من يعزم على الفعل ويستمرى العودة إليه ويدأب على ارتكابه حتى يصير فيه خلقاً . . .

٤ - أن الدنيا نفسها حلقات موصولة ، فالكاذب يخون ، والخائن يرتشى ، والمرتشى يهدم المصلحة العامة وبييع وطنه وشرفه ودينه لأول مساوم . والسكران يزنى ، والزاني يقتل ، والقاتل يستحيل إلى وحش لا دين له إلخ .

\*\*\*

والحق أن مدلول كلمة معصية في أفراد الناس وأحوال الحياة يتفاوتت تفاوتاً واسعاً ، فكما تدل كلمة سفر على الرحلة القريبة والطواف حول العالم . وكما تدل كلمة مرض على الصّداع العارض والحمى المهلكة ، كذلك تدل كلمة معصية على طرفين متباعدين ، لا لأن المعاصي تنقسم إلى صغائر وكبائر ، بل لأن الكبائر نفسها - بما يكتنفها من مشاعر نفسية - ليست سواء ، ومن الخطأ الكبير



أن نقول مع المرجئة إن الإيمان لا تضر معه كبيرة ، أو نقول مع الخوارج إن الكبيرة لا يبقى معها إيمان ، ولعل دقة هذه الظروف الملازمة للمعاصي هي التي جعلت الناظم القديم يقول :

ومن يمت ولم يتب من ذنبه فأمره مَفْوَضٌ لربه . . . !  
يشير بذلك إلى قول الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ . وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا مَّيِّنًا » .  
والآية تشير إلى أن الشرك لا يغفر ، وهناك أمور مساوية للشرك كجحود الألوهية ، أو الاعتراف بها وجحود أوامرها ، ورفض الانصياع لها ، ومادون الشرك صنوف كثيرة قد تهبط إلى اللام المغفور . وقد تفحش حتى تحقق الإيمان كما أسلفنا بيانه . . . فلا تكون دون الشرك أبدا . وفي الحد الفاحش من المعاصي يساق قوله تعالى : « وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ » . « وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا » .

وفي الحد الأدنى يقول تبارك وتعالى : « وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » .

### هل المعصية مرض ؟

في أحيان كثيرة يتجه البحث العلمي إلى اعتبار عوج السلوك وارتكاب المخطورات ظواهر لأمراض نفسية كامنة ! . ويفسر وقوع الجرائم على أنه أعراض تستوجب العلاج الحكيم ، للاضطرابات النفسية والعصبية التي تحتفي وراءها . . .

وعَدَّ العصيان مرضاً يجب التفكير في مداواته ، قبل عدّه جريمة تستوجب القصاص من صاحبها ، أمر يستحق النظر العميق على ضوء التعاليم التي جاء الإسلام بها ! .

وقد تسأل : هل المعصية مرض حقاً ؟ والجواب أن تعابير القرآن الكريم في غير موضع واحد تبيح لنا أن نقول : نعم ! ففي سورة البقرة ، وصف النفاق بأنه مرض : « فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا » . ومرض القلب هنا ليس سرعة نبض ولا بطء خفقان بداهة ! ! وفي كثير من السور شاع هذا الوصف حتى لقد تكرر في سورة الأحزاب ثلاث مرات ، ويدل اختلاف السياق على اختلاف المقصود به ، ففي النصيح لأمهات المؤمنين يقول الله عزوجل : « إِنْ أُتَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ » .

والمراد بالمرض هنا ما يتخلف في نفوس الناس من اضطراب الفريضة الجنسية اضطراباً يجعلها تطعم في غير مطعم ويشرد زمامها حيث يجب أن تقف وتستكين ! والله عز وجل يريد لنسوة نبيه منزلة تعلقوا على هواجس النفوس ، فلا عجب إذا صانهنَّ عن آخر ما تصل إليه الأمانى المحرمة للنفوس المريضة . . وقد ثبت أن الشهوة الجنسية أساس لعدد هائل من الأمراض الفكرية والعصبية والخلقية ! .

وفي موقف الضعاف والمترددین عند هجوم الأحزاب على المدينة وإحكامهم الحصار على من فيها يقول القرآن الكريم : « وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا » .

وقد سبق وصف النفاق بأنه مرض ، وجريئمة هذا المرض تنمو مع ضعف الشخصية وانحلالها ، فترى المرء يلقى هؤلاء بوجه ورأى ، ويلقى أولئك بوجه



ورأى ، حتى إذا مرد على ذلك أصبح إخصائياً في العيش بشخصية مزدوجة .  
وقد بلى المجتمع الإسلامي الأول بحزب ضخم من المنافقين كانوا شراً عليه من  
الكافرين الصرحاء . . . وهذه الآية قد يكون معناها : وإذ يقول المنافقون  
الذين في قلوبهم مرض ، فهي صفات متعاطفة يكشف بعضها خفاء البعض ،  
أو يكون الذين في قلوبهم مرض صنفًا آخر من الناس ، أشبهوا المنافقين  
في جزعهم من الأعداء ، وجبنهم عند اللقاء ، وشكهم في أمر الرسول وعاقبته ؛  
فالتحقوا بهم وصاروا لذلك منهم ، والذين تظهر عليهم أعراض المرض يعزلون  
مع المرضى إلى أن تتميز أحوالهم . . .

وقد جمعت سورة الأحزاب هذه الأصناف كلها في قوله تعالى : « أَلَمْ  
لَمْ يَلْتَمِسْهُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ  
لَنُغْرِبَنَّهُمْ مِنْهُمْ لَأُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا » .

وقد جاء هذا التهديد بعد أمر عام لنساء المؤمنين بالاحتشام التام في ملابسهن  
مما يدل على أن المقصود بالذين في قلوبهم مرض هم الشبان المتسكعون في الطرق  
المتتبعون للعورات ، ومحفظاً من هؤلاء أنزل الله الآية السابقة : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ  
قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ  
أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ » .

والأمراض النفسية تتفاوت خفة وحدة و يتفاوت معها ما ينشأ عنها من  
مخالفة للشرع والقانون ، وشذوذ عن العرف والتقاليد الفاضلة . على أن المحرم  
مهما كان مريض النفس فلا يمكن إخلاؤه من المسؤولية الجنائية وتركه طليقاً  
دون أية مؤاخذه ، والإسلام ينظر إلى هذه الأحوال المرضية نظرتين مختلفتين ،  
فهو يضع الحدود والعقوبات التي لا بد منها لصيانة المجتمع وتدعيم أركانه وتقريب

فضائله والحفاظة على مثله العليا والمغالاة بقيمها وقع من يستهين بها ، ومن ثم فهو يجلد ويرجم ، ويقطع ويقتل ، ولكنه إلى جانب هذه النظرة الصارمة يرسل نظرة عطف إلى المجرم نفسه — على حساب أنه مريض — فهو يحتاط في الحكم عليه ويجعل القاضى أن يخطىء في العفو خيراً من أن يخطىء في العقوبة ، ويأمر بالدعاء له ، لا الدعاء عليه .

وقد حدث أن جرى بسكير إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليؤدب على سكره فقال أحد الجالسين : لعنة الله عليك ! ما أكثر ما يجاء بك ! . فقال صلى الله عليه وسلم : لا تلعنوه ؛ فوالله ما علمت إلا أنه يجب الله ورسوله .  
وفي رواية أخرى : لا تقولوا هذا ولكن قولوا : اللهم ارحمه ، اللهم تب عليه وهذه النظرة الرحيمة هي التي أوصت بالستر على المخطىء ، وإعطائه الفرصة التي يصلح بها نفسه ، والتشفع له — قبل أن يصل الأمر إلى القضاء — عساه يرجع عن غيه ، ويبرأ من علته .

وأولى الأمراض النفسية ظفراً بالرحمة والعطف في دين الله هي الأمراض التي تصيب الإرادة الإنسانية في محاولاتها المتكررة المتعثرة أن تصل إلى السكالم المنشود ! . فإن المرء إذا طلب السمو بنفسه عن الدنيا ؛ لاحتته من طبيعته الأرضية نزعات شتى قد تزلله عن الخير ، حتى يكاد ييأس من بلوغه ، فتمرض إرادته ويضعف عزمه . وهنا يتدخل الدين بتعاليمه ليعيد إلى الإرادة صحتها وقوتها ، حتى تسعى بصاحبها إلى السكالم ما دام حياً !

وفي ذلك الموضوع الدقيق من علاج النفس ، تساق آحاديث الرجاء وآيات الرحمة ، والنصوص الكثيرة التي تفتح عيني الإنسان على آفاق بعيدة المدى من غفران الله ورضوانه ، والتي لا تسد منافذ الأمل أمام نفسه أبداً ، مثل قوله تعالى للعصاة : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنِّ



رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا» وأمثال هذه البشارات الرحبة يظهرها القاصرون ذريعة إلى التقصير في العمل والاستهانة بالخطأ ، وهذا وهم مفرق في الضلال ، فما قصد بهذه النصوص إلا تشجيع المجاهد لهواه على المضي في طريقه ، لا تفننه عثرة ولا تلويه عقبة ، ولا تنكسر عزيمته في الخير لكثرة ما اقترفت من الشر ، ولا يقنط من رحمة الله — مهما صنع — مادام يريد استئناف حياة أنقى وأفضل ، وبهذا الضوء تدرك العلاقة بين النصوص الكثيرة التي تجعل العمل كل شيء في الدين حيناً ، والتي تسوق العفو والمغفرة حيناً آخر على اليسير من الأمور . . . . . وخير ما نستصحبه في ملاحظتنا على أحوال الناس قول عيسى بن مريم عليه السلام : « لا تنظروا في أعمال الناس كأنكم أرباب ، بل انظروا في أعمالكم على أنكم عبيد ، فإنما الناس رجالان : مبتلى ومعافى ، فاعذروا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية » .

وللإسلام تعاليم إيجابية لكي يكتسب المؤمن منها صحته النفسية ، وعافيته الروحية .

ويخطئ من يحسب العبادات التي شرعها الإسلام ضرباً من الطقوس التي تؤدي في جو من الغفلة السائدة والفناء في مجهول غير مفهوم ؟ . فإن الفرائض الأولى في الإسلام تقوم على اليقظة العاطفية والعقلية . وقلما تحظى بالقبول إلا إذا تركت أثراً غائراً في القلب واللب ! . ومن ثم فالعبادات التي كلف بها المسلم أساس مكين لصحته النفسية والحكمة المذكورة في تشريعها أنها وقاية من الأضرار والأوزار ، وأنها — إذا وقع المرء في خطيئته — نظافة تغسل الروح مما لحق به من فتن وذنوب . وكلا الأمرين من وقاية ونظافة سبيل العافية والبعد عن الأمراض النفسية ، أي عن المعاصي والسيئات . . . . .

إن التعبد بقراءة القرآن مثلاً ليست الغاية منه ترديد الألفاظ المقدسة ، بل المقصود أن يتصل الروح بالوحي لينتفش ويتطهر . ويرفع حين يفاجر الله عن الإخلاق إلى الأرض واتباع الهوى : « وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ » .

والتعبد بالصلاة مناهة عن الآثام ، ومطرقة للوسوس الصغيرة ، ودواء للعصيان إذا مس المرء عارض منه .

ومن الكلمات الحكيمة : « إذا لم تشغل نفسك بالحق شغلتك بالباطل » وبهذا المبدأ وفق الإسلام الفرد والمجتمع من أمراض نفسية جاثمة ، فإن الفرد العاقل والأمة التي لا رسالة لها مرتع خصب لأخبث الأمراض العقلية والقلبية . ولو اشتغل المجتمع المسلم بما طولب به من جهاد دائم ، وما كلف به من صلوات جامعة ، لما وجد مدسعا من الوقت لجرائم الفراغ والتبطل ، ولا نخلت عقد كثيرة من تلقاء نفسها في ميادين العمل السامى إلى الأهداف المرسومة .

\*\*\*

وعندى أن كثيراً من معاصي الأفراد يقع قسط كبير من وزرها على الدولة ، لأنها لم ترحم حياتهم بما يصرفهم عن الموبقات .

إن الأمراض النفسية التي يشرد بها السلوك الإنساني كثيرة ، ولو استمعنا إلى آراء علماء النفس لما نجا أحد من الاتصاف بعقدة كامنة أو لوثة خفية أو داء نفسى دفين . غير أن هناك فارقا بين أن يوصم المرء بالجنون مثلاً وبين أن تصدر عنه أفعال تعد شعبة من الجنون ، ويقال للإنسان — إذا صدرت عنه — : أما بك عقل ؟ وقد قال الله تعالى لأخبار اليهود : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .



والأمراض النفسية تتفاوت شدة وضعفًا . وهي في بدايتها غيرها في نهايتها ،  
ومنها ما تكون الإصابة به كالوباء العام . ومنها ما يقع في حدود وظروف ضيقة  
وأكثر الأمراض النفسية شيوعاً ما ينشأ — كما ذكر القرآن في غير موضع —  
عن اضطراب الغريزة الجنسية أو عن الشعور الإيجابي أو السلبي بالذات — كما  
يعبر علم النفس — ولهذا الاضطرابات النفسية أطوار ومضاعفات ليس هنا  
موضع البحث فيها . .

ومن مرض الغريزة الجنسية تتولد الجرائم المسببة للزنا واللواط والسحاق  
والتعشق الخيالي والتذلل للمحبوب . . إلخ .

ومن مرض الشعور الإيجابي بالذات ينشأ الفخر والخيلاء ، والتكبر وجنون العظمة .  
ومن مرض الشعور السلبي بالذات تتولد مركبات النقص والتلون والملق ،  
وقد يكون الإحساس بالضعفة باعثاً على التكبر والفخر بشكل حاد مثير .

\*\*\*

والإسلام كما قلنا يتعهد النفس بالعبادات فيحصنها ضد هذه الأمراض .  
ويخفف من آثارها إذا أصيبت بها ، ولا يزال يعالجها حتى يشفيها أو يقارب .  
على قدر أخذ الإنسان نفسه بالمجاهدة والتربية .

ولسنا ندرى من أحوال الجرائم والمخالفات إلا ظواهر يسيرة . ولسنا  
نجروء على إصدار حكم عام في هذه الأمور . وقد نستطيع تحديد مصائر الناس في  
الدنيا بما يظهر لنا أنه إيمان ، أو فسوق وكفران . أما مصائر الناس في الآخرة  
فإلى الله وحده . والقول بتخليد العصاة في جهنم أو العفو عن البعض والتنكيل  
بالبعض الآخر إلى حين ، يقتزن بهذه الملابس التي أطلنا سردها . ورفضنا  
إخضاع الحكم فيها للجدل والفسطة والأعيب المنطق القديم ، وفي ذلك يقول  
زميلنا الفاضل الأستاذ إسماعيل حمدي من بحث طويل .

العدل كبدياً ، والعقاب كجزء منه ، لا مناقشة فيهما إذن ، ولكن أى الجرمين ينبغي أن يتجرد له العدل ؟ وأيهم يعامل بالعدل مع الرحمة ؟ وأيهم هو المريض الذى تتجرد له الرحمة التامة ؟ إنهم مختلفون بلا ريب ، فصور النفوس أشد تنوعاً من صور الوجوه ، والإرادة والوعى ههنا أساس التنوع والاختلاف . فامرؤ يقارف الجريمة مريداً واعياً يبصر آثارها كاملة ، ويقدر على مجانبتها تماماً ، ويرتب وسائلها ويهيئ ظروفها ويستعد لمفاجأتها — غير امرئ يتسلط عليه إحدى العواطف الحادة كالغضب أو الحب أو القربة فيتورط في جنابة مندفعاً إليها اندفاع المنقوص الإرادة والوعى معاً . وكلاهما غير ثالث أعوزته أسباب القوت فسرق ، أو أسباب النشأة الصالحة والتربية الضرورية فأفسد .

لا حاجة بنا إلى بيان ما يستحقه كل نوع من هؤلاء ، فهذا واضح كل الوضوح ، وإذا كان قضاء البشر لا يأتى الرحمة على من يستحقها كاملة ، ولا العدل على من يستحقه مجرداً ، ولاهما معاً على من يستحقهما معاً ، لأن وُضَاع القوانين ، والقضاة بين الناس ، لا يضعونها ، ولا يحكمون ، وهم آلات صماء . وإنما هم بشر فيهم مافى البشر من صفات يستوحونها ، وتظهر حتماً فيما يضعون وفيما يحكمون ، بل المفروض أنهم من أرقى البشر ، فصفاتهم من العدل والنزاهة والعلم بالأنفس وتقدير البواعث والرحمة وما إليها من أرقى الصفات .

والقرآن يتحدث بحديثه الفيض عن صفات لله هى المثل الأعلى ، من علمه المحيط بمن خلق ، وعدله الناصع الذى آثره لنفسه ، وأمر به الناس ، ورحمته الواسعة ، وإحسانه الجميل ، وعفوه السمج ، وهى صفات من الأدب أن نقول : إنها غير عقيمة ، أو غير سلبية ، أو غير موقوتة بهذه الحياة الدنيا ، فنحن بهذا القول ومثله نقدرها حق قدرها ، لأنها صفات إلهية ، فهى عاملة دائبة ، وهى مباركة متصلة ، تتناول الدنيا والآخرة .



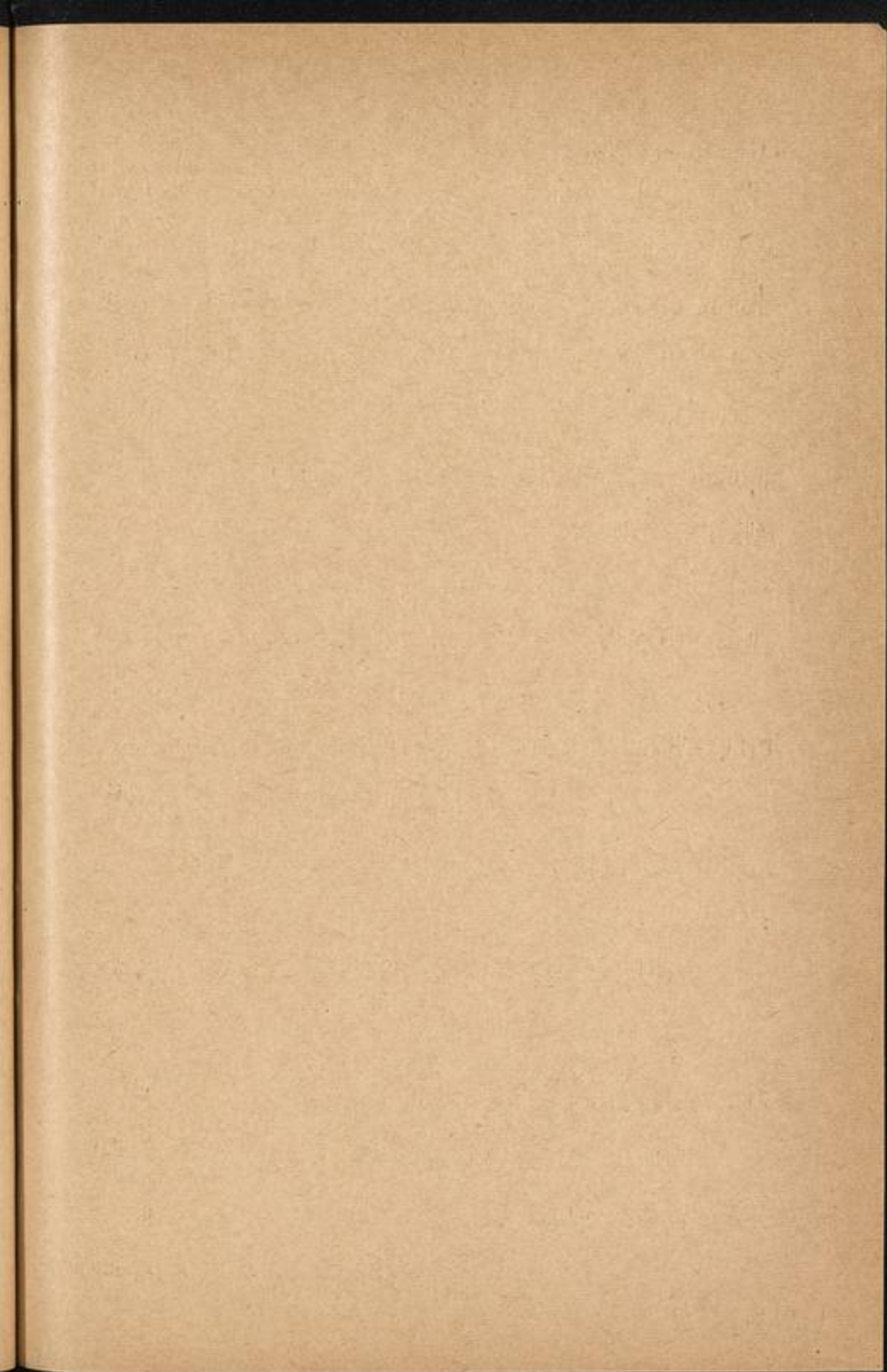
ومعاملة الله للناس فيما يشرع لهم ، وفيما يقضى بينهم ، لا بد أن تكون مظهراً تظهر فيه هذه الصفات ، وبجلا تبدو فيه آثارها الجميلة ، فالظروف المحففة التي تقضى باستعمال الرأفة كما يعبر رجال القانون ، والبواعث المحزنة التي تثير في القاضى عواطف الطيب الرحيم ، كما يكون لها تقديرها عند البشر يكون لها كذلك تقديرها عند الله ، والله أمنٌ وأفضل ، وله المثل الأعلى في السموات والأرض .

إن الإيمان يستلزم العمل كما يستلزم النهار الضوء . وقد يثور في رابعة النهار غبار يحجب الأفق ، أو تتكاثف غيوم تملأ الأرض بالظلال . بيد أن ذلك لن يرد النهار ليلاً إذ هو عرض زائل ، طال أمده أم قصر فلن تلبث أشعة الشمس أن تغمر الأرجاء بالدفء والضياء . كذلك نور الإيمان قد تحجبه إلى حين غيمة من شهوة عارضة ، فتغيم جوانب النفس حتى لا يكاد المؤمن يرى النهج . ثم يعمل الإيمان عمله فإذا بالأمر كما قال الله تعالى : « **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ** » .

أما الظلام المطبق للمعاصى الدائمة . فذلك حيث يخيم ليل الكفر ، وتغيب شمس الإيمان . ويفقد المرء حاسة البصر تماماً فهو لا يعرف الله طريقاً : « **وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا** » .

\*\*\*

إن قصة الخليقة الناجية كما مثلها أبونا آدم « **خطأ ومتاب** » وقصة الخليقة الهالكة كما مثلها إبليس « **جريمة وإصرار** » .  
فاختبر لنفسك ما يحلو . وليس الحساب من مغالطات المنطق والتلاعب بالنصوص . ولكنه إلى الله . وكفى بالله حسيباً .





(۷)

خلافات لامبرر لها

إذا نشب خلاف على مسألة ما بين علماء مخلصين فإن هذا الخلاف لن يطول أجله ، وإذا قدر له أن يطول فلن يترك في النفوس حقداً ، ولا في الصفوف صدعاً ، وإذا حدث من ذلك شيء فلا بد أن يكون لأسباب مصطنعة بعيدة عن دائرة العلم ، أو عن دائرة الإخلاص ، أو عن كليهما جميعاً وقد لحت وراء كثير من ضروب الخلاف ، أشياء كثيرة تغاير البحث المنزه في العلم ، والإخلاص المجرد للحق . ولو ماتت أهواء النفوس وشهوات الغلب واحت الأغراض الدخيلة من وراء إعلاء رأى ونشر مذهب لبادت عشرات من الفرق يوم ولدت ، أو لبقيت في نطاق لا يعدو صفحات الكتب وحلقات الدرس ، كأراء تشجر في ميدان النظر الحر ، وتنتهى ضجتها بانتهاء النقاش فيها . . .

إن سعة العلم تدر رحابة الأفق ، وإن حسن النية يلد رحابة الصدر ، وإن الإيمان المحض يلد الحفاظ الدقيق على وحدة الأمة ، فأنى يتسرب الشقاق إلى دين يقوم على هذه الحقائق ؟ .

ومن ثمَّ حسم الله - جل وعز - صلة أتباع الهوى وهواة التفرقة بصاحب الرسالة العظمى ، فليس منهم وليسوا منه . وسوف يلقون جزاء صنيعهم يوم ينقلون إلى الله العليم بذات الصدور .

« إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » .

وقد تسأل : لكن المسلمين اختلفوا فرقا كثيرة ، وقد اشتغلت هذه الفرق بالجدل قرونا طويلة ، فكيف يتفق هذا الواقع مع المبادئ التي مهدتها ؟؟ .



ونحن لانبالي أن ندفع بالحق المجرد من تفكيبوا سبيله . فإن بعض الآراء التي ظهرت بها هذه الفرق حدث مثله في العصر الأول بين فقهاء الصحابة وظل على هامش المجتمع الإسلامي فلم يعد قدره ، ولم يترُ تعليقا يذكر .

\*\*\*

خذ مثلاً رؤية الله في الدار الآخرة ، فإن هذه المسألة تطاحن عليها المعتزلة وأهل السنة ، وتنازروا بالألقاب ، وملاؤوا بها المحافل والأسواق ! مع أن هذه المسألة ثار حولها كلام خفيف في المجتمع الأول ثم سرّ ولم يعقب شحناء ، ولا بغضاً . كان ابن عباس وجمهور الصحابة يجيزون الرؤية ولم في ذلك أدلة . وروى أن الرسول رأى ربّه ليلة عُرج به . وكانت عائشة تقول : لم ير رسول الله ربه ، قال مسروق : قلت لعائشة : يا أماء ، هل رأى محمد ربه ؟ فقالت : لقد وقف شعر رأسي مما قلت ، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب ، ثم قرأت : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » . ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب : « وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ » . ومن حدثك أن محمداً كتم أمراً فقد كذب ، ثم قرأت : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ » ، ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين ، وعن أبي ذر قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل رأيت ربك ؟ قال : نور أنى أراه ؟ »

والتوفيق بين هذه الآراء المتقابلة سهل ، وقد سرّ بها الصحابة الأولون فلم يجدوا فيها ما يجسبهم عندها ، ولا ما يقيد أفكارهم بإزائها ، ولا ما يشغل

العوام بالخوض فيها أو الخواص بالتخاصم عليها ، حتى جاءت - بعد - أيام الفراغ والهزل فتألفت فرق المتاجرة بهذا الخلاف . . وإليك مثلاً آخر :

يرى ابن عباس وزيد بن ثابت وابن مسعود أن قاتل النفس متعمداً لا توبة له . ويستشهدون بقوله تعالى : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا نَحْنُ أَوْهُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا » .

روى عن سعيد بن جبيرة قال : قلت لابن عباس : ألمن قتل مؤمناً متعمداً من توبة ؟ قال : لا . فتلوت عليه الآية التي في الفرقان : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ... إِلَّا مَنْ تَابَ ... » فقال هذه آية مكية نسختها آية مدنية .

وقيل : إن آية الفرقان نزلت في قوم اقترفوا هذه الذنوب قبل إسلامهم قال ابن عباس : « فأما من دخل في الإسلام وعقله ثم قتل فلا توبة له »

وروى مثل ذلك عن زيد وعبد الله ، وجمهور الصحابة يرى أن للقاتل توبة ، وأن القتل ليس أشنع من الكفر . والله يقول لنبيه : « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ » .

واختلاف الأنظار طبيعة البشر . وقد تفاوتت أحكام الصحابة في هذا الأمر ، وفي أمور أخرى مشابهة . ومع ذلك فإن هذا الاختلاف سر على هامش المجتمع ، فما غامت له حياتهم ولا طال فيه لجاجهم .

\*\*\*

ولكن الخلاف يعظم ويشدد عندما يدخل في الميدان عنصر غريب على العلم والإخلاص والإيمان ، أى عندما يتدخل حب الرياسة ومكر السياسة وعبث الحكام !! .. !

عندئذ تتحول الحبة إلى قبة ، وبدلاً من أن يجلس جماعة ليتجادبوا



أطراف الحديث في سكون ودعة ، إذا بأطراف الحديث تشدها أيدي مدججة بالسلاح ، من ورائها عقائر تنشق بالفضب والصبح . . . وقد افْتُعِلَت مذاهب شتى للخلاف ، وأمدتها السياسات الخبيثة بما يزيد الهوة اتساعاً . ثم توارت على مر الأيام هذه المذاهب ولم يبق من خلاف بين المسلمين اليوم إلا ما ترى أهواء السياسة الدينية أن تبقى أبداً الدهر ، وهو الخلاف بين الشيعة والسنة !!

وقد اشتعلت خلافات في مسائل العقيدة ثم انطفت ، ونشبت خلافات أخرى في فقه الفروع ولم يهتم المسلمون لها ، ولو حققت ما يقسم فريقاً من المسلمين اليوم إلى سنة وشيعة لما وجدت شيئاً ذا بال .

ولكن عصبية الأسر ومنافع الأحزاب ودنيا الرؤساء المفتونين وسذاجة العامة المغلوبين تريد لتبقى هذه الوقيعة في صفوف الأمة الواحدة كي تعيش باسمها !! .

\*\*\*

هل سمعت أن حزباً تَكُونُ في « إيطاليا » لتأييد « انطنيوس » و « كيلوبطره » ، وأن حزباً آخر تألف للدفاع عن « إكتافيوس » ؟ وإذا حدث أن هذه المساخر قد تجددت بعد دروس ، ونشرت من أكتافها بعد بلى ، وأن أحزاباً قامت لتسوس إيطاليا الجديدة بذكريات حدثت من عشرين قرناً ، فماذا يكون حكمك على مثل هذه الأمة المسكينة . . . ؟

إن المسلمين اليوم يفعلون هذا المنكر ! إنهم يريدون بناء حاضرهم على عقائد تنتزع انتزاعاً من خلافات بالية ، وقد ماتت عشرات من المذاهب المتحولة بموت السياسات التي رحبت بها وأعاشت في حضنها . . . وما زالت

إلى يومنا هذا سياسة الحكم الفاسد تعمل عملها في العقيدة الفذة لتجعل من المسلمين الموحدين فرقا تتنازع ، على ماذا ؟ على الوهم .

وإني أهيب بالمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن يعودوا إلى كتاب الله وسنة رسوله ، وألا يسمحوا للمعرضين والطامعين أن يستغلوا تفاوت الأنظار في أمور يسيرة ليقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، وفي ماضينا عبر عظيمة وفي حاضرنا عبر أعظم .

« إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ »



(٨)

النبـوات

## بين النبوة والفلسفة

المعارف المحترمة مصادر معينة لا يعول على ما وراءها. فإذا كان مصدرها إنسانياً فيجب أن تنبع من ثنايا المنطق التجريبي أو الرياضي كما هو حاصل الآن في علوم الكون والحياة وفيما يتصل بأحوال المادة وشئون الناس. أما إذا كانت هذه المعارف متصلة بما وراء المادة أي بما يقصر المنطق التجريبي والرياضي عن مناله فإن الوحي الصادق هو سبيلها الفذة ولا يقبل غيره فيها. ومن ثم فالكلام عن الله وعن صفاته وعن حقوقه لا يعتمد فيه إلا ما جاء على أسنة الأنبياء وحدهم. وإذا تظاهرت الدلائل على صدق نبي ما، فإن ما جاء به من عند الله يأخذ وصف اليقين وينقطع دونه الجدل.

إن عشرات الفلاسفة والعلماء تكلموا في المادة وما وراء المادة منذ آحاد طويلة. والتراث الذي خلفوه لنا خليط من الصواب والخطأ عكف عليه الباحثون فإزوا صحيحه من سقيم. ويمكن القول بأن كلام القدامى والمحدثين فيما وراء المادة ينقصه التوفيق لا ابتعاده عن مناهج الوحي.. ولذا حفل بالنقائص والخرافات. قال صاحب إخوان الصفاء: « إن الأنبياء كلهم مع تباعد أزمانهم واختلاف لغاتهم وموضوعات شرائعهم وافتتان سننهم تجدهم متفقين على رأى واحد ومقصد واحد فيما يشيرون إليه في دعوتهم الأمم. أما الفلاسفة فليست شريعتهم واحدة ولا دينهم واحداً بل آراؤهم مختلفة وأقوالهم متناقضة تورث لأتباعهم حيرة قلما تنجلي غمرتها. فكيف يرضى العاقل عن مذهب الفلاسفة مع اختلافهم — كأنما يكذب بعضهم بعضاً — ويعرض عن البحث والنظر في كتب الأنبياء مع اتفاقها. إنما ذهل أكثر المتفلسفين عن حقائق الأشياء



لعدم معرفتهم كتب الأنبياء وإعراضهم عن النظر فيها وقصور أفهامهم عن تصورها .

هذا فيما يتصل بالمعارف الروحية أما الفلسفة المادية فإن اتجاه العلم في العصور الحديثة إلى البحث المباشر والاستقراء الدقيق قد أفقد هذه الفلسفات القديمة منزلتها ، وجعل أكثر نتائجها لغواً ، والحق أن كثيراً من مذاهب المفكرين وآراء الفلاسفة ومقالات الأدباء لا تعتمد على ركيعة محترمة من اليقين الراسخ بل جعلها يشبه قصائد الشعراء الهاميين في أودية الخيال أو هي تصوير لمشاعر نفسية خاصة ووجهات نظر في فهم الحياة قد تسلم لأصحابها على أنها نزعات شخصية ولكنها لا تقبل مطلقاً في ميدان العقائد العامة .

والتضارب الهائل بين ثمرات هذا اللون من المعرفة الإنسانية يجعلنا لا نخرج به عن هذا النطاق ، ولو قرأت فلسفة المنود والرومان والإغريق ، وتطورات الفلسفة الإنسانية عامة في القديم والحديث لما تجاوزت بها أبداً حدود البحث الحائر وراء الحقيقة الغامضة وشتى الفروض التي يجانبها الصواب ومزيجاً من التحويم الغامض يعلو ويهبط ثم لا يستقر على شيء . . . شتان بين هذا القلق وبين المبادئ المحدودة والتعاليم الواضحة والأفكار المشرقة التي عرضتها الأديان في بساطة تامة ، كأنما تعرض المبادئ الأولى في علم الحساب .

إننا لا نقبل من المعارف المادية إلا ما خضع للمنطق التجريبي والرياضي — كما قلنا — ولا نقبل من المعارف الروحية إلا ما جاء على لسان نبي عرفنا بمنطقنا المادي صدقه . فأمناه على ما يفرس في عقولنا وقلوبنا وما يرسم لآحادنا وجماعاتنا لأننا آمننا بأنه مبلغ عن الله . . . وما جاء من عند الله فهو الحق المطلق .

أما ما عدا ذلك فهو وهم مريب ، والتعلق به اتباع للظن وقد نهانا الإسلام أن نركن إلا إلى اليقين : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ

وَالْفَوْادِ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ، « وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا . فَأَعْرِضْ عَنْ نَوَىٰ عَنِ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ » .

## الوحي

أما الأنبياء فأساس علمهم الوحي ، هؤلاء الرجال المصطفون من أبناء آدم تتلقفهم العناية من نشأتهم الأولى لتقييم أضرار الطبيعة البشرية ، وترقى بهم صعدا في مدارج الكمال ، وترشح قلوبهم الكبيرة لاستقبال ما يفد به الملائ الأعلی عن حضرة القدس ، فإذا بالحكمة تسيل من أسنتهم ، والأسوة الحسنة تقتبس من أعمالهم ، والنزاهة المطلقة تقترن بأحوالهم واتجاهاتهم .

والوحي الذي تشرق به المعرفة على قلوب الأنبياء أنواع ومراتب .

يبدأ بالرؤيا الصالحة في النوم ، ورؤيا الأنبياء ليست من أضغاث الأحلام التي تترجم بها النفس عن رغباتها المكبوتة في صور مهوشة متقطعة كما يحدث لجاهير الناس ! كلا . فإن الكمال البشري الذي وصل إليه النبيون يجعل قلوبهم يقظة — ولو نامت أبدانهم — بعكس الدهماء الذين تنام قلوبهم ليلاً ونهاراً فهي في غفوة لا تصحو منها ، ولو نشطت أبدانهم وراء أغراضها الصغيرة . أما أفئدة الأنبياء فكأجهزة الاستقبال المعدة لالتقاط الأنباء في كل حين . وكهر باؤها المتألقة تسجل ما يقذف الملك فيها . . ثم لا تلبث أن تذيبه على الناس أجمعين .

وكانت الرؤيا الصالحة أول مطالع الوحي في حياة محمد صاحب الرسالة العظمى « أول ما بدىء به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة . فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح » وقد ظل صلوات الله وسلامه عليه



موصول القلب بالله في يقظاته وهجماته إلى الرمق الأخير من حياته .

ومن الوحي عن طريق الرؤيا حدثت قصة إسماعيل ونزل الأمر بذبحه  
 « فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّنَى قَالَ يَا بَنِيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ، فَانظُرْ  
 مَاذَا تَرَى قَالَ : يَا أَبَتِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ » .  
 ويكثر أن يكون الوحي إلهاماً — في اليقظة — بوساطة الملك . ينضح به  
 المعنى على قلب النبي فيتكلم الحق . وفي سنة النبي صلى الله عليه وسلم أمثلة  
 كثيرة لهذا الضرب من الإلهام ، سواء صرح فيه بخبر هذه الوساطة كما في  
 الحديث : « هذا رسول رب العالمين جبريل نفث في روعي أنه لا تموت نفس  
 حتى تستكمل رزقها ، وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » أو طوى  
 ذكر الملك وأرسل الحديث إرسالا كما في سنن أخرى .

وقد نزل القرآن كوحى بألفاظه ومعانيه جميعاً . . . . . فعمل منه الرسول ما لم  
 يمكن يعلم . وكان حظ جبريل في ذلك مجرد النقل من لدن الخبير البصير :  
 « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ  
 مُبِينٍ » وقد ينزل الوحي بتكليم الله لعبده مباشرة من غير وساطة كما تم لموسى  
 « فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ  
 أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ . . . » وكما حدث  
 للنبي صلى الله عليه وسلم ليلة عرج به — على رأى طائفة من العلماء — بيد أن  
 تكليم الله لأنبيائه أمر لا ندرى كنهه ، وليس على النحو الذى نألفه بين  
 المتخاطبين من تكاشف ومشافهة . بل كما قال الله تعالى : « وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ  
 أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذنيه  
 مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ . . . » وكذلك أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا . مَا كُنْتَ  
 تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ » .

والتصديق بمبدأ الوحي ليس مما يتعاطم على العقول إدراكه . وشبه الماديين حوله تتساقط من تلقاء نفسها ما دمنا قد اعترفنا بأن الله حق وأن وجوده فوق الريب ، وأن له جل شأنه أن يصطفي من عباده من يبلغ عنه مراده . ومن يتعهد به الأمم الشاردة ويخرجها من الظلمات إلى النور . . .

وحاجة العالم إلى الرسل ماسة ، فلو تركت أزمة الفكر الإنساني للاجتهاد الحض ، لضل الناس رشدهم ولما اتفقوا على حقيقة واحدة تصلح حالهم ومآلم ونحن ننظر في تاريخ الأرض القريب والبعيد فلا نجد مثابة تفرع إليها الشعوب وتلتمس في ظلالها الخير والبركة إلا تعاليم الأنبياء . . .

هذه التعاليم منها ما يعجز العقل عن ابتداعه لو ترك وحده ، ومنها ما يمكن أن يصل إليه العقل بعد لأى وبعد تجارب مريرة ، ومع ذلك يكون تصوره له غامضاً وفكرته عنه منقوصة .

أحسب أنه لو لم تأتنا رسل من عند الله تعرفنا بوجوده ، لبحثنا نحن عن سر الوجود ! وستصل أفكار حصيصة حتماً إلى الجزم بأن هذا الكون لن يخلقه الوهم ولن ينظمه العدم ، بل لا بد من خالق موجود وقدرة منظمة ، ولكن هذه الأفكار الصحيحة ستكون فروضاً قلقة ، وقد تجرفها الآراء المناقضة ، والمذاهب الملحدة ، ولو استطاعت البقاء فإنها - في غيبة الوحي - ستكون تخمينات شتى ، يلتبس فيها الحق بالباطل .

ومن ثم فإن بعثة الرسل كانت ضرورة إنسانية لتجنيب العالم متاعب الضرب في بيداء ظامسة ، وقد أدى الرسل واجبه في قيادة الفكر والقلب وورثوا الأجيال المتعاقبة حقائق الإيمان بالله سهلة غضة ، لا نحس وأنت تتناولها من أيديهم الطاهرة بهذا الكلال العقلي المعنت ، الذي يصاحب دائماً أفكار الفلاسفة في تصويرهم لأسرار الوجود .



وكما عرفنا عن طريق الرسل مبدأ الإيمان بالله ، عرفنا كذلك الإيمان باليوم الآخر وما يسبقه ويلحقه من حساب وثواب وعقاب ، عرفنا ذلك على جهة اليقين الجازم ! ولولا بلاغ الوحي لعجز العقل المجرد عن فهم النهاية المرتقبة لعالمنا الزاخر .  
بلى . إن المرء قد يرفض التسليم بأن هذه الحياة الدنيا هي كل شيء .  
سبياً وهو يرى الجزاء مبنسراً فيها ، فكف من الأختيار والأشمرار يموت قبل أن يلقى جزاء ما اكتسب ، وكف من معارك دارت بين الأفراد والجماعات علا فيها مبطلون وهلك فيها مصلحون . وجور موازين الجزاء في الدنيا يعلق الأفتدة بيوم تم فيه النصفة ويتحقق فيه العدل ، بل إن الفطرة — فيما تهدي إليه من حقائق — تجعل الإنسان يستشعر معنى الخلود ، ويستعد له في حياته القصيرة بمختلف الأساليب .

بيد أن رسالات السماء وحدها هي التي كشفت الغطاء عن كل ما قد يثار حول البعث من ريب . وقدمت للمرء كشفاً مفصلاً بالجزئيات التي سوف يلقاها عقب انتهاء أيامه في هذه الدار .

وايست وظيفة الرسل هذا الإرشاد العقلي إلى حقائق الحياة فحسب . بل إن تربية الأصحاب والأتباع على هذه المبادئ من أهم ما جاءوا له ، والتربية ( كالدوق ) شيء ليس في الكتب ، إنها ليست حشو الأذهان بالمعلومات ولا قيادة الحياة بالأوامر العسكرية . . .

بل إن التربية الدينية التي تولاها الأنبياء وكتبوا بها صحائف جديدة في التاريخ تقوم على إحداث تغير نفساني عميق يشبه تغير الطين بعد نفخ الروح فيه ، ودُعَارُ الجاهلية الذين عاشوا في باديتهم غبيد شهوات ومساعر حروب فاجرة . لم يتحولوا بين عشية وضحاها إلى حنفاء ربانيين يقدمون أنفسهم وذرايهم قرابين للحق . . . إلا لأن نفحة عامرة من روح النبوة المقدسة

خامرت مواهبهم الأدبي فردت عليه الحياة وبعثته يدأب ويسعى . . . ووظيفة الرسالة تقوم على إسداء العون والنصح للفرد والجماعة في كل ناحية ، فهو يسكب من طهارة قلبه على أوضار القلوب فيغسلها . وهو يشعل من تآلق عقله الأفكار الخالية فيضيتها ، ثم يبعثها هي الأخرى لتضيء وتهدى . . .  
والنبوة في هذا المضمار لا يسبقها شيء . ومهما عظمت نتائج الفلسفة فلن تخطو في هذه السبيل أشباراً بعد أشبار ، حتى يدركها العثار . !!

### العصمة

وحياة الأنبياء تحلق في مستوى من الكمال لا تنهبط عنه أبداً ، والمؤمن — من عامة الناس — تتذبذب حرارته في مدارج الارتقاء . ويعتبر الحدُّ الأسمى الذي يقف عنده هو مقام الإحسان وهو « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . بيد أن مقام الإحسان وهو آخر ما يصل إليه الناس بعد الجهد والمران ، هو المرتبة الدنيا للأفق الذي يعيش الأنبياء فيه إذ — يستحيل في حقهم — أن يسقطوا دونه . أما ما يرقون فيه — بعد — من معاني الصلة بالله فأمر لا ندرك كنهه . . . وقد قرر علماء المسلمين أن العصمة واجبة لرسول الله كافة . . . فلا يليق أن تصدر عن أحدهم كبيرة لا قبل البعثة ولا بعدها ، ولا تصدر من أحدهم صغيرة تحل بالمروءة أو تسقط الاعتبار . . . وقد تقع منهم أخطاء يعاتبون من الله عليها ويوفقون إلى الصواب فيها . ولكن هذه الأخطاء لا تصل بأمور اعتقادية أو خلقية مما يعد الوقوع فيه أمراً شائناً ، بل مكان ذلك في الأمور التقديرية التي تتفاوت فيها الأنظار عادة من شئون الدنيا وسياسات الأمم . وقد يعتبر الأنبياء أنفسهم مقصرين في حق الله ، لأنهم أعرف الناس به وبجلال ذاته وعظمة حقوقه على عباده ، وبقصور المهم مهما



بذلت عن الوفاء بما ينبغي له . . . وإذا كانوا يعدون ذلك ذنباً تتطلب  
الاستغفار ، فليس استغفار الأنبياء عن مثل ما تقارف من خطايا أو ترتكب  
من سيئات . ! !

وما ورد يوم غير ذلك فإن حقيقته وراء أوهام العامة . وتفصيل الموضوع  
في غير هذا المكان .

### المعجزة

من حق الناس أن يسألوا كل رجل يزعم أنه مرسل لهم من عند الله :  
ما دليلك على صدق قولك ؟ فإذا قدم لهم الدليل المقنع على صحة رسالته قبلوه  
واستمعوا له . وقد جاء صالح إلى ثمود يخبرهم أنه نبي من عند الله ، ثم يصيح  
فيهم : « فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ  
فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ » . ولكن ثمود ردوا هذا النصيح وطالبوا صالحاً  
بالبرهان على أنه ليس شخصاً عادياً « قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ . مَا أَنْتَ  
إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الرُّسُلِينَ . قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا  
شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ، وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ  
يَوْمٍ عَظِيمٍ . . . »

فكان طلب ثمود معقولا ، ولذلك جاءت الإجابة عليه سريعة ، وكانت  
الطريقة التي وجدت وعاشت بها هذه الناقة خارقة لما تعارف عليه القوم .  
ودل محياها على أنه أثر لقدرة عليا لا تقدر الناس المعتادة ، وهذا النوع من  
الاستدلال يقوم على تفهيم الناس أن الشخص الذي يحدثهم لا يمثل نفسه ،  
ولسكن يمثل رب الأرض والسماء ، ولذلك يعمل بقوته المطلقة لا بقوى البشر  
المحدودة ! .

وقد فزع موسى إلى هذا الدليل لما كذبه فرعون في دعواه أنه مرسل من رب العالمين وتهده « قَالَ لَنْ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ ، قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ، قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ، فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ » . وكذلك صنع عيسى عليه السلام عند ما عرض نفسه على بنى إسرائيل . فنبأهم بأنه رسول من عند الله سبحانه وتعالى . . .

ثم سرد أدلته على رسالته « أَلَيْسَ أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخَيِّ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » .

وقد لوحظ أن أكثر الأمم — برغم ما سبق إليها من آيات باهرة — لم تستجب للحق ولم تسلم بدعوى المرسلين لا عن قصور في الأدلة التي تسندهم . بل عن عناد وتبجح « الذين قالوا : إِنْ اللَّهُ عَهْدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ !! قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ . فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ » .

\*\*\*

والدليل على صدق آية دعوى قد يكون بأمور خارجة عنها ، أو يكون بحقيقتها في نفسها . . . فقد يزعم أحد الناس أنه مهندس ويقول : دليلي على ذلك أني أستطيع السير بقدمي على الماء أو الطير بجناحي في الهواء . فإذا فعل ذلك سلمناه له ! . وقد يقول دليلي على ما أقول : أني أبني فعلا عمارة مدعمة



الأركان ، أو أصل بين شاطئين مثلاً بجسر متين ! فإذا فعل ذلك فقد دل  
بقدرته الهندسية على أنه مهندس يقيناً . بل قد تستريح النفس إلى هذا  
الاستدلال أكثر من راحتها إلى البراهين الخارقة الأولى .

قال ابن رشد : « إن دلالة القرآن على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ليست  
كدلالة انقلاب العصا حية ، ولا إحياء الموتى ، وإبراء المرضى ، فإن تلك  
وإن كانت أفعالاً لا تظهر إلا على أيدي الأنبياء ، وفيها ما يقنع الجماهير من  
العامة إلا أنها مقطوعة الصلة بوظيفة النبوة وأهداف الوحي ومعنى الشريعة ،  
أما القرآن فدلالته على صفة النبوة وحقيقة الدين مثل دلالة الإبراء على الطب .  
ومثال ذلك ، لو أن شخصين ادعيا الطب فقال أحدهما : الدليل على أني  
طبيب أني أطير في الجو ، وقال الآخر : دليلي أني أشفي الأمراض وأذهب  
الأسقام . لكان تصديقنا بوجود الطب عند من شفى من المرضى قاطعاً وعند  
الآخر مقنعاً فقط » اهـ . ملخصاً بتصرف .

فالمعجزات إذن قد تكون ذاتية في الرسالة وقد تكون خارجة عن  
جوهرها ، والتفاوت بينها واسع النطاق باختلاف البيئات التي ظهرت فيها  
والرسالات التي اقترنت بها .

وقد كان التعويل في العصور الأولى على الخوارق المادية غريب .  
أما ما تضمنته الأديان من حقائق فكانت منزلته ثانوية ، حتى جاء الإسلام  
فغض من شأن الإعجاز المادى . . ونوه بالإعجاز العقلى والقيم المعنوية للرسالات  
وقرر إلى جانب ذلك أن الخوارق التي دعت بها الديانات القديمة لم تمنع  
التكذيب بها — أولاً — فلا معنى لطلب التصديق بها أخيراً « وَمَا مَنَعَنَا  
أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ  
مُبْصِرَةً فَقَلَمُوهَا بِهَا . وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا » . ومن ثم اتجه تأييد  
الأنبياء وجهة أخرى .

## المعجزة بين الرسالة الخاتمة والرسالات الأولى

جرت سنة الله في أنبيائه جميعاً أن يؤيدهم بالمعجزات الواضحة وأن يسوق بين أيديهم من الخوارق ما يلفت الأنظار ويستهوى الأفئدة ، ثم ما بيني معالم اليقين وعناصر الاستقرار ودواعي الطمأنينة في النفوس ، وكانت معجزات الأنبياء شيئاً آخر غير الرسالات التي يبشرون بها ويدعون إليها ؛ فطب عيسى غير إنجيله ، وعصا موسى غير توراته ، إلا أن الله شاء أن يجعل معجزة الرسالة الأخيرة شيئاً لا ينفصل عن جوهرها ، فجعل حقائق الرسالة ودلائل صحتها كتاباً واحداً ، وجعل من أصول الدعوة وأساليب عرضها البرهان الأكبر لدعوى الرسالة ، والسناد الأعظم لصديق صاحبها ! فأى القرآن الكريم بما تتضمن من دساتير العدالة الخلقية والاجتماعية والسياسية ، وبما تفرس في الطبايع من آثار الأدب والتربية والاستقامة ، هي رسالة الإسلام ومعجزته ! وأعظم ما في هذه الآيات أن الفطرة الإنسانية تجد فيها مجالها الحيوى الفذ ، وتجد في جوها المتنفس الطلق الحر . ومن ثم كان القرآن كتاباً إنسانياً ، وكان نبي القرآن إنساناً كاملاً ، وكانت رسالة الإسلام في موضوعها وأهدافها إنسانية بحتة . ولذلك توجه القرآن مباشرة إلى العقل البشرى يخاطبه ويفك عنه آصاره ، ويرد عنه اعتباره وأكده القرآن أن أصحاب هذا العقل وحده هم الذين يستطيعون فهمه وتبين معانيه « أَمْ مَنْ يَعْلَمُ أَنْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ؟ إِنْ مَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ » . بل إن أصحاب هذا العقل وحده هم الذين يفهمون رسالة الوجود ويفقهون أسرار الكون ، « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » . فلتكن إذاً معجزة نبي الإسلام عقلية . وما دام البشر يحترمون عقولهم فستبقى



لهذه المعجزة قيمتها ، أجل . . . ستبقى لهذه المعجزة قيمتها ما بقى العقل أنفس  
شيء في الحياة . وما استلهم الناس عقولهم في الحكم على الأمور وفي قيادة  
الإنسانية إلى آفاق الترقى والسكال .

### مقترحات كافرة

غير أن هذا المنطق لم يكن ليلقى القبول الواجب له عند أعراب الجزيرة  
وبقايا القرون الأولى وصرعى الأوهام والخيالات ، إذ كان أقصى ما يفكر فيه  
هؤلاء أن يشاهدوا خارقا يقرب البحر بجزراً أو الخصب جدبا ؟ وعندئذ يلقون  
السلم ويدخلون في الإسلام ، ولم يكن شيء من هذا الذي افترحوه عزيزاً  
على قدرة الله . ولكن حكمة الله أبت إلا أن تغالى بقيمة العقل الإنسانى الذى  
أرخصوه ، وإنه لعزير على هذه القدرة العليا أن تعطى الإنسان عقلا يصنع  
المعجزات — إذا ما اعتنى به والتفت إليه — ثم تترك هذا الذى أعطت يضيع  
عبثاً ، وتستجيب لرغبات الجاهلين الذين سفهوا أنفسهم وأفكارهم ، وأبوا تحكيم  
مشاعرهم وعقولهم وطالبوا بمعجزات مادية قليلة أو كثيرة لتصديق نبيهم . وكان  
لابد في معاملة أولئك القوم من سلوك منهج يرغم آنا فهم على احترام العقل  
الإنسانى لمصلحتهم ولمصلحة الأجيال من بعدهم !!

ولذلك تقرر أن تكون المعجزة الكبرى لمحمد صلوات الله عليه وسلامه  
هى هذا القرآن الكريم ، فيه كان التحدى وعليه كان الرسول يعتمد في سيرته  
مع خصومه وأصحابه طول حياته ، ومن بعده ظل القرآن كتاب الإسلام  
الناطق بدعوته وحجته معاً ، إلا أن الحكمة الإلهية اقتضت أن تبث في طريق  
الرسول أنواعاً من الخوارق التى أيد بها النبيون الأولون فجاءت هذه الخوارق  
تحمل طابعاً خاصاً ينبغى أن نعرفه حتى لا نتجاوز به حدوده الصحيحة . . .

هذه الخوارق ثانوية الدلالة في تصديق النبوة والشهادة لها ، والطريقة التي أرسلت بها من عند الله تشير إلى أن الحكمة الإلهية لم تعلق عليها كبير أهمية ، ولم تفضَّ بها من قيمة المعجزة العقلية التي انفرد الرسول بها ، فقد حدثت جملة من هذه الخوارق بين المؤمنين الذين استقر الإيمان في قلوبهم فعلا ؛ والذين سبق لهم تصديق النبي في دعوته لأنهم أعملوا عقولهم واحترموا إنسانيتهم ، وحدث بعض آخر أمام أعين الكافرين ، بيد أن الصورة التي تم بها تثير الدهشة . إذ كانوا يقترحون معجزة فتايتهم أخرى أو يأتي ما يقترحون بعد سنين طوال وعلى وجه يبدو منه أن إجابتهم إلى ما طلبوا لم تقصد أصلا ، ور بما تهمل مقترحاتهم كلها فلا ينظر لها قط فما معنى ذلك ؟ وما السر فيه ؟

### حقيقة الإعجاز المادى

بين الله عز وجل أنه فصل في كتابه كافة أسباب الإيمان وأسانيد النبوة ، ولكن الناس أبوا الرضا بهذا اللون من الإقناع « ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فآبى أ كثرُ الناس إلا كفورا » وماذا بعد أن كفروا ؟ طلبوا أشياء معينة زعموا أنها وحدها هي التي تدعوهم إلى الإيمان « وقالوا : إن نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَحِيلٍ وَعَنْبٍ فَتَفْجُرَ الْأَهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ . . » إلخ ودعك من المطالب التي أملاها العناد والسخف من سلسلة هذه المقترحات الطويلة ثم تأمل . . أتفجير ينبوع من الأرض ينظر إليه البشر على أنه عمل تنزل قوى من السماء لإتمامه ؟ فما هو إذاً عمل القوى الإنسانية ؟ إن المرء في طفولته يعتمد على أبيه دائما في جلب كل خير وإتمام كل عمل ، أفليس من حق الأب إذا رأى ابنه جاوز دور الطفولة أن يضربه على يديه ، ويتركه يتجشم وحده مشقة السعي واقتحام المستقبل وتحمل أعباء الرجولة ؟



هكذا صنع الله مع عباده ، لقد أرضى الإنسانية في طفولتها بألوان صارخة من الخوارق ، حتى إذا اشتد عودها واستوى فكرها تركها لتستخدم مواهبها الفكرية ، ولتبتين الصواب والخطأ ، فإما هلكت عن بيعة أو نجت عن بيعة ويوم أن تعرف البشرية « العقل » في قبول دين أو رفضه فستعرف من تلقاء نفسها كيف تستغل هذا العقل في تفجير الينابيع وتحويل رمال الصحراء إلى حدائق غناء ! وهذا بعض ما طلب أعراب الجزيرة من رسول الله ليصدقوا رسالته . !

وقد طلبوا منه أن يرقى في السماء ، لكن الله أحب أن يكشف لهم عن سقم البواعث التي توحى بهذه المطالب ، وأن يشير فيهم الإيمان بإنسانيتهم المهذرة ، وأن يرد الحرمة إلى عقولهم المحترمة ، وأن يعلمهم تكريم البشرية المجردة بالإيمان بنبي البشرية المبعوث لمد ضيائها وبسط روائها ، ولذلك يهتف القرآن عقب هذه المقترحات : « قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا » ؟ وقد حدث بعدئذ أن رقى النبي في السماء ليلة الأسراء -- بعد تقديم هذه الاقتراحات بأمدة طويل -- فسكان وقوع الارتقاء على هذا النحو دليلاً ناطقاً على أن الحكمة الإلهية لم تكثر قط بمطالب الكفر ولم تعرها أية قيمة . بل جاء الرقى في السماء ليلة المعراج مظهر تكريم بحت من الله لنبيه لم تنزل به الإرادة العليا على رغبة بشر . ولم يرتب على إيقاعه ما يترتب غالباً على وقوع التحدى من إيمان أو كفران . بل تركت مسألة اتباع النبي أو التخلف عنه موكولة إلى المعجزة العقلية الفريدة معجزة القرآن الكريم ! « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ » .

وقد أقسم المشركون مرة أنهم يؤمنون لدى أية معجزة مادية تقع ! كما يضرع الشاب لوالده أن يرضى نوازع طفولته ثم يسمى بعدئذ رجلاً !

فأبى الله إلا أن يردمهم إلى أفئدتهم وأبصارهم ، يتعرفون بها الحق ويثبتون بها عليه ؟ فإن معجزات الأرض والسماء لا غناء فيها إن لم يستتر القلب والعقل بما أودع الله فيهما من نور « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا . قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ؟ وَنَقَلَبُ أَمْتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ . . » ويزيد هذا المعنى جلاء قول القرآن في تصوير موقف الكافرين وبيان ما انطوت عليه أفئدتهم وأبصارهم من عناد وغباء « وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ » .

فإذا تجدى المعجزات المادية مع هؤلاء وهم إنما ضلوا لاستغلاق قلوبهم وعقولهم ، وهم لو فتحت قلوبهم لا كتفوا بالقرآن آية لا نعلوها آية ومعجزة لا تدانيها معجزة « أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا . » إن الذين ارتدوا على أذبارهم من بعدما تبين لهم الهدى الشيطان سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ .

## النبي الإنسان

ولئن كان القرآن هو الكتاب الذي يصور للإنسانية آفاق كمالها . فإن محمداً صلوات الله عليه وسلامه هو الرجل الذي حقق في شخصه وفي آثاره أعلى ما تنشده الإنسانية من مثل . فقد رفع شأن « الضمير » عندما أعلن أن التقوى تستقر في القلوب الزكية ولا تغنى عنها قشور العبادات ، وثبت قيمة العقل وجعله أصل دينه وأسس عليه المسلمون حضارة متشعبة الثقافات والفنون وصلت ما انتقع من تراث الإنسانية الفكرى وكانت البذور المنتجة التي أورثت العالم حضارته الحديثة ! ثم إن هذا النبي هو المحرر الأول للإنسان



والمقرر الأول لحرية العقل والضمير ! لقد جعل الكون كله مسخراً لنشاط الإنسان الذهني والبدني ، وجعل الإنسان سيداً في نفسه ، سيداً لعناصر هذا العالم ، عبد الله فقط ، فلا سلطة البتة لدهاقين السياسات والديانات .  
ونبي الإسلام عربي ، ولكن الدين الذي جاء به لاجنسية له ، وأى جنسية لدين يخاطب العقل حيث كان ، ويبني أدلته على النظر في فجاج الأرض والسموات ؟ .

### بين النبوة والعبقرية

تاريخ البشر حافل بأسماء الكثيرين من أصحاب المواهب الرفيعة والكفايات الضخمة وعظم الإنسانيّة في ذاكرتها ، وسجلت لهم في صحائف الخلود ما قاموا به من أعمال جليلة ، وروت للأجيال آيات مجدهم وآثار نبوغهم لتكون منه عبرة حافزة .

والعظمة قدر مشترك بين أوف من الناس ظهرُوا في شتى الأعصار والأمصار ودفعهم امتيازهم المعنوي إلى اعتلاء القمة . إلا أن العظمة يتفاوتون فيما بينهم تفاوتاً بعيد المدى . ألا ترى كواكب السماء ونجومها ؟ إن بعضها أكبر من الآخر ألف ألف مرة ، ومع ذلك فالدراري الصغيرة ليست من قبيل الحصى والجنادل ! .

فإذا محصنا تواريخ العظمة . وفيهم الأنبياء من مبلغ الوحي وفيهم الفلاسفة من قادة الفكر ، وفيهم المخترعون من علماء الكون وفيهم الزعماء من قادة الجماهير ، وفيهم الأدباء من حملة القلم ، وفيهم . فيهم ، فإن هذا التمهيص وما يستتبعه من موازنة وترجيح لا يميل بقدر أحد من أولئك العظمة إلى الحد الذي يهوى فيه إلى منازل السوق .

## العباقرة

كثيراً ما تكون العظمة امتداداً في موهبة من مواهب النفس . بل كثيراً ما يكون هذا الامتداد على حساب المواهب الإنسانية الأخرى ، فإما أصابها بالضمور والشلل ، وإما ردّ النواحي الأخرى من شخصية العظيم إلى مثيلاتها في سائر الناس ، بل قد تكون أبعد سقوطاً وأشدّ ضراوة ، ومن هنا لا تعدم في سيرة كل عظيم من أولئك المشهورين نقطة سوداء وجانباً غامماً . . . كان ( نابليون ) قائداً محنكاً مسعراً حروباً ولكنه كان ساقط الخلق فاحش الصدر وكان ( جاك روسو ) أديباً ثائراً من أعظم واضعي دساتير الحرية في العالم ، ولكنه كان معوج السلوك هزيل الشرف ، وكان ( بسمارك ) داهية في السياسة لا يبارى ، وكان كذلك كذاباً مزوراً ، وهناك من الفلاسفة والشعراء والمفكرين والمحترعين من تفجؤك في أحوالهم وأعمالهم أمور شائنة تستغرب كيف يصدر مثلها عنهم !! وهم — مع هذا كله — عباقرة لأن إنتاجهم العلمي والأدبي وتراثهم الرائع الفريد يسمو بهم فوق مستوى العامة .

والذين طهرت سيرهم من هذه الشوائب ، تراهم مبرزين في ناحية ومعتادين في ناحية أخرى ، أو مرضى بما يفسد عليهم أفكارهم . فأبو العلاء الأديب الرقيق المتشائم ، لو وهب معدة قوية أو بصراً حاداً لكان لفلسفته اتجاه آخر غير التبرم بالدنيا وتسخط الوجود فيها .

ومن أعظم زعماء العالم من تراه أسير عقدة نفسية أو شذوذ جنسى أو أثره حادة ! ومنهم المصابون بجنون العظمة وتقديس الذات وكرهية شيء معين أو محبته ! ولذلك تنسم حياتهم بالنقائص الموزعة على جانب مستور منهم ، وجانب مكشوف للجباهير لا غبار عليه .



وقد اعتبرت الحضارة الأوربية هذا التناقض شيئاً عادياً مألوفاً ، ومن ثم أباحت للعطاء أن تكون لهم شخصية مزدوجة . ورأت أن تنتفع الأمم بمواهبهم وأن تتجاوز لهم عن سقطاتهم . والإنجليز يعرفون أن « نلسن » مات وهو يختلس عرض غيره ، ولكنهم يفضون الطرف ، ويعرفون أن « تشرشل » خان عهداً شخصية واجتماعية ، بيد أنهم يتعامون عنها . فلندع هذا الفريق الممدود من زعماء العالم ولنرتفع . أجل لنرتفع كثيراً ، لنصل إلى مستوى أكرم وأطيب . ولنتكلم عن صنف آخر . . . هم :

### الأنبياء

لئن كانت العبقريّة امتداداً في موهبة واحدة أو في جملة مواهب فالنبوة امتداد في المواهب كلها ، واكتمال عقلي وعاطفي وبدني ، وعصمة عن الدنيا ورسوخ في الفضائل وعراقة في النبيل والفضل .

هم الرجال المصاييح الذين هم كأنهم من نجوم حية صنعوا أخلاقهم نورهم من أي ناحية أقبلت تنظر في أخلاقهم سطعوا فالذين يُرشدون للنبوة يصطفون لها اصطفاء . قلوب نقية تربطها بالملأ الأعلى أوامر الطهر والصفاء ، وعقول حصيفة ناضجة لا تنخدع عن حقائق الأشياء ، ولا يصيبها ما أصاب كبار الفلاسفة من شرود وعماء ، وأجسام مبرأة من العلل الخبيثة والأمراض المشوهة أو المنفرة . وصلة بالناس قوامها البر والخير فليس يتصور في حق نبي لله أنه أخل بحق المرءة والتفضل ، بله أن يرتكب ما يخذش الشرف ، أو يقدهح في العصمة !

ثم إن الرسل أمناء على الوحي السماوي والهداية الإسلامية فكلامهم حكمة ، وحياتهم أسوة . سريرتهم وعلاقتهم سواء . ( ليست لأحدهم صفحة

مطوية وصفحة مكشوفة ) طرائق معيشتهم الخاصة كنهاج دعوتهم العامة ،  
تنضح عفافا واستقامة ظلوا ، بين الناس ماشاء الله فكانت مجتمعاتهم بركة ثم  
قبضوا خلفوا أقدس مواريث وأقدس تركة ، وحسبك أنهم خيرة الله من خلقه  
« اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » . « اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا  
وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ  
وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » .

وأقدار الرسل تتفاوت سناء وسمواً ، فالرسول في قبيلة محدودة أفضل منه  
الرسول لمدينة فيها مائة ألف أو يزيدون ، أفضل منه الرسول لشعب بأسره .  
وصاحب الكتاب المستقل أفضل ممن يحكم بشريعة سابقة . ولا تزال ترقى  
في مراتب العظمة ، ولا تزال تخلق صعداً نحو القمة ، ولا تزال تقطع أشواطاً  
بعد أشواط في مدارج الكمال البشرى ، حتى نصل إلى مستوى تمتعسرونه  
أبصار العباقرة مهما طمحت ، وتتطامن عنده أقدار الأنبياء مهما عظمت .  
لنجد صاحب الرسالة العظمى إلى خلق الله قاطبة ، ملتقى الفضائل المشرقة ،  
ومظهر المثل العليا التي صورتها الخيالات ثم صاغها الله إنساناً يمشى على الأرض  
مطمئناً ، ذلكم هو محمد بن عبد الله ، وذلكم منزله بين عباقرة الأرض  
وأمناء الوحي !

أفق للمجد يزهو على كل أفق ، وتسطع فيه أشعة متموجة تنطلق بالحب  
والحنان والرحمة ، والعقل والفراسة والحكمة . هيهات هيهات أن يدرك كنه  
ذلك أحد ، فالعظيم لا يعرفه إلا عظيم مثله . ومن كمحمد في الناس ؟؟  
كيف ترقى رقيق الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء  
لم يساووك في علاك وقد حال سناً منك دونهم وسناء



## مسك الختام

كان المرسلون الأولون مصاييح تضيء في جوانب الليل الذي ألقى بجرانه على أنحاء الدنيا. فلما بدأ فجر الإسلام ينشق عنه الظلام ، وبدأت أشعة الرسالة العامة تتهادى في الأفق ، انتقل العالم من عهد إلى عهد :  
لا تذكر الكتب السوالم قبله طلع الصباح فأطفىء القنديلا  
والكلام في عظمة الشخصية التي حملت عبء هذه الرسالة يطول ،  
وحسبنا أن الله عز وجل جمع في سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من شارات  
السيادة والنبالة ما تفرق في النبيين من قبل . ولقد ذكر الله أسماء ثمانية عشر  
نبياً فيهم أولو العزم وأصحاب الرسالات الأولى ثم قال : « أُولَئِكَ الَّذِينَ  
آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا  
قَوْمًا لَيَسْوِبَهَا بِكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ آقَدْتَهُ . قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ  
عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » . وهذا الأمر بالافتداء كان  
مائلا في ذهن النبي صلوات الله عليه وهو يقوم بتبليغ الدعوة . فلما طعن  
أحد المنافقين في تصرف له وهو يقسم الغنائم قائلا : هذه قسمة ما أريد بها  
وجه الله . كظم النبي صلى الله عليه وسلم غيظه وقال : « رحم الله موسى لقد  
أودى بأكثر من هذا فصبر » .

ومن ثم قال المفسرون في شرح هذه الآية : إنها تومىء إلى فضل الرسول  
على من سبقه ، فإن خصال السكالم التي توزعت عليهم التقت أطرافها في شخصه  
الكريم . كان نوح صاحب احتمال وجلد وصبر على الدعوة . وكان إبراهيم  
صاحب بذل وكرم ومجاهدة في الله . وكان داود من أصحاب الشكر على النعمة  
وتقدير آلاء الله . وكان زكريا ويحيى وعيسى من أصحاب الزهادة في الدنيا

والاستعلاء على شهواتها . وكان يوسف ممن جمع بين الشكر في السراء والصبر في الضراء . وكان يونس صاحب تضرع وإخبات وابتهاال . . وكان موسى صاحب شجاعة وبأس وشدة . وكان هرون ذا رفق . حتى تنظر إلى سيرة محمد بعد هذه السير السابقة فتراها كالبحر الخضم تصب فيه الأنهار :

فبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

### موئل البطولات

من ذوى المواهب من إبعيـشون في عزلة قصية عن الجماهير ، ويؤثرون البقاء في البرج العاجى عما تستتبعه مخاططة الناس من سخط وتبرم . ومنهم من يلقي بنفسه في معترك الحياة ومعه عدة النجاح من عمق النظرة وذكاء الفكرة والبصر النافذ إلى أدواء الشعوب وأدويتها . غير أنه مع هذه المواهب الجليلة ضيق العاطفة لا يآلف إلا القليلين ممن هم على شاكلته في المزاج أو من يتفوقون معه في الأهداف . ومن العظام من أوتى امتداداً في شخصيته وبسطة في مشاعره تجرف الناس إليه وتعلق القلوب به . ولسنا نقصد بهذا قوة السيطرة على العامة والقدرة على تحريكهم وتسخيرهم . كلا كلا وإنما نقصد هذا النوع من العظام الذى يلتفت به أصحاب الكفايات الكبيرة ، ويرمقونه بالإجلال ويقدمونه على أنفسهم عن طواعية واختيار ، واقد ظهر أفراد قلائل من زعماء الشعوب على هذا الفرار الفذ ، وتركوا في تاريخ أممهم أثراً لا يمحي

على أن الإنسانية لم تعرف في ماضيها الطويل ولن تعرف رجلاً وقَّره الأبطال وكرمه العظام وانطبعت محبته في شغاف القلوب كما عرف ذلك في النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم . كان أصحاب الشجاعة في القتال يحبونه لأنه أشجع منهم حين تحمر الحدق ويشدد البأس . وكان أصحاب الحدق



في السياسة والتدبير يحبونه لأنهم يرونه أكثر منهم مرونة وأرحب أفقاً .  
وكان الأجواد الأسخياء يرونه وقد ملك وادياً من الإبل والغنم فما غربت  
عليه الشمس إلا وهو منح وهدايا للطالبيين والراغبين ، وكان العبّاد يرونه صواماً  
قواماً ، والزهاد يرونه عفيفاً مترفعاً وأصحاب البيان واللسان يرونه فصيحاً معرباً  
حتى المعجبون بالقوى المادية كانوا يرونه مصارعاً يهزم العالقة . . وهكذا  
ما عرف أحد من العطاء ميزة في نفسه يفخر بها إلا وجد رسول الله على  
خلق أعرق منها وأرقى . ولذلك يرفع إليه بصره مثلما يرفع الناس أبصارهم  
إلى القم الشواهِق التي لا تنال ! ! ومع هذا الجلال الفارع وذلك الامتياز  
الرائع ، فقد كان هذا الرسول الأمين قريباً بسهولة طبعه من كل فرد ، فما  
يعز مناله على أرملة أو مسكين ، بل بلغ من اتساع عواطفه وتدقق مشاعره ،  
أن كل فرد كان يحس في نفسه أنه آثر الناس عند رسول الله وأقربهم إليه  
وأعزهم عليه .

كالشمس ترسل أشعتها فيستمتع الجميع بها ، ويأخذ كل امرئ حظه من  
الدفء والحرارة والمتعة ، لا يحس بأن أحداً يشاركه فيها أو يزاحه عليها . . .  
كذلك كان محمد مع صحابته ، يأوون من نفسه الكبيرة إلى كنف رحيم .

### الوصف بالعبقرية

يقولون إن النبوة هبة لا كسب وفضل يندق لا نصيب يطالب به ويسعى  
إليه وهذا حق « أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ » . « أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِرُ رَبِّكَ ؟  
أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ ؟ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعَهُمْ  
بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ » .

بيد أن هذا الخبير لا ينزل اتفاقاً ولا يدرك اعتباطاً ! وقد حاول شاعر في

الجاهلية بكثرة الكلام في الإلهيات أن يكون نبياً ففشل ، وتوقع نفر من الأحرار والرهبان أن يصيبوا هذا الشرف فقاتهم مع تشوقهم إليه ورغبتهم فيه . إن الله سبحانه وتعالى يختار لهذا المنصب العظيم أهله !!

ومن ظن أن العصمة تمنع المحنة والابتلاء ، أو أن الرسل الكرام ليسوا أكثر من حملة وحي ، وظيفتهم التبليغ المجرد ، كأن أحدهم مكبر صوت تنفخ من ورائه الملائكة فليست له مواهب ولا استعداد خاص ولا امتيازات رفيعة . من ظن ذلك فقد ضل في فهم المرسلين وجهل ما حباهم الله به من خلال تجعل أعظم فلاسفة الأرض لا يصل إلى مصاف أقدامهم ! .

إن الكُتَّاب الذين ألقوا في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ووصفوه بالعبقرية يمكننا أن نقبل منهم هذا الوصف بحذر وبقدر . نقبله إذا كان القصد منه كشف النقاب عن معالم العظمة الشخصية وإلقاء ضوء على البطولة الأدبية لأولئك المصطفين الأخيار .

ونقبله إذا كان القصد منه الاعتراف بمبدأ الوحي الذي يصل المادة بما وراء المادة . وهذا هو أساس النبوة الأول . ونرفضه إذا كان وصفاً لعظمة إنسانية معتادة تسلك صاحبها مع غيره من رجال التاريخ البارزين . ذلك موقف المسلم من جمهرة المؤلفين والمؤرخين ممن كتبوا في حياة النبي الأمين .

## الإيمان بالنبوات كلها

جعل الله - سبحانه وتعالى - التصديق برسله كلهم ركناً في الدين وقرن أسماءهم بذاته المقدسة فأصبح الإيمان بهم متعاً للإيمان به « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ . لَا نَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا



وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» والإيمان بمحمد رسول الله هو الشطر الثاني من شهادة الإسلام . لا يصح إيمان إلا به وإنما كان للإيمان بالنبوات هذه المنزلة لأن معرفة الله على وجهها الصحيح ، وفهم ما يريد له عباده ويطالبهم به إنما يكون عن طريقهم وخدمهم . والارتباط بالرسل ليس تعلقاً بأشخاصهم من الناحية البشرية البحتة ، بل هو ارتباط بالوحي الذي شرفوا به والأسوة التي تؤخذ منهم . ومن ثم يقول الرسول الكريم : « ان يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » ويقول الله تعالى : « فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ! فَلَنَقْصُنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ » .

\*\*\*

وسريان الفساد إلى الديانتين الكبيرتين السابقتين على الإسلام اليهودية والنصرانية وما طرأ عليهما من تغير وداخل كتبهما من تحريف ، جعل الإسلام هو الطريق الفذة للإيمان السليم ، فن كتاب محمد وحده ومن سنته وحده يفضي الناس إلى الحق . والأبواب إلى الله في عصرنا هذا مهما وقفت عليهما في اليهودية أو النصرانية فلن تفتح لك مغاليقها ، أما في الإسلام وباسم نبيه الكريم محمد فستنفذ وراء النبي العابد ونهجه الخالد وقرآنه المحفوظ وسنته المصونة فتعرف ربك عن يقين وتعرف ما يكلفك به من غير تزوير ولا تحوير !! من أجل ذلك اعتبر الإيمان بمحمد شرطاً لصحة الإيمان بالله « الذين كفروا وَصَدُّوا عن سبيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَاهُمْ . والذين آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَمَنُوا بما نُزِّلَ على محمدٍ وهو الحقُّ من ربِّهم — كَفَرَّ عنهم سيئاتهم وَأَصْلَحَ بِاللَّهِم ذلك بأن الذين كفروا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ . وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ من ربِّهم كذلك يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ » .

ولا تحسبن هذا غلواً في تزكية مخلوق أو افتياتاً على حق الخالق أو تجنياً على أتباع الرسل الأولين ، فإن عيسى وموسى صلوات الله عليهم ساروا بالناس إلى الله على بصيرة وهم لا يدرون ما فعل أشياعهم من بعدهم ، ولو عادوا إلينا أحياء لكانوا أول من يبرأ من الكتب المدسوسة عليهم ، وأول من يستمع لآيات الذكر الحكيم ويبادر إلى تنفيذ أحكامها ووصاياها . . . ثم إن الله لما ضم الإيمان برسله إلى الإيمان به جعل الكفر بواحد منهم كفراً به — جل شأنه — وبهم جميعاً « إن الذين يكفرون بالله ورُسله ويُريدون أن يفرّقوا بين الله ورُسله ويقولون نُؤمنُ ببعضٍ ونكفرُ ببعضٍ ويُريدون أن يتخذوا بينَ ذلك سبيلاً . . . أولئك هم الكافرونَ حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً . والذين آمنوا بالله ورُسله ولم يفرّقوا بين أحدٍ منهم أولئك سوف يُؤْتيتهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً » .

\*\*\*

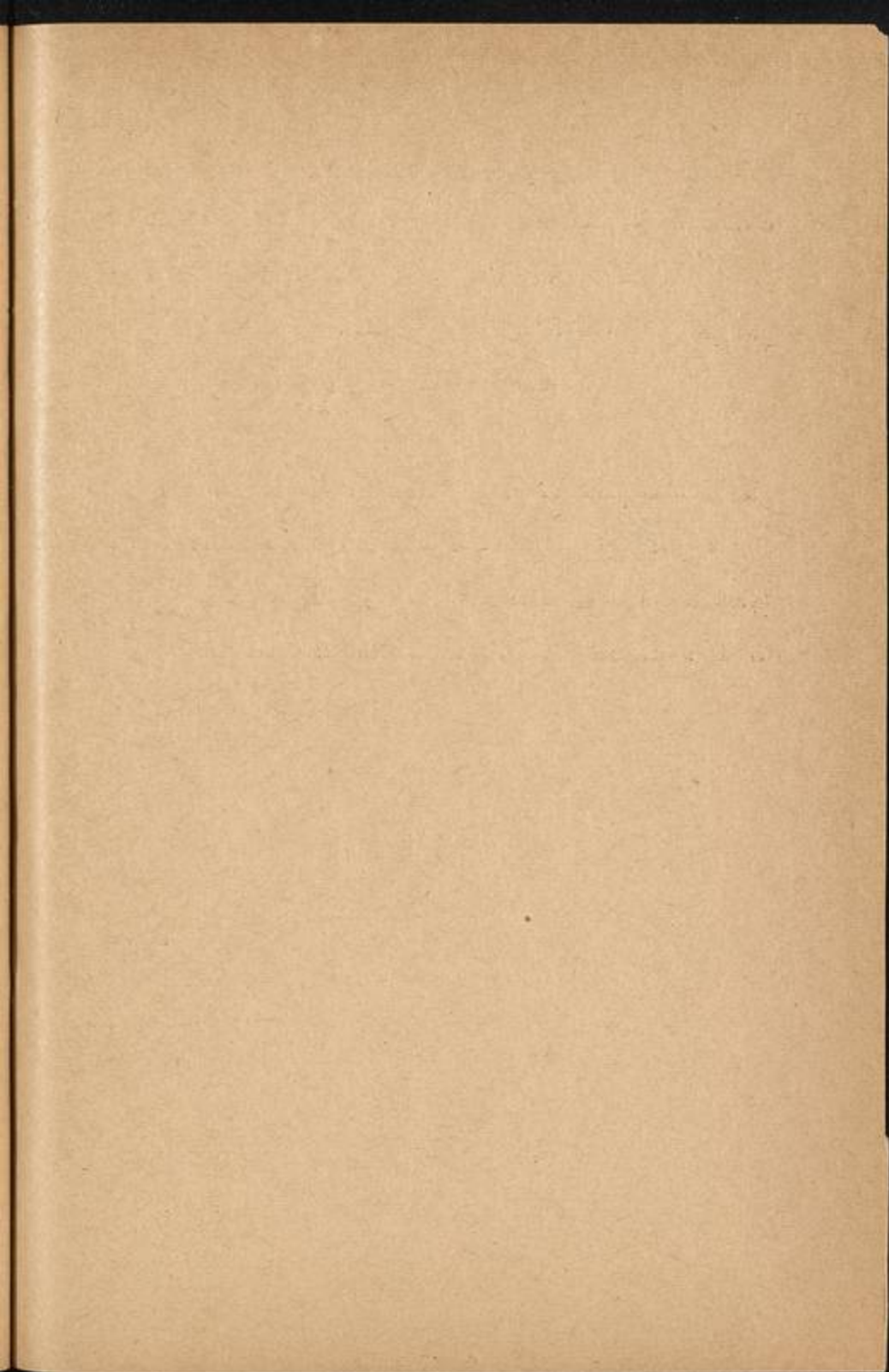
ومحمد خاتم المرسلين أكمل الله به صرح النبوات وأتم به حقيقة الرسالات « إن مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون ويتعجبون له ويقولون هلاًّ وُضعت هذه اللبنة فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » فإذا جاء من يدعى النبوة بعده فهو كاذب ، ومن صدقه فهو كافر . وقد ظهرت طوائف من الحنقي تتبع رجلاً اسمه البهاء يدعى النبوة ، ويطؤون نحلهم وراء قناع من التمسح بالإسلام وإظهار التصديق به وبغيره من الأديان . وهم ليسوا من دين الله في شيء . وبهاؤهم دجال وتعاليمه زور وبهتان . وليس بعد القرآن وحى « فإذا بعد الحق إلا الضلال » ؟ وقد حذرنا النبي صلى الله عليه وسلم قبل



موته من هؤلاء المخرفين قال : « يكون في آخر أمتي أناس دجالون كذابون يحدثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم . فإياكم وإياهم لا يضلونكم ولا يفتنونكم »  
وفي حديث آخر : « إنه سيكون في أمتي ثلاثون كذاباً ، كلهم يدعى أنه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدى — ولا تزال الطائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك » .

\*\*\*

وقد عرفنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمور تتصل بعقائدنا لم تكن عقولنا لتستطيع وحدها أن تدركها أو تعي تفاصيلها . وهي تتعلق بما وراء الحياة من غيوب ، وقد قلنا : إن العقل المجرد قد يعرف أطرافاً منها بالتأمل والنظر ، ولكن المعصوم قد أعطانا عنها فكرة كاملة ، فسندرسها عن طريقه ونؤمن بها تبعاً له ، فهي مما جاء به .





(٩)

الخالون

## هذي الحياة ...

قبل أن نأتى إلى الحياة الدنيا ، كم سبقتنا من عصور ؟

وبعد أن نغادر هذه الحياة ، كم ستعقبنا من أجيال ؟

ومانسبة هذا العمر المحدود بين ماسبقه ومالحقه من أزمنة ؟ إنه قليل

قليل ! ولكن من هذا القليل الممنوح لى ولك تمسكون الحياة الدنيا ! ! من

هذا الظهور المحفوف بالفناء قبله والخفاء بعده تعمر الأرض !

فى طريق الحياة الممتد يجرى جيل من البشر ومايزال يجرى ، حتى إذا

نال منه الكلال وأدركه الإعياء مات ، وقبل أن يخلو الطريق من الأنفاس اللاهثة

والأقدام اللاعبة يثبت جيل آخر يستأنف السعى ويمثل الدور نفسه ، ويسحب

الجيل المنهوك فيلُفُّ فى الأكفان ويوارى فى التراب ، وينفرد الجيل الجديد بالسعى

حتى إذا لحقه ماأصاب خلفه سحب كذلك وحىء بآخرين . . وهكذا دواليك .

هذه هى مواكب الحياة . . . عمل متواصل من أعمار متقطعة ! والعجيب

أن هذا العمل الموصول يسخرّ القائمين به . فهم لا يحسبون أنفسهم حلقة من

السلسلة المتقطعة المتراخية مع الأمس ، المتطاولة مع الغد ، بل إن الواحد منهم يخذعه

الغرور فما يفكر أنه جديد على الدنيا وأنه كما ظهر فيها نجاة سيختفى بفتة .

كلا إن الغرور يخيل إليه أنه كان من الأزل وسيبقى إلى الأبد ! فإذا جاءه

الموت دهش لمقدمه كأن الموت حدّث غريب ، غير أن الدهشة لا تدفع اليقين .

وكذلك يترك الإنسان الحياة الدنيا .

من الخير المرء وهو فى صحته البدنية ويقظته الذهنية أن يعرف طبيعة

الدار التى يعيش فيها ، فلا يبتى طباقاً عالية على دعائم منهارة .

لكن مامعنى ذلك ؟



أهذا فقط كل حظ الإنسان من الوجود؟ ونبادر إلى الإجابة الحاسمة . لا .  
لئن كانت الحياة على ظهر الأرض بهذه المثابة فالحياة التي تليها هي الأمل  
الأسمى والحظ الأوفر . ولو كان العيش في هذه الدنيا هو كل شيء لسكان  
الانتحار العاجل أولى بالناس أجمعين . . إن الدار الآخرة هي الحيوان ،  
والاستعداد لها هو وظيفة العقلاء في هذه الفترة الضيقة من آجالهم .  
خلق الناس للبقاء فضلت أمة يحسبونهم للنفاد  
إنما ينقلون من دار أعما ل إلى دار شقوة أو رشاد  
والخصيف هو الذي يوزع اهتمامه على كلتا الدارين بقدر ما استحقاقه ،  
فيجعل عمله لهذه بقدر مقامه فيها وعمله لتلك بقدر بقائه فيها . .

### ما وراء الحياة الدنيا

يعلم الناس جميعاً أن الموت نهاية حاسمة لكل حي ، ومصير لا بد أن  
ترده كل نفس . ولكن أكثرهم يأخذ عن الموت فكرة غامضة ويكون له  
صورة مغلوطة مشوهة .

فهم يظنونهم ختاماً لمعنى الحياة ، وابتداء لحالة أخرى لا شعور فيها ولا  
إحساس معها ، ينال الإنسان منها ما ينال الدواب النافقة تحت أكوام التراب  
أو الأنعام المهضومة في بطون الآكلين ! ثم لا شيء بعد ذلك ! وهذا ضلال  
بعيد . . فليس الموت فناء ولا شبه فناء . ربما كان الموت نومة طويلة — كما  
أن النوم الذي نعرفه — وفاة قصيرة ! وقد جعل القرآن الموت قسيماً للنوم وجعل  
الحالتين أعراضاً للأفْس لا تتأثر كثيراً بها « اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا  
وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ  
إِلَىٰ أَجْلِ مُّسَمًّى » .

ولئن كانت الروح تغارق الجسد إلى حين ، فإن ذلك لا يغير من حقيقة الإنسان شيئاً . فالجسد كالثوب يكتسى الإنسان به ويعرى عنه ولا مدخل له في جوهره . ولا يجوز أن نعدّ الموت إلا انتقالاً من مكان إلى مكان لا يتقص فيه إدراك المرء لحقائق الوجود شيئاً ولا يخف إحساسه بها بل ، قد يتضح ويزيد ولو فهمنا تلك الحقيقة لما أكثرنا للموت ، ولما تهيّبنا الإقبال عليه ولما شعرنا بالتوجس من بواده ومواطنه .

## البرزخ

لا يكاد المرء يترك دنيانا هذه حتى يبدأ حسابه ويظهر ثوابه أو عقابه . وقد ساق لنا القرآن الكريم طرفاً من أحوال الناس في هذه المرحلة من حياتهم الآخرة فهو يقول عن الكفار من آل فرعون : « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا . وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » . ويصف نعيم الشهداء ، وترقيهم لإخوانهم وأبنائهم كي يقدموا عليهم ويشاركوهم في السعادة التي غمروا بها : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ . وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » .

وبوادر الشر أو بواكير الخير تظهر في اللحظة الأخيرة من عمر الإنسان على آخر منازل الدنيا وأول مراتب الآخرة . . فقد جاء في السنة أنه في تطمين المؤمن حين يُحْتَضَرُ نزل قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ » .



كما أن نذر العقاب الأليم تواجه الفساق والظلمة في تلك الساعة الحرجة :  
« ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم  
أخرجوا أنفسهم اليوم يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بما كنتم تقولون على الله  
غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون » .

« وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ  
وَأَذْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ  
بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ » .

وللعصاة من المؤمنين حظهم من المتاعب والآلام جزاء تفر يطهم في الواجب  
واستهانتهم بالحرام ، وقد جاء أن النبي صلى الله عليه وسلم مر على قبر دفن فيه  
شخصان . فقال : « يعذبان وما يعذبان في كبير . كان أحدهما لا يستتر من بوله ،  
وكان الآخر يمشى بالنميمة بين الناس » .

والأدلة على ثواب القبر وعذابه كثيرة . تتضافر على إثبات أن قبل الجنة  
والنار مقدمات تحفل بالبشرى أو تطفح بالإندار وفي الحديث : « إن أحدكم  
إذا مات عرض عليه مقعده بالعادة والعشى . إن كان من أهل الجنة فن أهل  
الجنة وإن كان من أهل النار فن أهل النار . . فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك  
الله يوم القيامة » .

\*\*\*

إن الموت — على الحقيقة — طور من الأطوار التي تعرو الحى في سنياه  
المختلفة ، كالطفولة والرجولة والكهولة ، إلا أن هذا الطور يمتاز بأن الروح  
فيه أقوى إدراكاً وأصدق حساً . . ولو تصور المقدمون على الانتحار أى حياة  
يقبلون عليها ، أو أى مرحلة يصيرون إليها لفكروا طويلاً قبل أن يرتكبوا  
حماقتهم ، إنهم يريدون بفعلتهم الشنعاء أن يفروا من الشعور بالضيق ومواجهة

النتائج المحزنة إلى عالم يحسبونه خالياً من الشعور . . ومن رؤية العواقب المحذورة . ! وما دروا أن قوام العالم الجديد الذي يقتحمون أسواره هو الإحساس المضاعف ومجابهة شتى النتائج . . وفكرة الكثيرين عن الموت تغلب عليها الجهالة والكفران ، والقبر في نظرهم مكان يخيم عليه الصمت والظلام ، وتبعث فيه الديدان والحشرات . . فحسب

ولسنا نتجاهل هذا المنظر الكئيب ولكننا ننكر أنه النهاية الحاسمة للعواطف الجياشة بالخير والمشاعر المحتاجة بالشر ، وما اتبني على هذه وتلك من حضارات وعمران ، وخصام ووثام . . إن هذا المنظر يخفى وراءه — في عالم لا ندره — سهولا فسيحة تحفل بالأزهار والنوار ، وتفوح منها العطور المنعشة أعدها الله للمؤمنين الصالحين ، وتم وهاد أخرى تدع فيها الأنفس الشريرة وتئن تحت وقع المطارق المنهالة والمقامع المحماة أعدها الله للفاسقين عن أمره الظالمين خلقة ، وقد كان رسول الله صلوات الله عليه وسلامه يفيض في شرح الحقائق المتصلة بهذا العالم المغيب حتى ليكاد سامعوه يرون آفاقه رأى العين ، الصحو منها والغائم ! وذلك حتى يؤسس في أفئدتهم يقيناً بأن الموت المرتقب مرحلة تلي هذه الحياة كما تلي الرجولة الطفولة ، وإن وقفة مفاجئة لوجب هذا القلب الدائب الخفقان ترمى بالمرء في أحضان هذا العالم الحق . وإليك هذا الوصف المفصل لمقدمات اليوم الآخر كما يعرفنا به رسول الله . إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل عليه ملائكة من السماء بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة .

حتى يجلسوا منه مد البصر ، ويحيىء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الطيبة ، اخرجي إلى مغفرة من الله



ورضوان ، قال فتخرج ، فتسيل كما تسيل القطرة من السماء ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين ، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ، ويخرج منه كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض . قال فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الطيب ؟ فيقولون فلان بن فلان ، بأحسن أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له فيفتح له ، فيشيعه من كل سماء مُقَرَّبَها إلى السماء التي تليها ، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل اكتبوا كتاب عبدى في عليين ، وأعيدوه إلى الأرض في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه ، فيقولان : من ربك ؟ فيقول : ربي الله فيقولان : ما دينك ؟ فيقول : ديني الإسلام . فيقولان : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله . فيقولان : ما يدريك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله ، وآمنت به ، وصدقته ، فينادى مناد من السماء : أن قد صدق عبدى ، فأفرشوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة ، قال فيأتيه من رَوْحها وطيبها ، ويفسح له في قبره مدَّ بصره . قال ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح ، فيقول أأبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعده فيقول : من أنت فوجهك الوجه الحسن يجيء بالخير ، فيقول : أنا عمالك الصالح فيقول : رب أقم الساعة ، رب أقم الساعة ! حتى أرجع إلى أهلى ومالى . وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة سود الوجوه ، معهم المسوح ، فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة ، اخرجى إلى سخط من الله وغضب ، فتنفرك في جسده ، فينزعها كما ينزع السفود من الصوف المبلول ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة

عين حتى يعملوها في تلك المسوح ، ويخرج منها كأتين جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملاء من الملائكة إلا قالوا ما هذه الريح الخبيثة ؟ فيقولون : فلان بن فلان ، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا ، حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتح له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ( لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ) فيقول الله عز وجل اكتبوا كتابه في سجين ، في الأرض السفلى ، ثم تطرح روحه طرْحاً ، ثم قرأ ( ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق ) فتعاد روحه في جسده ، ويأتيه ملكان ، فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ! قال فيقولان : ما دينك ؟ فيقول هاه هاه لا أدري ! قال فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول هاه هاه لا أدري ! فينادى مناد من السماء أن كذب فافرشوه من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلعه .

ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول : أبشر بالذي يسوءك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول : من أنت فوجهك الوجه القبيح يجيء بالشر ، فيقول : أنا عمك الخبيث فيقول : ربى لا تم الساعة .

وفي رواية له بمعناه وزاد فيأتيه آت قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول أبشر بهوان من الله وعذاب مقيم ، فيقول : بشرك الله بالشر ! من أنت ؟ فيقول : أنا عمك الخبيث ، كنت بطيئاً عن طاعة الله سريعاً في معصيته ، فجزاك الله شراً ، ثم يُقَيِّضُ له أعمى أصم أبكم في يده مرزبة لو ضرب بها جبل كان تراباً فيضربه ضربة فيصير تراباً ثم يعيده الله كما كان



فيضربه ضربة أخرى ، فيصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين ، قال البراء ثم يفتح له باب من النار ويمهد له من فرش النار .

ونحن لا ندرى عن كنه الجزاء في القبور شيئاً . ولا حدود ما يصيب الأبدان والأرواح منه . . نعم . نحن نوقن بهذا الجزاء ، أما كيف يقع ؟ وأما البحث في التفاصيل الواردة به ؟ وأما التساؤل عن طرائقه بعد بلى اللحم والعظم فهذا مالا نستطيع الخوض فيه . لأن أمر المادة كأمر الروح غريب . وما يتجلى للناس من خصائص الحياة وأسرارها يوماً بعد يوم يجعلنا نصدق ماخبرنا به الوحي ونكل دقائقه للمستقبل . ولا نحب أن نرجم فيه بغيب .

### عمر الفرد وعمر الدنيا

عندما ينقضى أجل الإنسان من فوق ظهر الأرض يسافر إلى الآخرة تاركا خلفه الناس يكدحون ويؤملون . فإلى متى يتصل هذا العمران ويبقى بنو آدم يؤدون رسالتهم في هذه الحياة ويتخرجون من تجاربها المضنية إما إلى الجنة وإما إلى النار ؟ متى يأذن الله بانتهاء عالمنا هذا الذي تتوارث الأجيال أفراحه وأحزانه وتزحمه بصراعها الدائم تارة على الحق وتارات وتارات على الباطل ؟ متى ؟

الظاهر من نصوص الدين أن للدنيا نهاية مقررة لا تعدوها . شَقَّ بَعْدَهَا السماء وتهد الأرض وتغيض البحار ويهلك الحرث والنسل ، وتطوى الصفحة الخافلة بتاريخ رهيب من بدء الخلق إلى فئاته .

وكأن للإنسان عادة — قبل أن يحين أجله — أعراضاً تؤذن بموته من شيخوخة أو مرض أو غيرها . فللإنسانية كلها قبل انتهاء أجلها أعراض إذا ظهرت عليها دل ذلك على أن عمرها أوشك ومصيرها اقترب .

وعندى أن المبرر الأول لوجود الحياة وبقائها هو وجود أناس — قلوبا أو كثرًا — يعرفون ربهم ويؤدون واجبه حقًا . . . فإذا خلت الدنيا من هؤلاء . وبدا أن مثلهم لن يتمخض عنه المجتمع البشرى في طول البلاد وعرضها فمعنى ذلك أن الدنيا أفلست وحقت عليها الكلمة ، وأن فض هذه السوق أصبح محتوما !! . وعلامات الساعة التي ذكرها القرآن الكريم ، وأفاضت فيها السنة تشير إلى هذا في جلاء . .

إن الرسل الكرام بذلوا جهود الجبارة في محاربة الجاهلية وقيادة الناس إلى الله . وقد استجابت لهم أمة من الناس ومشت حينئذ من الدهر تحت لواؤهم ، وستظل تمشي إلى ما شاء الله . فإذا انكشفت أمتهم ، ونكس لواؤهم ، وطمست شرائعهم وهان على الناس أمرهم .

وقامت الحضارات المختلفة على إنكار وحيمهم وإقصاء هديهم . . . ثم شاع الفساد واستبيحت الحرمات وغلقت المعابد ونسى الله — جل وعلا — وماج الناس بعضهم في بعض . . . يومئذ يستحصد هذا العمران كله ويقترب للناس حسابهم . أجل . . . قد تقدم البشرية خطوات رحبية إلى الأمام في ميادين العلم ، حتى لتسخر كل شيء لخدمة الإنسان وترفيه عيشه . بيد أن الإنسان عند ما يصل إلى هذه الدرجة من الارتقاء المادى يكون قد وصل إلى الحضيض من الناحية الأدبية ، سيطفى ويقتل ويعر بد ويقال له « حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرٌ نَا لِيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْن بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ » .

وإليك من حكم النبوة ما يدل على أن الساعة تقوم عقب فساد عريض



لا ينتظر لظلامه فجر ! وفي فترة مُخْلِذ الدنيا فيها إلى أهوائها فلا يُتَوَقَّع لها طهر  
أو ارتقاء .

عن أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة على أحد يقول  
الله الله » .

وعن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى يكون  
أسعد الناس بالدنيا لُكْعُ بن لُكْع » .

ويبلغ من انمحاء معالم الدين أن تعود الوثنية إلى الجزيرة مرة أخرى :  
« لا تقوم الساعة حتى تضطرب إليات نساء دوس حول ذى الخلصة » .

وهو صنم كان العرب يعبدونه في الجاهلية الأولى .

ويتهاوى الناس على اللذائذ يطلبونها من كل سبيل ويدفعون ثمنها شرفهم  
ومروءتهم : « يكون بين يدي الساعة فتن كقطع الليل المظلم . يصبح الرجل مؤمناً  
ويمسى كافراً ، ويمسى مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا »  
وتهبج نيران الحروب في الأرض نتيجة سقوط الضمائر وخراب الذمم :  
« لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرج ! قالوا : وما الهرج ؟ قال : القتل القتل ! »  
وتحقق البركة من الأعمار فهي — مهما طالت قصيرة تمر ما يكاد أحد يشعر  
بها : « لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان فتكون السنة كالشهر والشهر كالجمعة  
والجمعة كالיום واليوم كالساعة والساعة كالضربة من النار » — كإشعال عود  
من الثقاب — .

والأحاديث متكاثرة على أن الساعة تقوم على أشرار الناس .

ولا يذهبن بك التشاؤم مذهب بعض الواهمين ، كلما رأوا منسكراً يفشو  
ضربوا كفاً على كف وقالوا : قامت الساعة ! ! إنها ستقوم حتماً بيد أن  
تربصها بهذا الأسلوب غير مستساغ : إن الأرض من قديم مسرح للفساد

وسفك الدماء . والعراك بين الخير والشر ناشب من قرون سحيقة والأيام  
بينهما دول . وانهمز الخير حينئذ لا يعني أن يفض الله هذا المجتمع المأمج . ولكن  
الذي نزعناه هنا أن الإنسانية المبتلاة بوجودها على ظهر الأرض قد يرخى لها  
العنان ما أثمرت حضارة أو أمة أو طائفة تستقيم على الطريق وتسبح بحمد الله  
وقد يفتخر شر كثير إلى جوار هذا الخير . . . فإذا انقطع الأمل من رشد  
الناس ، وأطبق أهل الأرض على العبث فيها خلفا بعد سلف ، استؤصلت  
شأفتهم ، ثم جمع الأولون والآخرون أمام الله لمحاكمة عامة شاملة : « إِنَّا جَعَلْنَا  
مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا . . . وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا  
صَعِيدًا جُرُزًا » .

### من أشراط الساعة

على أن هناك علامات حاسمة تسبق اختتام الأخير لهذا العالم ، نذكر  
في إيجاز بعضها حتى لا يستطرد بنا الحديث .

منها رجوع عيسى بن مريم إلى الحياة الدنيا مرة أخرى . ولعله خص  
بذلك من بين الأنبياء لأن الخرافة التي تعلقت بشخصه ملأت الأرجاء وقامت  
باسمها دول قوية . فليكن كذب الرجل نفسه ما أشاع الخلق عن أوهيته — وهو  
ليس إلا عبداً لله — ولما كانت الحياة وحدة متماسكة فنزوله في آخر الزمن  
كاف في الدلالة على هذا المعنى وإن جاء عقب ضلال طويل !!

ومن علامات الساعة ظهور الدجال وهو رجل أعور داهية يبدو من  
صفاته المذكورة له أنه ماهر في علوم الطبيعة ، وقد يوفق إلى طائفة من المخترعات  
الرائعة ، ويؤتى القدرة على خداع العامة بما يملك من وسائل ليست بأيديهم ،  
وهذا الأعور الدجال من عباقرة اليهود يدعى الألوهية ، وقد حذرنا السنة



من الاستماع له . وسيطوف في البلاد يدعو لنفسه حتى يقتل آخر الأمر .  
ومن علامات الساعة شروق الشمس من حيث تغرب ، وهذا الانقلاب  
الفلكي إيذان بأن النظام الدقيق الذي تتماكب به أجرام السماء يوشك أن  
يختل — بإذن صاحبه — ثم تفكدر النجوم وتسير الجبال وتمشر الوحوش . !!  
ومن علامات الساعة خروج الدابة . وعندى أن هذه العلامة نوع من  
العتاب والتقريع لبني آدم الذين جهلوا ربهم وجحدوا حقه مع ما آتاهم من عقل  
وفكر . . . فلا بأس أن تخرج سلالة من البغال أو الحمير لتضرب بحوافرها  
جباه الساسة والقادة تقول لهم : أما لكم رأى يصلحكم بالله رب العالمين ؟؟  
أين الذكاء والفهم ؟ كيف تلهدون ؟ « وإذا وَقَعَ القولُ عليهمُ أخرجنا لهم  
دابةً من الأرضِ تكلمهمُ أنَّ الناسَ كانوا بآياتنا لا يُوقِنونَ » .

## البعث والجزاء

سنتهى من هذه الدنيا . وستنتهى هذه الدنيا بعدنا . . . ثم ماذا ؟  
نحب أن نقول أولاً أو نوكد ما قلناه قبلاً : إن الله سبحانه وتعالى ماجد  
عظيم ، وأن كماله الأسنى لا ترقى إلى كنهه العقول . وأنه أوجد البشر تفضلاً  
وأعظام — على ظهر هذا الكوكب الضيق — فرصة خطيرة لو أحسنوا  
استغلالها . وأنه سبحانه وتعالى لن يمنح الخلود في جواره الكريم إلا لمن  
ينتهزون هذه الفرصة . . . فترشحهم أعمالهم وأحوالهم للصعود إلى الرفيق  
الأعلى ! إن الله المجيد لا يقبل إلى جواره الأوغاد ، وإن الله العليم لا يقبل  
إلى جواره الجهلة ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، إن الله نظيف يحب النظافة  
إن السفلة الذين التصقوا بالتراب وعاشوا له لن يرتفعوا عنه « إنَّ الذينَ كذَّبوا  
بآياتِنَا واستَكْبَرُوا عنها لا نفتحُ لهمُ أبوابَ السماءِ » .

من الخير للإنسان أن يعلم علم اليقين أن عمره المحدود في هذه الدنيا إن لم يكن وسيلة للتكامل والترقي فلن يشرق غده ولن يخرج منه بطائل ، فالجنة التي وعد الله بها المتقين لا تتسع لخسيس ولا مهين وإذا لم يكن الإنسان على حظ من السكالم والفضيلة فلن يجد بها منزلاً .

لما استكبر بها إبليس طرد منها وقال الله له « اهبطْ منها فما يكونُ لك أن تتكبرَ فيها . فاخرجْ إنك من الصاغرين » .

ولما غفل آدم عن حق ربه ووهنت في الخير عزيمته أُخرجَ منها وزوجه وعرفهما الله عز وجل وعرف ذريتهما من بعدهما أن للجنة مستوى خاصاً من السكالم من فقده لم يبق لها أهلاً .

فمن بقيت في نفسه أثارة من شر أدركه الموت وهو لم يتطهر منها حبس على شواطئ الآخرة ولم يدخل جنة ربه على تلك الحال قال النبي : « يخلص المؤمنون من النار فيجسبون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أُذِنَ لهم في دخول الجنة . » أ رأيت ؟ لا بد من تهذيب وتنقية ! فمن لم يستو وينضج ويطب في الدنيا انتظرته جهنم لتكامل له ما نقصه وتعوض ما فاته « أَيطمع كلُّ امرئٍ منهم أن يدخلَ جنةَ نعيمٍ كلاً . إنا خلقناهم مما يعامون » .

لقد خلق الإنسان من أصول فيها كدر وكثافة وهوان ، من حمأ مسنون ونطفة أمشاج . وأمامه في الدنيا فسحة من الأجل ينبغي أن يستغلها في ترشيع نفسه للملا الأعلى فيقهر أهواءه ويمسح أكداره ويرقق من طينته ويسمو بطبيعته ويتعهد روحه بالصقل والتهذيب حتى يطيب ويطهر فإذا جاءته رسل ربه لتنقله إلى الدار الآخرة صدق فيه قول الله « الذين تتوفأهم الملائكة



طَيِّبِينَ يَقُولُونَ : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ . أُدْخِلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .  
إن هناك أقواماً تشم في أعمالهم نبتن الطين الذي خلقوا منه وتلمح في  
أخلاقهم كدره وسواده ! هؤلاء ليسوا أصحاب الجنة مهما زعموا وأملوا !!

\*\*\*

يعقد الإسلام صلة وثيقة بين فعل الخير في الدنيا وما يعقبه من سعادة في  
الآخرة ، كما يعقد الصلة نفسها بين اقرار الشرور واستحقاق العذاب الأليم .  
وقد يحاول بعض الناس بأساليب ملتوية وعلل مكذوبة أن يُشكَّكَ في  
هذه الصلات القائمة ولكن هيهات !! فالجرم لا بد أن يلقي عقوبته وأن  
يواجه الجزاء من جنس العمل « إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ  
اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ » وعندما يتلاوم العصاة يوم القيامة  
ويحاول كل فريق منهم إلقاء التبعة على الآخر لينتصل من الذنب ويفر من  
العقاب عندئذ يقرع آذانهم صوت الحق « قال : لَا تَحْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ  
قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » .  
والحسن لا يتخلف عنه الوعد الحق ولا تنقص مكافأته على صالح عمله  
ذرة « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ النَّعِيمِ خَالِدِينَ فِيهَا  
وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » :

ونحب أن ننبه إلى تلاعب طائفة من أدعياء العلم بالنصوص الواردة  
وخبثهم في فصل العلاقة بين العمل وجزائه والاحتمال بذلك على تحقير مظهر  
الخير في العمل الطيب ، ومظهر الشر في العمل الفاسد . . .

والحيلة التي يتوسلون بها إلى ذلك إيهام الناس أن الجزاء مرتبط بالمشيئة  
العليا لا بعمل الإنسان . وأن الفسقة قد ينالهم العفو مهما ارتكبوا ،  
وينشد شاعرهم :

وإني وإن أوعدته أو وعدته لخالف إيعادي ومنجز موعدى !!

وأنه يجوز أن يدخل القاتنون العابدون نار جهنم ... !!!

لأن الله لا يسأل عما يفعل . . وهذا كلام يخالف الحقائق المقررة في دين الله . والغرض منه — كما أسلفنا — إسقاط قيم الأعمال فلا يهرب أحد ذنباً ولا يرجو مؤمن حسنة . وهذه الفلسفة الحقيرة أدت عملها في إفساد الأمة وتلوّث المجتمع وإهانة الدين وتعاليمه . . . والله سبحانه وتعالى يكذب ذلك كله بأسلوب صريح « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » « أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ؟ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ . كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ » .

إن أولى الألباب يوقنون بأن عموم المشيئة لا يعنى التسوية بين خائن وأمين ، وأن جواز العفو لا يعنى إبطال الشرائع وتعطيل القوانين .

\*\*\*

### حول شفاعة إمام الأنبياء

يلغظ عوام المسلمين بأحاديث واردة في شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لبعض العصاة ، وتعلق أولئك العوام بأحاديث الشفاعة يُخيّل إليك أن قوانين الجزاء بطلت ، وأن نيران الجحيم توشك أن تتحول برداً وسلاماً على عصاة المؤمنين !! ، وكثيراً ما يفرض هؤلاء الجهال في الفروض ، ويقعون في أوخم الذنوب ثم يقولون : أمة محمد بخير !! وهذا مسلك ساقط ، ومحمد أول من يستنكره ويحارب أصحابه ، وينذرهم بأنهم أصحاب الجحيم . .



فأما أن الجزاء حق ، وأنه يتناول الذرة من الخير والشر ، وأنه يعم الناس أجمعين ، فذلك صريح القرآن « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »

والقول بأن قوانين الجزاء توقف بالنسبة لاتباع نبي ما سخف فارغ ، وقد كذب القرآن الكريم في مواضع شتى مزاعم الأولين والآخرين لما جمحت بهم أمانيتهم إلى هذا الوهم الباطل .

ولسنا نرد ما صح من أحاديث الشفاعة ، بل ثبتها في مواضعها التي لا تعدوها حتى لا منحرف الكلم عن مواضعه . .

روى الشيخان قال رسول الله « إن لكل نبي دعوة مستجابة ، وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى ، فهى نائلة منكم إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً »

هل معنى هذا الحديث أن الشفاعة التي يرجوها الرسول تنفذ مرتكبي الفواحش والمناكر من ماتوا لا يشركون بالله شيئاً دون أن يستوفوا جزاءهم؟؟ إن الرسول نفسه يردُّ هذا الزعم . وقد روى البخارى حديثاً يصف فيه أهوال الحشر وأحوال أهل النار قال النبي فيه :

يضرب الصراط بين ظهرائى جهنم ، فأكون أول من يجوز من الرسل بأتمته ، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل ، وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم سلم ، وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان ، هل رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا : نعم ! قال : فإنه مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله ، تخطف الناس بأعمالهم ، فمنهم من يوبق بعمله ، ومنهم من يخردل ثم ينجو ، حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار ، أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله ، فيخرجونهم ويعرفونهم بأثار السجود ، وحرّم الله على النار أن

تأكل آثار السجود ، فيخرجون من النار ، فكل ابن آدم تأكله النار إلا  
أثر السجود ، فيخرجون من النار قد امتحشوا فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون  
كما تنبت الحبة في جميل السيل . . . »

وهذا الحديث يفيد أن من المسلمين الذين يعبدون الله وحده قوما  
سيدخلون النار .

وأن لها سينال من ملامحهم فلا يعرفون إلا بآثار السجود .  
وأن رحمة الله فحسب هي التي تدركهم فتقدهم مما يعانون من بلاء ، ثم  
تغسل أوصارهم الأولى بماء الحياة لينبتوا — بعد — خلقاً جديداً يصلح  
للنعم والرضوان . . .

\*\*\*

فليس للشفاعة هذا النطاق الواسع الذي يبرر به الخطاءون إصرارهم ، وما  
تفيدهم أمانيتهم فيها شيئاً وقد بين الله سبحانه أن الشفاعة لا تجدى على كافر ،  
ولا على فاسق مثقل بالخطايا .

قال « وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ  
وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ ، وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ » .

وقال كذلك « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى  
جَمَلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى » .

والنفس المثقلة بالخطايا — ولو كانت لرجل من المصلين — لا يفوتها  
جزاؤها كما رأيت في حديث الرسول وهو يصف أمته عند اجتيازها الصراط .

\*\*\*

والظاهر أن الشفاعة التي يرجوها النبي الكريم إنما تدرك صنفاً من  
الناس تأرجحت موازين الحق والباطل في أعماله فهو بين السقوط والنجاح .



ونحن في حياتنا ننظر إلى التلاميذ الذين يقتربون من النهاية الصغرى للنجاح نظرة رافة . ونميل إلى منحهم درجة أو درجتين جبرا لنقصهم . أما الذين يتعدون عن المستوى الأدنى للنجاح مسافة بعيدة فإننا نحكم بسقوطهم فوراً .

فعل الشفاعة المنسوبة للرسول الكريم تنفذ أمثال هؤلاء المقار بين النجاة . . .

وبهذا التفسير يتم الجمع بين النصوص .

\*\*\*

وقد يكون المقصود من هذه الشفاعة التنويه بمكانة النبي صلوات الله وسلامه عليه والإشادة بمنزلة الكبرى عند الله . . .

ومثال ذلك في مجتمعا أنه في مناسبات خاصة — كعيد ميلاد الملك أو جلوسه — يفرج عن طوائف من المسجونين قضاوا أغلب المدد المحكوم عليهم بها . ويراد إشعارهم بفضل المناسبة التي ستسوق لهم العفو والحرية وهذه الحرية الممنوحة بالعفو العام لا تحدش أصل العقوبة المقررة ، ولا يفهم منها أنه لا ضرورة لسن القوانين وبناء المحاكم وتعيين القضاة . . . كما يريد أن يفهم ذلك عوام المسلمين من أحاديث الشفاعة المنسوبة لنبيهم ، والتي تشير إلى أن الله قد يجيب دعاء نبيه وهو جاث بين يدي ربه يسأل الصفح عن الأمم الغفيرة من الأولين والآخرين التي أدركها حر الموقف المعنت وأهلب عصانها شواظ من النار المستعرة فهي تضرع إلى الله أن يرفع غضبه وتتردد على أنبيائه جميعاً كما يشاركوهم الرجاء والدعاء .

على أنه مهما بلغت منزلة عبد عند الله فإن يتجاوز في الله حد الملق والزلفى لمولاه ، وما كان لنبي أن يفرض رأياً أو يقرر حكماً : « وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ

عِنْدَهُ إِلَّا مَنْ أَدِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ  
قَالُوا : الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ » .

« يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَدِنَ لَهُ  
الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا » .

فلا كلام إلا بإذن ، ولا كلام إلا بصواب ، ومرد الأمر لله وحده فإذا  
كان من الناس من يقترب للموبات المهلكة اعتماداً على شفاعته موهومة  
فليذكر قول الحق في أهل النار :

« مَا سَأَلْتُمْ فِي سَعْرٍ ؟ قَالُوا : لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ  
الْمِسْكِينَ وَكُنَّا تَخَوِّضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى  
آتَانَا الْيَقِينَ . فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » .

ونحن بعد هذه المقدمات الواجبة نروى حديث الشفاعة العظمى معتقدين  
أن قارئه لن يتجاوز به حدوده . .

عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يجمع الله الناس يوم القيامة  
فيهمون لذلك ، وفي رواية فيلهمون لذلك فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا  
فيريحنا من مكاننا ، فيأتون آدم فيقولون أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده  
وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء . اشفع لنا عند  
ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيقول : لست هناكم فيذكر خطيئته التي  
أصاب فيستحي ربه منها ، ولكن اتوا نوحاً أول رسول بعثه الله إلى أهل  
الأرض فيأتون نوحاً ، فيقول : لست هناكم فيذكر خطيئته التي أصاب  
فيستحي ربه منها ، ولكن اتوا إبراهيم الذي اتخذ الله خليلاً ، فيأتون  
إبراهيم ، فيقول : لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها



ولكن ائتوا موسى الذي كلمه الله وأعطاه التوراة ، قال : فيأتون موسى فيقول  
لست هنا كم ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحيي ربه منها ، ولكن ائتوا  
عيسى روح الله وكلمته ، فيأتون عيسى روح الله وكلمته ، فيقول : لست هنا كم  
ولكن ائتوا محمداً صلى الله عليه وسلم عبداً قد غفر له ما تقدم من ذنبه  
وما تأخر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فيأتوني فأستأذن على  
ربي تعالى فيؤذن لي فإذا أنا رأيته وقعت ساجداً ، فيدعني ما شاء الله فيقال  
يا محمد ارفع رأسك قل تسمع ، سل تعطه ، اشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأحمد  
ربي بتحميد يعلمنيه ربي ، ثم اشفع فيجد لي حداً فأخرجهم من النار وأدخلهم  
الجنة ، ثم أعود فأقع ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني ، ثم يقال لي :  
ارفع يا محمد رأسك قل تسمع ، سل تعطه ، اشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأحمد  
ربي بتحميد يعلمنيه ربي ، ثم اشفع فيجد لي حداً فأخرجهم من النار وأدخلهم  
الجنة قال : فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة ، قال فأقول يا رب ما بقى في النار  
إلا من حبسه القرآن أى من وجب عليه الخلود .

إن أتباع الدين يجب أن يعرفوا أن الحساب الإلهي لا يغفل الذرة من  
الخير أو الشر . وأن هذه الدقة تنفي كل تصرف ينطوي على القوضى وكثيل  
الجزاء جزافاً وقد ندد القرآن الكريم باليهود لما سرت بينهم هذه الآراء  
الغريبة ، حتى ظن عامتهم أن الجنة حكر لهم ولذرياتهم — لأمر ما —  
فأقبلوا على ملذات العيش الأدنى ينتهبونها ويقولون في يقين سيغفر لنا !! .  
« فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى  
وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ  
مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ؟؟ — وَدَرَسُوا مَا فِيهِ —  
وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . »

والمؤسف أن هذا القطع بين العمل والجزاء رسب في أوهام العامة فأساءوا به إلى أنفسهم وإلى دينهم . . ثم إن عوج سلوك المنسو بين إلى الدين وقلة فقههم وسوء ذوقهم مكن للإلحاد في الأرض ورفع الثقة من الأديان ومثليها جملة . . . ! !

والعجب للمسلمين ، يصابون بهذه اللوثة وهم يقرأون قول الله « لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا » .

\*\*\*

الجزاء حق ، ولقد أكره القرآن من التذكير ومن سوق النذير بعد النذير لأن أكثر الناس يذهلهم ما أمامهم عما وراءهم ، بل ربما أنكروه وسخروا منه غير عابئين بهذا الغد الزاحف . ولو عقلوا لعرفوا أن الآخرة هي المستقبل الذي يجب على كل راشد أن يوفر فيه أسباب سعادته ، وأن يجعل حاضره من الدنيا تمهيداً له ، وأن يجعل سعياً في حياته غراساً لا تنتظر ثمراته القريبة بقدر ما تؤمل عند الله عواقبه المذخورة .

إن نتائج أعمالنا في الدنيا خطيرة جداً . سنقضى سنوات احتواها كتاب مؤجل ، ثم تصير الدنيا بعد أن نتركها كما كانت قبل أن نطرقها ، صفراً إلا مما تزودنا به منها ، ولو كان أكثر الناس وطيد الرجاء في حياة مقبلة ما أرخص عمره وما احتسب وقته أهون ما لديه من متاع . « ارتحلت الدنيا مدبرة وارتحلت الآخرة مقبلة ولكل منهما بنون فكونوا من أبناء الدار المقبلة ولا تسكونوا من أبناء الدار المدبرة فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل » .



## منكرو البعث وسخف مزاعمهم

من العصور الخالية وأقطار الأرض منسوبة بصنف من الناس يظنون أنهم مربوطون بأعباء الحياة كما تربط الحمير بعربات القمامة ، نظل تدور بها حتى يغلبها الإعياء وتدرکها الشيخوخة فتموت حتف أنفها أو يطلق عليها الرصاص . . . ثم لا شيء ! يقولون : إن هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر . . . وهؤلاء كثيراً ما يشغبون على المؤمنين ويجادلونهم بالباطل ويحاولون توكيد رأيهم السقيم بالإصرار والحلف ! الخلف بما لا يؤمنون ! « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ بِلَى . وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

وما يحفظ المعرى في ترجيح حياة المصدق بالآخرة وتقبیح حياة الإلحاد وما يكتنفها من فساد :

قال المنجم والطبيب كلاهما	لا تُحْشَرُ الأَجْسَادُ قَلَّتْ إِلَيْكَا
إن صحَّ قولكما فليست بخاسر	أَوْصَحَّ قَوْلِي ، فَالْخَسَارُ عَلَيْنِكَا !
طهرتُ ثوبى للصلاة ، وقبله	طهر ، فأين الطهر من جسديكَا ؟
وذكرتُ ربِّي في الضامر مؤنسًا	خَلَدِي بِذَاكَ . فَأَوْحِشَا خَلْدِيكَا
وبكرت في البردين أبغى رحمة	منه ، ولا ترعان برديكَا !
إن لم تعد بيدي منافع بالذى	آتى . فهل من عائد بيديكَا ؟
برؤد التقي وإن تهامل نسجه	خيرُ بعلم الله من برديكَا !

وهذا الكلام من المعرى يصف من الموضوع ناحية جانبية فقط ، فإن الدين يحفظ القلوب أن تمرض ، ويصون الأعراض أن تחדش ، بل يقي الأبدان — بمسلكه النظيف — عوادي شتى تتمخض عنها الشهوات المنطلقة والأهواء العاصفة . لكن هذه الثمار الجميلة ليست الدليل القدر . ويبدو أنها ذكرت فقط إغلاقاً لباب الجدل مع السفهاء .

روى أن واحداً من أولئك المنكرين جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم بالٍ وعرضه عليه بحسب المغفل أنه سيفحمة إذ يريه العظم ثم يتساءل كيف يتحول هذا إلى بشر سوى ؟ « وضرب لنا مثلاً — ونسي خلقه — » وهذا الاعتراض صفة للسائل المستبعد ترده إلى مكانته التي يتناول فوقها « قَالَ مَنْ يُنْحَى الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُخَيِّبُهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . . . . . أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ بَلَى . وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ » .

نعم يخيئها المبدع المنفرد في شئون الخلق والإيجاد والتصوير . . .

ودلائل البعث ترجع في جملتها إلى لفت أنظار الناس نحو حقائق بديهية

مسألة .

فالذي بدأ الخلق يستطيع — إذا أفناه — أن يعيده « وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ؟ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا » .

وهذا الخلق المعاد تتكرر تحت أعيننا صور شتى له ، كل يوم بل كل لحظة . فالرجل من حيث لا يشعر تصنع غده الجنسية ألوف الألوف من الحيوانات المنوية . في واحد منها فقط أساس كامل لبشر كامل . ولعل



هذه الكثرة في إيجاد أصول الحياة يُقصد بها إلى الدلالة على أن الموجد على درجة من الغنى في خلق أسباب الحياة تجعل إنشاء الناس أمراً تافهاً بالنسبة إلى قدرته .

« أَفَرَأَيْتُمْ مَا يُمْنُونَ ؟ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ؟ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمُسْبُوقِينَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَ لَكُمْ فِيهَا مَا تَعْلَمُونَ ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ؟ » .

وعن أبي رزين العقلي : قلت يا رسول الله : كيف يُعيد الله الخلق وما آية ذلك ؟ قال : أما مررت بوادي قومك جذباً ، ثم مررت به يهتز خضراً ؟ قال نعم ! قال : فذلك آية الله في خلقه ، كذلك يُحيي الله الموتى ! « والواقع أن الزروع التي تكسو وجه الأرض وتمتس فيها بالحياة والنماء ليست مما تصح الغفلة عن دلالاته . إن الفلاح يستودع ظلمات التراب حبة واحدة أو ساقاً واحداً فإذا بحمله يتحول — باسم الله — إلى جنان يانعة وثمار شبيهة وحصاد ميمون . . .

كيف تحوّل الكدر والقدر والطين إلى ثمار وأغصان ورياحين ! ؟  
« وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ .

والمادة الميتة تتحوّل — في كل غذاء نتناوله — إلى خلايا حيّة في جسدنا يسرى فيها الشعور وتتنفّض بالحركة فما معنى استنكار ما يقع شبيهه بيننا أبداً ؟ هل النشور إلا هذا ؟

ثم ما ظن الإنسان بنفسه؟ إن الأرض ومن عليها خلق صغير متواضع بالنسبة إلى الوجود الضخم الذي يزحم الفضاء البعيد ويزخر به الملكوت الرحيب. وشأن الناس إلى جانب العوالم الأخرى قليل: « تَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ». فكيف يُستكثر على من يُقيم قصرًا منيف الشرفات سامق العمدة أن يبني كوخًا تافهًا بعد هدمه؟ .

إن البعث عقيدة فوق الشبهات فلنتهياً له بالزاد الطيب ، من الهدى والتقى والعفاف .

خطب النبي صلى الله عليه وسلم أول بعثه فقال : « إنَّ الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غششت الناس جميعاً ما غششتكم ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً . وإنها الجنة أبداً أو النار أبداً » .

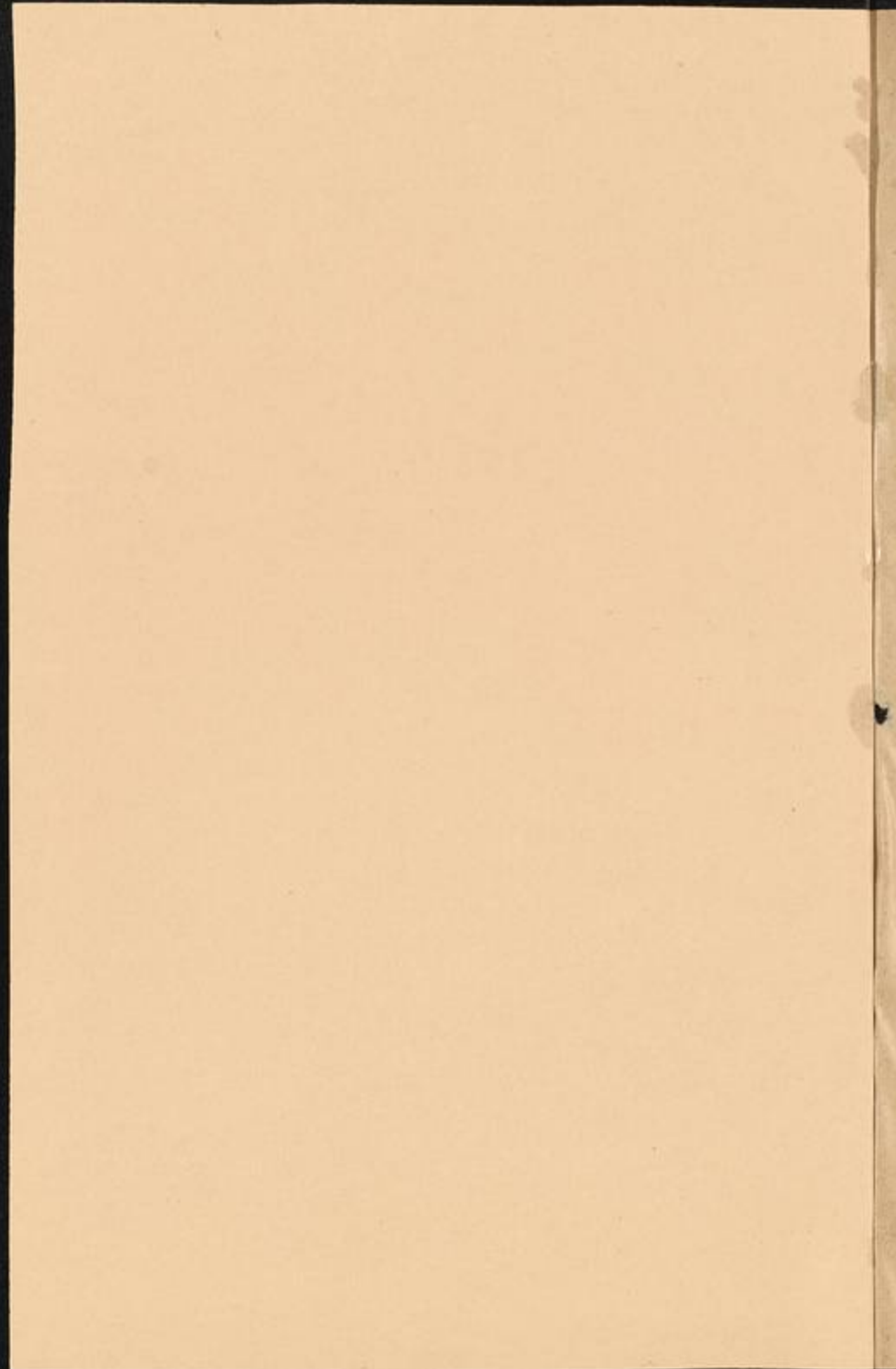
فإذا طلعت عليك شمس يوم من أيام الدنيا بعد نوم مستغرق . فاذا كر أن هناك يقظة سوف تعقب الهجمة المؤقتة في القبر يساق بعدها أهل الشر إلى سقر ، ويساق أهل الخير إلى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ .





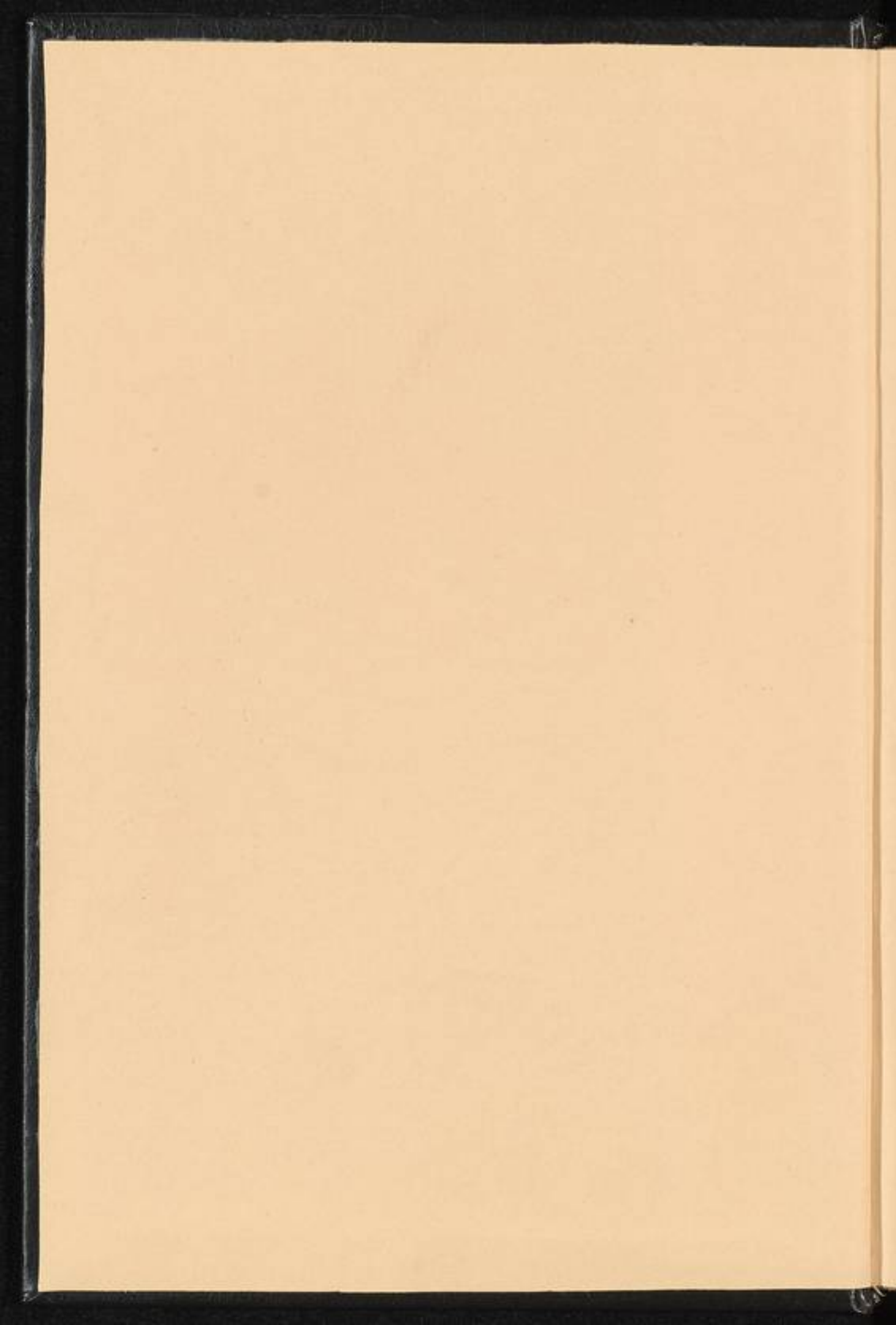












OLIN

BP

165

.5

.G53

1952